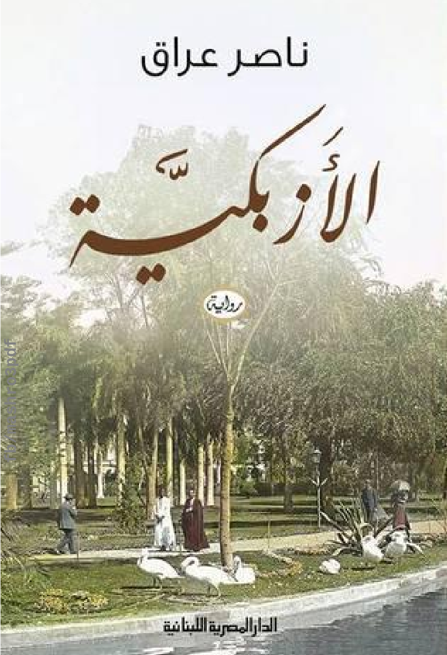
ناصر عراق
الأزبكية
رواية
الدار المصرية اللبنانية

إلى الذي علمني فضيلة عشق الوطن

إلى ذكرى أبي

fb/mashro3pdf

(تُعد الحملة الفرنسية على مصر وسيلة للسيطرة على المصالح العامة. إن جُلَّ مصالح الملك يمكن أن يضعها في مصر، وبالفعل يعتبر غزو مصر حقًّا لفرنسا.. علينا بتجهيز فرقة قوية وإعداد كل شيء بطريقة تسمح للملك بإصدار أمره اليوم، بل هذا المساء أو غدًا صباحًا ويتم تنفيذه، على ألا يتم تسريب أي شيء عن الخطط المتفق عليها، وألا يشك أحد في الهدف الحقيقي من هذه الاستعدادات؛ فيكفي 30 ألف رجل للقيام بهذه المهمة).

الفيلسوف الألماني ليبنتز من (مذكرة غزو مصر)

مقدمة لملك فرنسا لويس الرابع عشر عام 1672/ كتاب (بونابرت في الشرق الإسلامي) صفحات 43 : 42

fb/mashro3pdf

(أيها الضباط والجنود.. لقد حضرت منذ عامين لأتولى قيادتكم، وكنتم يومها على ساحل ليجوريا تعانون الفاقة والعوز في كل شيء، حتى لقد بعتم ساعاتكم لتشتروا ما تحتاجون إليه، وقد وعدتكم أن أقضي على هذا الحرمان، وقدتكم إلى إيطاليا، حيث أعطيتم كل شيء بسخاء.. فهل بررت بوعدي لكم؟

حسنًا.. دعوني أخبركم أنكم لم تفعلوا بعد للوطن ولا فعل الوطن لكم ما فيه الكفاية، وإني الآن قائدكم إلى بلد تفوقون فيه بأعمالكم

المقبلـة ما قمتم به إلى الآن من أعمال تدهش المعجبين بكم.. وإني أعد كل جندي أن يحصل عند عودته إلى فرنسا على ما يكفيه لشراء ستة أفدنة من الأرض!).

نابليون بونابرته عضو المجلس الوطني والقائد العام

مخاطبًا جنوده في ميناء طولون بفرنسا

10 مايو 1798/ كتاب (بونابرته في مصر) صفحة 15

(أيها الجنود.. ستقومون بغزوة سيكون لها أكبر الأثر على الحضارة والتجارة في العالم. وستكون أكبر ضربة توجَّه لإنجلترا في انتظار أن تقضوا عليها بالضربة القاتلة. ستكون المسيرة شاقة، وستخوضون العديد من المعارك، وسيكون النصر حليفنا لأن الأقدار في صالحنا. فالمماليك الذين يفضلون التجارة مع الإنجليز دون سواهم، والذين أمعنوا في إذلال مفاوضينا، واشتد طغيانهم على سكان النيل التعساء، سيصبحون بعد وصولنا ببضعة أيام أثرًا بعد عين).

نابليون بونابرت مخاطبًا جنوده من مركز القيادة العامة على متن السفينة (لوريان) في عرض البحر الأبيض المتوسط 12 يوليو 1798/ كتاب (بونابرت في مصر).

fb/mashro3pdf

(يا شعب القاهرة.. كم أنا سعيد بسلوككم. لقد أحسنتم صنعًا بعدم الانحياز ضدي، فما جئت إلا للقضاء على سلالة المماليك وحماية التجارة ومصادر البلاد الطبيعية. ليهدأ كل مَن كان بنفسه خوف، وليعُد

كل مَـن خرج إلى منزلـه، ولتُقم الصلاة اليوم كما هـي العادة، وكما أريد لها أن تستمر دومًا. لا تخشوا على نسائكم وبيوتكم وأملاككم، وخاصة على دينكم الذي أحبه).

بونابرته عند دخوله القاهرة

24 يوليو 1798

(بعـد أن علمـت بتهيـؤ أسـطولي للرحيـل وعلـى متنه جيـش هائل، واقتناعًـا منـي كمـا قلت لكم عـدة مرات بأننـي طالما لم أسـحق بضربة واحـدة أعدائـي كافة فلـن أنعم بهـدوء بمصر، أجمل بقـاع الأرض، فقد قررت أن أتولى قيادة أسطولي، وأن أعهد بالقيادة في أثناء غيابي للجنرال كليبر، وهو رجل متميز أفتخر به. وقد طلبت منه أن يُكِنَّ للعلماء والشيوخ المحبـة نفسـها التي أكنها لهم. لتفعلوا ما في وسـعكم حتـى يحظى بثقة شـعب مصر بـي، وحتى يكون هذا الشـعب مصدر سـعادتي عند عودتي في غضون شـهرين أو ثلاثة، ولا تجعلوني أحمـل إلا المديح والمكافأة للشيوخ عند عودتي).

بونابرته مخاطبًا (ديوان القاهرة أكثر الدواوين حكمة واستنارة)

من مركز القيادة بالإسكندرية/ 22 أغـسطـس 1799

(تلقيـت خطابـك الآن أيهـا المواطـن الجنـرال، وإن بي مـن الغباوة الشـديدة مـا لا يجعلنـي أظـن حتـى اليـوم أن اتفـاق العريـش كان خطأ سياسـيًا، أو أن هناك أي مبرر للتيه بالنصر الذي كسـبته بجيشـي، فأنا إلى

fb/mashro3pdf

اليوم شديد الاقتناع بأنني بهذه المعاهدة وفقت في وضع حد معقول لمشروع جنوني، وما زلت إلى اليوم مؤمنًا بأننا لن نتلقى معونة من فرنسا.. وأننا لن ننشئ أية مستعمرات في مصر ما لم تنبت أشجار القطن والنخيل جندًا ورصاصًا.. إن وجهك أيها الجنرال يتجه صوب الشرق، أما وجهي فصوب الغرب، ولن يفهم أحدنا الآخر أبدًا).

«كليبر» القائد الثاني للحملة الفرنسية في رسالة إلى «مينو» مدافعًا عن توقيعه على اتفاقية العريش المبرمة بين الحملة الفرنسية والدولة العثمانية برعاية إنجليزية في 18 يناير 1800 والتي تقضي بجلاء جنود الحملة الفرنسية عن مصر.

(عزيزي الجنرال.. إن زوجتي طويلة القامة.. مبسوطة الجسم.. حسنة الصورة من جميع الوجوه، فلها عينان رائعتان، ولون بشرتها هو اللون المصري المألوف، وشعرها طويل فاحم، وهي لطيفة الطبع، وقد وجدتها تتقبَّل كثيرًا من العادات الفرنسية بنفور أقل مما توقعت.. وأنا لم أُلح عليها بعد في الخروج سافرة على الرجال، فهذا يأتي شيئًا فشيئًا.. ولن أنتوي الانتفاع بما أباحه النبي من الزواج بأربع نساء خلاف السراري.. فإن في النساء المسلمات شهوة حارة عنيفة، وفي زوجة واحدة أكثر من الكفاية لي).

fb/mashro3pdf

الجنرال جاك عبد الله مينو القائد الثالث للحملة الفرنسية - الذي أشهر إسلامه - واصفًا للجنرال «مارمون» ملامح زوجته المصرية - زبيدة - حين سأله بوضوح عن طبيعتها وشكلها.

(لم تعد هذه العاصمة كسابق عهدها. هي بحجم باريس وتضاهيها ازدحامًا، ولكن بأية نوعية من البشر؟ إنهم رجال قذرون في سواد منظفي المداخن عندنا في سافوا. كسالى خاملون كصعاليك نابولي.. وشوارع القاهرة ضيقة، وهواؤها غير صحي، كما أنها غير ممهدة، وتنعدم فيها المصابيح في الليل، وأغلب البيوت لا تعدو أن تكون مجرد أكواخ شديدة البؤس، أما ديار الأثرياء، فمشيدة بكتل ثقيلة من الحجارة أو الطوب ومكسوة بالبوص المجدول، فإن تهدمت لم يكلفوا أنفسهم عناء إصلاحها، وإنما قاموا بتشييد غيرها في مكان آخر).

الضابط جوزيف ماري مواريه

كتاب (مذكرات ضابط في الحملة الفرنسية) ص 54

(كان ما يقرب من نصف عدد العمال من الأقباط المسيحيين، وكان هناك نوع من التسامح يجعل المسلمين يعيشون في سلام معهم، ومع ذلك فلن نعدم وجود أمثلة على الجشع والحقد أو عدم التسامح تدفع الأتراك في بعض الأحيان باعتبارهم المتصرين والمتشيعين للديانة السائدة ينظرون لأنفسهم باعتبارهم جنسًا له امتيازه).

كتاب (وصف مصر/ الجزء السادس) في وصف دار سك النقود بالقاهرة

تأليف علماء الحملة الفرنسية

fb/mashro3pdf

(وأفردوا الجماعة منهم بيت إبراهيم كتخدا السناري، وهم المصورون لكل شيء، منهم أريجو المصوِّر، وهو يصور صور الآدميين تصويرًا يظن مَن يراه أنه بارز في الفراغ مجسَّم يكاد ينطق... ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة ينتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا).

الجبرتي متحدثًا عن زيارته المجمع العلمي المصري الذي أنشأه نابليون في 1798

كتاب (عجائب الآثار في التراجم والأخبار) عبد الرحمن الجبرتي/ الجزء الخامس

(بالنظر إلى الكرم والعدل اللذين أظهرتهما أعمالكم نحو الشعب، فإننا لا نفكر في غيركم. ستكونون الحاكم، وسنخضع لشروطكم).

عمر مكرم نقيب الأشراف والشيخ عبد الله الشرقاوي وكبار التجار يخاطبون محمد علي في منزله بالأزبكية في ليلة 12 مايو 1805

من كتاب (الفرعون الأخير) للمؤلف الفرنسي جيلبرت سينويه

(لا تحكموا عليَّ مقارنة بكم. قارنوني بالجهل الذي يحيط بي. لا يمكنكم أن تطبقوا القوانين نفسها في مصر وإنجلترا، تلزمنا سنوات طويلة لنبلغ المستوى الذي بلغتموه).

محمد علي مخاطبًا الأمير الإنجليزي بوكلير موسكو عام 1837

من كتاب (الفرعون الأخير)

fb/mashro3pdf

ايوب - ليلة زفافي

12 مايو 1805

النعيم كلُّه بين يديَّ. الجسد الممتلئ والملمس الناعم والبشرة الصافية والعينان السوداوان. وبعد قليل سأجوب بستان الأنوثة أقطف ما أشاء من الفواكه اللذيذة والورد اليانع. وقبل أسبوعين قال لي أبوها: «البلد في فوضى يا بني، والهنود والأكراد والفرس والأرناؤوط يعيثون في الأرض فسادًا، فلنؤجل الزفاف حتى تهدأ الأمور». فقلت له: «إننا سنقيم الزفة في حارتنا وسيحمينا شباب الحي وفتواته على أية حال»، فأردف محاولًا إرجاء الأمر: «فلننتظر حتى يكتمل البدر يا أيوب»، فمازحته مسرعًا: «كريمتك سعدية هي بدري وقمري يا حاج عبد المجيد»، فأيَّد كلامي ضاحكًا صديقه تاجر الخشب الحاج ماشاء الله شمس الواعظين، وسألني هل انتهيت من نسخ كتاب «طوق الحمامة» لابن حزم أم ليس بعد؟

تبخَّرت الزغاريد وتلاشى الغناء، وانفضَّ الجمع وأُطفئت الفوانيس والمشاعل، وحمد الجميع الله عز وجل لأن الجنود الأجانب لم يقتربوا من حارة المشهد الحسيني هذا المساء؛ إذ توجهوا نحو باب زويلة لينهبوا

fb/mashro3pdf

قافلة محملة بالخضراوات والفاكهة بعد أن نما إلى علمهم أنها قادمة توًّا من قليوب.

سكن الليل وأعلن سطوته بنسائم منعشة ومتتالية فابتهج قاطنو حارة المشهد الحسيني وانشرحت صدور الجالسين في المقاهي وارتفعت أصواتهم بالحديث والضحك. وسعدية تسترق النظر نحوي من مجلسها على الأريكة الكبيرة، تتعثَّر في حيائها، وتقبض على طرف فستانها بأطراف أصابعها الرقيقة المرتعشة تنتظر اللحظة الحاسمة. تفضح توترها المكتوم خيوط نور تنبعث من الشمعدان، لكنها تزيدها فتنة ومُلحة. دنوتُ منها برفقٍ.. خلعتُ عمامتي وألقيتها كيفما اتفق.. سويتُ شعري بحركة لا إرادية.. نكستْ رأسها.. تورَّد خدَّاها وصارا بلون التفاح.. دوَّخني عطرها.. مددتُ يدي بهدوءٍ لأرفع الطرحة التوللي عن وجهها.. ارتجفتْ.. شهقتْ بصمت.. صدرها يعلو ويهبط سريعًا فيتفجر جسدي برغبة متوحشة.

حين لمستُ بأناملي وجنتيها اجتاحني خاطر مؤلم. تذكرتُ فرانسوا الجميلة وهي تنزف بين أحضاني هامسة بصوتٍ مزقته الطعنات: «قتلوني يا أيوب». أغمضتُ عينيَّ لثوانٍ وطردتُ الخاطر الأسود وقهرتُ الذكرى في الدم وابتعدتُ بشكلٍ لا إرادي عن سعدية. خطفتْ نظرة حائرة نحوي. شددتُ من أزري، فالجسم مُستعر، ونار الغرام تتقد في أعضائي، للحظة تذكرت حسنات والخرابة ومأوى العفاريت، فأزحت كل شيء من خاطري بحركة عفوية من رأسي. اقتربتُ من سعدية أكثر

fb/mashro3pdf

والتصقتُ بها حتى مستني نيران جسدها، فارتعشتُ. همستُ بنبرة حانية محاولًا ترويض اللحظة الجامحة: «مبروك يا عروسة»، فأجابت بصوتٍ هو للهمس أقرب: «متشكرة». وفي ثوانٍ غمرتها بقبلاتي، وهي بين يديَّ تستجيب بخفرٍ وتلين بسهولة، وحين صرنا عاريين تمامًا، وقبل أن يكتمل ضوء الحب، وقبل أن يلتحم الجنون المقدس تلقت أذناي الطرقات السرية.. ثلاث طرقات قوية وسريعة على الباب، تعقبها طرقتان خفيفتان، ثم طرقة قوية أخيرة.

انتفضتُ.. نهضتُ.. غاص صدري في جوفي.. تركتُ سعدية - وكانت تحتي - تغلي على سرير الحيرة وتداري نهديها بفستان عُرسها. ترمقني بنظرات ذعرٍ وترقُّبٍ. عيناها تستغيثان وجسدها يتلهف. حشرتُ جسدي في جلبابي على الفور. أطفأتُ الشمعدان. حاولتُ ضبط إيقاع نبض قلبي المتسارع. تجرعتُ شربة ماء من القلة. ما زال جسدي تحت تأثير اللحظة الحميمة الفائتة، لكن عقلي مشوَّش بشدة. اقتربتُ من الباب بحذر. وضعتُ أذني لصقه وأصخت السمع وسألت بصوتٍ خفيضٍ: «مَن الطارق؟». جاءني على الفور الصوت الأجش لعلي أبو حمص راجيًا بإلحاح: «افتح يا أيوب.. افتح». تسارع وجيب قلبي خفقانًا.. ما الذي جاء به الآن؟ لقد رقص وحطَّب وصفَّق وغنَّى في الزفاف بكل حماسة تليق بصديق وفي، ثم انصرف مع المنصرفين. فتحتُ الباب بحرصٍ فرأيت على ضوء النجوم الساهرة العرق يتصبَّب من جبينه بغزارة، وأثر جرح حديث ما زال ينزف من عنقه. ارتعبتُ..

fb/mashro3pdf

سألته بعد أن أغلقت الباب سريعًا: «ماذا حدث؟ ما بك يا علي؟». انحنى واعتدل حاملًا طرف جلبابه ليجفِّف به عرقه المتصبب، وهو يلهث وقال باستهانة: «أبدًا.. تعاركت مع جندي من الأكراد عند جامع الحسين»، ثم أضـاف بتوتر: «دعك من هذا.. حدثت مصيبة الليلة». قبضتُ بكلتا يديَّ على كتفيه وصرخت: «ماذا؟!».

تهاوى على الأرض، وقال يائسًا: «ذهب السيد عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوي ومحمد أبو أنور السادات قبل قليل إلى بيت الضابط محمد علي بالأزبكية طالبين منه أن يقبل بتولي حكم مصر». صحتُ مرجرجًا كتفيه بعنف: «يا نهار أسود.. أرناؤوطي يحكم مصر.. كيف؟!».

* * *

fb/mashro3pdf

شارل - ما زلت بالقاهرة أقيم

12 مايو 1805

أمس مرَّتْ تسعة أعوام على وصولي أرض مصر للمرة الأولى، واليوم حضرتُ زفة أيوب السبع، ناسخ الكتب النبيه، بعد أن ظل المسكين رافضًا الزواج بعد أن وقعت المصيبة، وقد أسعدتني كثيرًا استعادته روح المرح التي افتقدها منذ سنتين تقريبًا، فكنت أتابع تألق عينيه وهو يصافح المهنئين، وألاحظ تعجُّله في إنهاء الزفة والطقوس والمجاملات حتى يفرغ لعروسه ويستمتع بها. وقد يأتي يوم أفخر فيه أو أتعجب لأنني كنت الفرنساوي الوحيد الذي أُتيح له حضور هذا العُرس الشعبي الرائع، وحين همس في أذني والد العروس الحاج عبد المجيد العطار قائلًا: «متى سنبارك لك يا خواجة شارل؟»، ابتسمتُ وتذكرتُ روز حبيبة الفؤاد وأنيسة الروح التي قتلها الحراس عندما كنا في فرنسا ضمن الآلاف نقتحم سجن الباستيل قبل ست عشرة سنة، وتحديدًا في 14 يوليو 1789، لقد كنا على وشك الزواج، ولولا حماستنا وشوقنا إلى الحرية والمساواة والعدل ما انغمسنا في الثورة، وما أجَّلنا الزواج. لا أدري الآن كيف تجاوزتُ هذه المحنة؟ هل إيماني بالثورة وانضمامي

fb/mashro3pdf

إلى الثوار لنسقط حكم لويس السادس عشر هما اللذان أمدّاني بطاقة تحمُّل؟ أم أن مرور كل هذه الأعوام هو الذي جعل ذكرى روز تخبو في فؤادي؟ أم أن التجوال في البلاد يُنسي الأحبة ويداوي القلب المجروح؟ أم أن ما فعلته مسعدة حجاب يمحو الغرام القديم؟

أجل.. لولا تشجيع أبي ما غادرتُ باريس، ولا تجاوزتُ أحزاني، وهكذا وجدتني مشغولًا بالشرق وطقوسه وشموسه الساطعة، فلما أنهيت دراسة الفنون الجميلة في أكاديمية اللوفر قبل أن يحولوها إلى متحف وطني بعام واحد فقط، ساعدني والدي على الالتحاق بالمعهد القومي الفرنسي لدراسة الحضارة واللغات الشرقية، فتعلمت التركية والعربية بمستوى لا بأس به. وفي يوم من أيام سبتمبر عام 1794، وبعد أن أعدموا روبسبير، الذي أعدم من الثوار أكثر مما أعدم من الملكيين برغم كونه ثوريًا، غادرت باريس تاركًا حفنة من ذكريات عزيزة وأليمة منثورة في شوارعها وميادينها وحدائقها ومتاحفها. توجهتُ نحو إسطنبول حاملًا ألواني وأوراقي ولوحاتي البيضاء. أذهلتني المساجد الشاهقة في إسطنبول، وأعجبني المناخ البديع ونقاء الأفق، وانفعلت بالإضاءات الساحرة وتزاوج الظل والنور على المباني والأشجار والوجوه، لكنني لم أسترح للأتراك، ولم أتعاطف معهم، فهم يتمرغون في وحل الغطرسة والعنجهية، ولا يبدون تعاونًا مع غريب، كما أنهم يفقدون أعصابهم بسرعة، ولأتفه سبب وربما بلا سبب على الإطلاق، فيشتمون ويسبُّون رغم ادعائهم التدين، ففكرت أكثر من مرة في العودة إلى باريس، لكن

fb/mashro3pdf

للقـدر حكمتـه وللزمن قوانينه. ففي أحـد الأيام، كنت جالسًـا في مقهى بإسطنبول. الطقس رائق والأفراح شحيحة والحياة تسير كعادتها، فإذا بي أتلقى حديثًا باللغة العربية يدور بين اثنين يجلسـان خلفي. وبسرعة كبيرة انضممت إليهما وتعرَّفت عليهما. كانا تاجرًا مصريًّا وبصحبته مساعده، وقد أصرَّا أن يدفعا لي ثمن أو حسـاب القهوة بعد أن تبادلنا حديثًا طويلًا عن مصر. جذبتني البسـاطة التي يتحدثـان بها، وأضحكتني خفة ظلهما، كما أضحكتني مسـعدة حجاب قبل أن تذوب، فوجدتني أعرض عليهما خدماتي بحكم معرفتي بإسـطنبول، فشكراني وانصرفا على وعد باللقاء في المكان نفسـه غدًا. بعد أسـبوع من ذلك اللقاء كنـت أحمل أغراضي وألواني وأشيائي وأتوجَّـه إلى ميناء إسـطنبول لأبحر في اتجـاه ميناء دمياط، راكلًا بقدمي وتاركًا خلف ظهري عاصمة الباب العالي بعجرفتها كما نقول في فرنسا!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

القسم الأول

القاهرة

يوليو 1798/ يوليو 1801

الأزهر

12 مايو/ إلى 5 نوفمبر 1805

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الملازم فرتراي

ما إن وطئت قدما الملازم فرتراي أرض القاهرة، حتى ترك أدواته العسكرية وحاجياته، وحتى بندقيته الخاصة، في عهدة خادمه، وامتطى جواده الأشهب وهُرع نحو قلب المدينة لا يحمل بين طيات ملابسه العسكرية سوى خنجر حاد الشفرة وطبنجة صغيرة. لقد أراد أن يتخفَّف من كل شيء بعد المعارك الشرسة التي خاضها في أبي قير وإنبابة. انطلق الضابط الفرنسي الشاب يجوب أزقة المدينة الجديدة وحواريها بعينين مبهورتين، يتأمل ويكتشف وينفعل. يقاوم حرارة يوليو وشمسه الحارقة بالسير في ظل الأشجار وتجرُّع المياه من قنينته الخاصة التي رافقته منذ شارك في أول معركة تحت قيادة بونابرت بإيطاليا قبيل مجيئه إلى مصر. لم يكن قد تجاوز عامه الحادي والعشرين بعد، متوسط الطول، مفتول العضلات، عيناه زرقاوان ضيقتهما شمس القاهرة، شعره الأشقر الغزير يكاد يختفي تحت قبعة ضابط كفء في الجيش الفرنسي، وعلى صدره نوط الواجب الذي منحه إياه قائد الجيش نظرًا لبسالته في حرب إيطاليا. تتدلى من جيب سترته ساعة من الماس انتزعها من معصم جندي مملوكي قضى عليه بضربة سيف واحدة في معركة إنبابة، وفي الجيب الثاني يحتفظ بآخر رسالة غرامية وصلته من حبيبته الباريسية!

fb/mashro3pdf

بُهت فرتراي حين وصل في سيره المتمهل إلى مشارف جامع الأزهر، قلب القاهرة النابض كما لقِّنوه العلم في باريس، وكما كرروا ذلك على متن البارجة الحربية التي أبحرت به من ميناء طولون؛ إذ شاهد المدينة خاوية على عروشها أو تكاد، فلا عابر سبيل، ولا شيء يشي بأن هذه هي مدينة السحر كما قال بونابرت في خطبته في عرض البحر قبل النزول إلى البر في أبي قير.

ترجَّل عن حصانه وربطه في شجرة دوم راسخة أمام جدار بيت عتيق على ناصية حارة السكرية. اكتشف أن الماء في قنينته على وشك النضوب، فملأها من زير كبير تصادف وجوده في الجهة المقابلة، ثم أحضر الدلو الخاص بالحصان وصبَّ فيه الماء حتى منتصفه، وترك جواده يتلذَّذ بالارتواء وانصرف سيرًا على قدميه نحو جامع الأزهر. بالكاد لمح الضابط صبيَّة تطل عليه من مشربية فتحت نافذتها قليلًا حين رفع عينيه إلى أعلى، حيَّاها بحركة من رأسه، فأغلقت النافذة واختفت. سمع نباح كلاب عصبية لم يرَ منها شيئًا. تساءل متعجبًا: «كلاب في عز الظهيرة؟». انعطف يمينًا بجوار الجامع الأزهر. نما إلى سمعه صوت شجار من داخل دار مهترئة الجدران. واصل خطواته بتؤدة. امتعض من رائحة القمامة التي تفوح في الحارة الضيقة، فتراجع نحو مدخل المسجد الشهير. تابع بعينيه هرولة طفلين من مسافة ليست بعيدة. هاله منظرهما البائس والذباب الملتصق بوجهيهما. أقبل نحوه رجل مُسنٌّ، منهك القوى، حافي القدمين، لا يعرف من أي مقبرة بُعث. تلقَّى نظرات مريبة من الرجل، فابتسم لكنه لم يستقبل سوى غمغمة لم يفهم منها شيئًا.

fb/mashro3pdf

اقترب منه شخص مخبول كما تشي ملابسه ولعابه الذي يسيل من فمه وقال: «أنا سنقر.. هات درهم». تأمله بدون اكتراث وإن كان قد وضع يده على طبنجته من باب الحذر.

افترش الأرض تحت شجرة معمرة أمام مدخل جامع الحسين. تجرّع ماءً كثيرًا من قنينته وراح يجفف عرقه بكُم سرواله. تساءل: «أين البشر؟ أين السحر المزعوم؟». مرقت بجواره امرأة فاحمة السواد رمته بابتسامة تومض بغنجٍ فجٍّ فارتبك وتململ في جلسته، وتذكر أنه لم يلمس امرأة منذ شهور حين كان يحارب في إيطاليا، فاعترته نوبة اكتئاب للحظات. تحسّس جيب سترته الأيسر حيث رسالة حبيبته وشرد قليلًا في ملامحها. فجأة قرعت أذنيه صرخة امرأة تستغيث، فنهض بسرعة خاطفة وأخرج طبنجته واتخذ وضع الاستعداد لمهاجمة أي معتدٍ. قلق على جواده. خشي أن يسرقه لص شارد. تلفت حوله مذعورًا، فلم يرَ سوى صفٍّ طويلٍ من الأشجار بجوار سور الجامع العتيق، وحفنة من كلاب ضالة تعبث في كوم قمامة. لم يعاود الجلوس، وواصل سيره بحذر هذه المرة عائدًا نحو جواده سريعًا محتميًا بظل سور المسجد العتيد من قيظ شمس يوليو المحرقة. لمح جيشًا من القطط يتصارع حول بقايا سمك ذي رائحة عطنة فتأفف، وابتعد عن السور بخطوات سريعة، وأخذ يردد بانزعاج ونفور: «القيظ أهون من الروائح العفنة».

استقبلت أذناه بقايا صهيل خيول يذوب في الفضاء، فتوقف وحاول البحث عن مصدر الصوت. شاهد عن بعد ثلاثة جياد تركض في اتجاه

fb/mashro3pdf

صحراء الدراسة يمتطيها رجال خمّن من ملابسهم أنهم مماليك. تذكر كيف عثر على أكثر من عشرين قطعة ذهبية في جيب أحد المماليك بعد أن قضى عليه في معركة إنبابة، واحتفظ بها لنفسه.

فُتح باب البيت المقابل للمسجد برفق، فلم يتنبه الضابط المبهور بضخامة جامع الأزهر، حيث كان يتأمل مشدوهًا مئذنته السامقة. أطل من داخل البيت رأس شاب، عيناه تراقبان الغريب المقتحم بتوجس، وتتبعه في جولته العفوية، ثم أُغلق الباب مرة أخرى على مؤامرة!

في صحن البيت جلس أيوب السبع وسط أربعة من أصدقائه حول طبلية عليها بقايا طعام غداء عبارة عن جبن قديم وفول حراتي وطماطم وبطيخ. أخذ صاحب البيت يلعن ويسب النصارى الكفار والشرر يتطاير من عينيه، فكرر علي أبو حمص اللعنات والسباب، ثم أمسك أيوب رغيف خبز وشطره نصفين وأقسم بعزيمة من حديد وهو يشير نحو مدخل البيت: «أقسم بالله العظيم ثلاثًا لن يهدأ لنا بال حتى نطرد هؤلاء الكفار من ديارنا». على الفور التفَّ أربعتهم حول أيوب ورددوا القسم معه وعروقهم ترتجف من فرط الانفعال. انتفض الشاب اليافع واقفًا وأحضر مصحفًا من خوان صغير بجوار الأريكة الكبيرة الكائنة في نهاية قاعة الاستقبال، ووضعه فوق الطبلية بعد أن أزاح الصحون الفارغة جانبًا، وقال بصوتٍ خفيض: «فلنقسم على هذا المصحف أن نشكِّل عُصبة منا تعمل على قتل الفرنساوية وطردهم من ديار المسلمين». ثم أضاف: «ولنقسم ألا يخبر أيٌّ منا أيَّ مخلوق عما ننوي فعله حتى لو

fb/mashro3pdf

كان أباه أو أمه أو حتى زوجته». فترامت وتراصت الأكف فوق بعضها بهمة وإصرار، ورمق شلضم السقا صديقه علي أبو حمص بابتسامة خفيَّة لأنه المتزوج الوحيد فيهم، وهكذا ردَّدت الجدران قسم أول عُصبة سرية تقاوم الفرنساوية في القاهرة!

حين عاد الضابط فرتراي إلى جواده، لاحظ وجود امرأة عجوز افترشت الأرض قريبًا من الحصان وقد وضعت أمامها طبلية صغيرة رُصَّت فوقها أصابع العسلية. أومأت له بعينيها، وهي تهش الذباب عن العسلية، أن يأتي وصاحت: «أحلى عسلية في بر مصر تأكلها من أم بلبل»، وأشارت بيدها إلى صدرها. لم تكن علاقة فرتراي باللغة العربية جيدة، لكنه تمكَّن من تعلُّم كلمات كثيرة حين تلقى دروسًا سريعة من فنتور تُرجمان بونابرت طوال الرحلة من طولون إلى الإسكندرية. اقترب الضابط من المرأة مترددًا. شجَّعته بابتسامة. أشار لها أن تكرِّر ما قالت، فالتفتت العجوز حولها لتتأكد من عدم وجود أحد يراقبها، ورسمت بيدها في الهواء جسد امرأة وأطلقت من عينيها شرارة إغواء، فاستقبل الضابط الإشارة وفهمها على الفور. همَّ بأن يوافق، لكنه أرجأ الأمر، وأخبرها بحركة من يده أنه سيأتي هنا في الغد. غمزت العجوز بعينها اليسرى، فتعجَّب فرتراي، وهمس باطنه: «القوادات هُنَّ هنَّ في كل مكان.. في باريس أو طولون أو القاهرة».

قبل أن يمتطي جواده أخرج دفترًا صغيرًا يحتفظ به بين طيات السرج وراح يسجِّل فيه يومياته ومشاهداته في اليوم الأول في العاصمة المصرية

fb/mashro3pdf

كما تعود أن يفعل دومًا، كتب فرتراي: (القاهرة مدينة رثّة وقذرة وقبيحة، لا سحر فيها ولا جمال كما زعم بونابرت، وتغزوها الكلاب والقطط الضالة في عز الظهيرة، لكن بعض مساجدها الضخمة تدعو للاندهاش بحق، لكن أهلها خائفون منا ومذعورون، باستثناء قوادة عجوز حاليًا ومومس سابقًا؛ إذ لم ألحظ منهم أحدًا إلا القليل وهذا أمر طيب، يجعلنا نسيطر عليهم بسهولة، أما المماليك، هؤلاء الجبناء الذين دحرناهم في إنبابة، فقد رأيت ثلاثة منهم يفرون بخيولهم نحو منطقة صحراوية تبدو في نهاية الأفق).

توجَّه نحو الزير وشرب كثيرًا من الماء، ثم ملأ قنينته عن آخرها، وقبل أن يمتطي صهوة جواده، ألقى نظرة عامة على المكان، فتلقى ابتسامة داعرة من العجوز بائعة الهوى والعسلية، فارتبك للحظة، ثم حنى رأسه امتنانًا وكأنه يُحيي سيدة أرستقراطية فرنسية. وبرشاقة فارس خبير وثب فرتراي فوق جواده، لكن حين لكز بكعبه بطن الحصان لينطلق لم يكن يدري أن أيوب السبع وعصبته قد رصدوه من فوق أسطح البيوت، فلما غاب بين الأشجار الكثيفة في طريق الأزبكية، همس أيوب لأصدقائه وهو يشير نحو فرتراي: «لن نرحمكم أيها النصارى الكلاب.. أبناء القردة والخنازير»!

* * *

fb/mashro3pdf

الغصبة السرية

في اليوم التالي مباشرة لهبوط الملازم فرتراي حي الأزهر، وبعد صلاة العشاء، توجّه أيوب نحو شجرة الجميز المعمرة الضخمة المزروعة على مشارف صحراء الدراسة. سار مستهديًا بأضواء النجوم المتألقة، متنبهًا لما يحدث حوله، متسائلًا بانزعاج: «الشمس غابت فمتى تنخفض الحرارة؟»، كان أيوب قد تجاوز عامه الثامن عشر بأسابيع قليلة، وجهه خمري اللون مترع بنضارة الشباب الأول، وقسماته دقيقة ومحددة. أما شاربه فمثل خط أسود رقيق يزيده وسامة. لقد عزم الشاب على تنفيذ القسم الذي أطلقه أمس، واليوم دعا أعضاء غُصبته إلى أول لقاء هنا تحت الشجرة العتيقة بعيدًا عن أعين البصاصين كما نبّه عليهم، وقد زاد إيمانه بضرورة قتل الفرنساوية حين لاحظ صباح اليوم أنهم انتشروا في حواري العطوف وبين القصرين وقصر الشوق والسكرية، وبعضهم وصل حتى زقاق المدق، وقد استقبلهم كثير من الناس بترحاب خاصة أصحاب الحوانيت الذين باعوا لهم ما يحتاجونه من طعام بأسعار مرتفعة.. «وقاحة لم تخطر لنا أبدًا على بال»، هكذا قال لنفسه.

fb/mashro3pdf

كان علي أبو حمص أول الواصلين متأففًا من سخونة الجو، وقد أخفى تحت جلبابه سكينًا حادًّا. كذلك فعل دياب ضاضو، أما شلضم السقاء فقد كان آخر الحضور، وبصحبته خليل المنوفي. لاحت آيات الغضب على وجوه الشباب، صنعوا دائرة من التحفُّز والحماسة توسطها أيوب. افتتح كلامه بالصلاة والسلام على النبي الكريم. لم يكن أكبرهم سنًّا، لكنه أكثرهم حصافة وذكاءً، وقد أرشدتهم الغريزة الجماعية إلى تنصيبه قائدًا لهم في أي عمل مشترك، فإذا أدوا الصلاة في منزل أي منهم، اتخذ أيوب موقع الإمام، وإذا لعبوا السيجة فاز أيوب باللعب أولًا، وإذا خططوا، وقت دراستهم بالأزهر، لمشاكسة أحد المشايخ الغلاظ، وضع أيوب الخطة ووزَّع عليهم الأدوار.

- لن نكون رجالًا مسلمين بحق إذا ظل هؤلاء النصارى الكفار يتحكمون في ديار المسلمين.

قال أيوب، ثم استطرد سريعًا قبل أن يقاطعه أحد:

- لقد أقسمنا في بيتي أمس على محاربتهم، واليوم نعلن بداية الجهاد ضد القردة والخنازير، ومَن يُرد منكم ألا يشاركنا جهادنا، فله الحق في ذلك، ولكن ليس من حقه، بل يمتنع عليه، إفشاء أسرارنا، بمعنى أنه إن لم يكن معنا، فلا يكون علينا!

سرت همهمات. تكثف اللغط. تُبودلت نظرات احتجاج. استقبلت القبة السماوية أكثر من قَسَم في لحظة واحدة، حتى غطى صوت علي أبو حمص على الجميع وقال معاتبًا:

fb/mashrou3pdf

- كيف تقول هذا الكلام يا أيوب؟ مَنْ منَّا تسعده رؤية هؤلاء الكفار وهم يسيرون في حوارينا وأزقتنا، فيدنسونها، ويرمقون نساءنا وبناتنا بنظرات وقحة؟

ابتسم باطن أيوب، وامتلأ ثقة بنفسه، وأيقن أن عُصبته تحت إمرته بكامل إرادتها، وأنها ستنفذ الخطط التي سيعدونها لقتل الفرنساوية، فقال بصوتٍ رقيق لامتصاص نظرات العتاب التي تلاحقه:

- أعلم يا إخواني أننا جميعًا على قلب رجلٍ واحدٍ، وأن الغيرة على ديننا تشتعل في صدر كل منَّا بالقدر نفسه، لكنني أدرك أن محاربة الكفار قد تُكلِّف الواحد منَّا حياته؛ لذا أردت أن..

قاطعه خليل المنوفي صائحًا:

- وليمت مَن يموت، فسيصبح شهيدًا بإذن الله كما تعلَّمنا في الأزهر، وهو شرف يتمناه ويسعى إليه كل مسلم بحق.

توقف الكلام فجأة، فقد مرَّت نسائم عليلة خففت من وطأة السخونة المنتشرة في الجو، فأنعشت صدور العُصبة، وراح كل واحد منهم يقترح الطرق الأنسب للتعامل مع الجنود الفرنساوية. قال شلضم السقاء أكثرهم وسامة وصاحب العينين الواسعتين والجسد العفي المتناسق برغم حَدَب صغير في ظهره:

- عمل السقا ييسر له دخول كل البيوت كما تعرفون.. أكواخ الفقراء وقصور الأثرياء، وسوف أتشمَّم لكم الأخبار وأعرف أحوال الناس، وأمدكم بما يمكن عمله مع أولاد الكلب هؤلاء.

fb/mashro3pdf

وقال خليل المنوفي:

- كل منَّا يجب ألا يتحرك الآن إلا مخفيًا في طيات جلبابه سكينًا حادًا أو خنجرًا مسمومًا، فإذا صادف في طريقه واحدًا من الكفار، قتله في الحال.

ثم هبَّ واقفًا وأخرج خنجرًا من تحت إبطه الأيسر، فنهض علي مبتسمًا وأخرج سكينًا ماضيًا، ورفعه عاليًا كمن يشق الهواء وهتف:

- معك حق يا خليل.. أؤيد كلامك تمامًا.

اعترض دياب ضاضو قائلًا:

- ولكن قد يؤدي ذلك إلى إشعال الجنون في قلوب الفرنساوية، فيرتكبون أفظع الجرائم، وقد سمعنا أنهم أحرقوا قرى بأكملها في طريقهم من الإسكندرية حتى هنا.

فصاح شلضم السقاء:

- إذن نقتلهم بحساب!

فتعجَّب خليل المنوفي ساخرًا:

- هل يوجد قتل بحساب؟ القتل قتل، فإما أن نقضي عليهم ونطردهم من بلادنا ونسترد شرف المسلمين وكرامتهم، وإلا صرنا كالنسوان السبايا يمتطينا الدخلاء والكفار!

ابتسم شلضم السقاء وقال بأداء يستثير فضولهم:

- هل علمتم بما حدث للَوزَة جارية تاجر الخشب الحاج ماشاء الله شمس الواعظين؟

fb/mashro3pdf

انطلقت الأصوات طالبة سماع الحكاية، إلا أيوب فقد اعتصم بالصمت وسدَّد بصره نحو صحبته بتركيز شديد. تفحص عزيمتهم في ملامحهم. تأمل إصرارهم في جباههم. اطمأن إلى إيمانهم وصلابتهم فحمد الله في سريرته. حكى لهم شلضم أنه في هذا الصباح ذهبت الجارية السوداء لوزة لشراء بعض الخضراوات من سوق الغورية الذي لا يبعد سوى أمتار قليلة عن دار سيدها، فإذا بها ترى جنديًا فرنسيًا يتأمل المكان، فألقت الطماطم والخيار والفلفل على الأرض، وهرعت نحو الجندي الفرنسي وتعلقت في عنقه وراحت تقبله أمام المارة، والجندي مشدوه لا يعرف ماذا يفعل، في الوقت الذي تصادف فيه خروج سيدها من داره، فشهد المنظر الفاضح، فناداها صارخًا وصفعها صفعة ألقتها على الأرض، ولعنها قائلًا: «يا عاهرة.. ليس لكِ مكان في داري منذ هذه اللحظة»، ففر الجندي الفرنسي واختفى في زحام السوق.

- والجارية؟

قال شلضم ضاحكًا:

- اندسَّت بين المارة بحثًا عن الجندي فيما يبدو!

- وهل عثرت عليه؟

- لا أدري، فقد كنت أحمل على ظهري القربة، فلم أتابع الحكاية واتخذت سبيلي نحو السكرية لأوصل المياه إلى زبائني!

fb/mashro3pdf

استغل أيوب الصمت الذي تسيد عقب قصة الجارية العاشقة، وقال بنبرة حازمة بعد أن تيقن أن رفاقه بما يأمرهم فاعلون:

- سنفعل ما يمليه علينا ضميرنا الإسلامي، وهو قتل الفرنساوية في أي مكان وأي وقت، مع الحرص دومًا ألا نقع فريسة في براثنهم!

تململ علي أبو حمص في جلسته، ثم قال موجهًا سؤاله إلى أيوب:

- حسنًا.. ماذا سنفعل مع السيد عمر مكرم الذي دعا إلى الجهاد وخرج من القلعة حتى بولاق رافعًا راية البيرق النبوي كما تعلمون والتفَّت حوله أمم لا حصر لها؟

فعقب خليل المنوفي سريعًا:

- وهل نسيت المماليك الذين انضموا إلى جيش مراد بك، ثم هُزموا في موقعة إنبابة، وتزاحمت جثثهم تطفو فوق النيل عند بولاق؟

وقال شلضم السقاء:

- والمماليك الذين آثروا السلامة، وانصاعوا إلى الفرنساوية ودفعوا إتاوة مهولة مثل إبواظ بك والسيدة نفيسة البيضا زوجة مراد بك. كيف سنتعامل معهم؟

fb/mashro3pdf

تراكمت الأسئلة في رأس الزعيم، فرفع عينيه إلى السماء كأنه ينتظر منها المدد. لم يعقب أحد. انتظروه لحظات، وهم يتفرَّسون في سحنته تحت ضوء النجوم المتيقظة، لم يطل سكوته؛ إذ قال بثقةٍ لا يعرف من أين استمدها وكأنه يتحدث بإلهام خفي:

- الفرنساوية كفار مغتصبون ينبغي قتالهم وطردهم من ديار المؤمنين، والمماليك مسلمون مثلنا، لكنهم طغاة يفرضون الإتاوات الباهظة ويكنزون المال؛ لذا يجب مواجهتهم بالنصيحة وإصلاح أحوالهم، وحضهم على عمل الخير والرفق بالفقراء، وعدم التعاون مع الكفار، وإذا لم يرتدعوا نشكوهم إلى السلطان خليفة المسلمين في إسطنبول!

رحب الجميع بما قاله قائدهم، وراح أيوب يوزع المهام، فمَن سيراقبهم في الحسين، ومَن سيذهب إلى الأزبكية، حيث قصر محمد بك الألفي الذي اتخذه نابليون مقرًّا له بعد هروب صاحبه، ومَن سيتولى متابعتهم في حارة الناصرية التي استولى فيها الفرنساوية على دور قاسم بك وحسن كاشف جركس القديمة والجديدة، ومَن سيحمل الرسائل إلى بعضهم بعضًا، وبينما هو كذلك إذا به يتلقى من المجهول خاطرًا عجيبًا، فطرحه عليهم في التوّ واللحظة:

- لن يتم الاتصال بيننا إلا بأسلوب سري حتى لا ينكشف أمرنا.

رفع خليل حاجبيه متسائلًا:

- كيف؟

- علينا أن نحفظ الآتي.. حين يضطر أيٌّ منّا للذهاب إلى بيت صديقه، فليذهب سرًّا، وليطرق بابه ست طرقات.. ثلاث بطرقة عادية تتبعها طرقتان خفيفتان، والأخيرة طرقة قوية، حينئذ يدرك مَن بالبيت أن ثمة أمرًا جللًا.

fb/mashro3pdf

أثنـت العُصبـة مجتمعـة على الفكرة، ثـم أخرج أيوب مـن بين طياته مصحفًا، ووضعه أمامه طالبًا منهم أن يقسموا على الولاء له وطاعته حتى يتحقـق لهم الظفـر والانتصار على الكفـار. أطاع الأصدقـاء وانصاعوا، لكـن مـا إن انتهوا من القسـم وهمُّوا بالانصراف، حتى شـعروا بأصوات غريبـة تقتـرب منهم، فأخرج كل من علي وخليل سـلاحه الأبيض ووقفا متأهبين، بينما توثب شـلضم وأيوب ودياب واتشحوا بالحذر، وأصاخوا السمع، فإذا باثنين من جنود الفرنساوية يطوِّقان فتاة مصرية قاما بخطفها، بينمـا تحـاول الفكاك منهما بلا جـدوى، وقد أغلقا فمهـا بأيديهما، حتى لا تستغيث. لقد كشفهم النور القادم من السماء، وفي سرعة البرق انقضَّت العُصبـة علـى الجنديين وأشـبعوهما بطعنـاتٍ قاتلةٍ أدَّت إلـى صرعتهما في الحال، وسـط صـراخ الفتاة وعويلها. حاول علـي تهدئتها فلم يفلح، فهـوى بكفه علـى وجهها حتى سـقطت مغشـيًّا عليها، فحملوهـا وفروا هاربيـن، بينمـا يغمغم الجميـع بأصواتٍ لاهثـة: «الله أكبـر.. الله أكبر.. والنصر للمسلمين»!

* * *

fb/mashro3pdf

سهرة فرنسية في الدرب الأصفر

- منذ متى تقيم في هذه المدينة التعيسة؟

تلقى الخواجة شارل سؤال ضيفه بامتعاض، فألقى نظرة احتجاج في وجه صاحب السؤال، ثم قال بثقة:

- القاهرة ليست مدينة تعيسة يا كابتن مواريه.

لقد دعا شارل كلًّا من الملازم فرتراي والكابتن جوزيف مواريه إلى بيته فور أول لقاء جمعهم بالمصادفة في الساحة الممتدة أمام جامع الحسين. كان يقف أمام حامل الرسم الخشبي منهمكًا في مطاردة شمس الأصيل، حيث أخذ يصوّر جامع الأزهر ومآذنه وقبابه والجموع الغادية والرائحة. أحب شارل شمس سبتمبر منذ هبط القاهرة، فحرص على أن يرسم انعكاسات ضوئها على الحجر والبشر والشجر، حتى كتب مرة في يومياته: (لا يوجد مثل شمس سبتمبر في القاهرة.. إنها مثيرة لحماسة أي فنان يرغب في التقاط النادر والجميل والباهر).

في ذلك اليوم وفي حدود الرابعة عصرًا، بينما شارل يضع في الصورة بقعة نارية على مئذنة الأزهر لتزيدها جمالًا، إذا به يتلقّى تحية إعجاب باللغة الفرنسية، فالتفت خلفه فوجد ضابطين من بني جلدته،

fb/mashro3pdf

يرتدي كلٌّ منهما الزي العسكري الثوري الذي أقرَّته حكومة الإدارة في فرنسا بعد ثورة 1789، وهو عبارة عن سترة زرقاء وبنطال أبيض وغطاء أسود للساقين. تسمَّر الضابطان مشدوهين أمام اللوحة، وقد بُهرا ببراعته في التلوين. انتفض شارل مرحبًا، وصافحهما بحرارة.

بعد حوار سريع وقصير لملم الرسام أشياءه، ودعاهما إلى بيته بحارة الدرب الأصفر. في الطريق تقمَّص شخصية الدليل السياحي، فأشار لهما إلى عظمة جامع قلاوون، ورشاقة مئذنة مسجد الأقمر، وامتدح باعة النحاس وبضاعتهم المعروضة أمام الدكاكين، لكنه أضاف ضاحكًا: «انتبها.. فقد يغالون في السعر أمامكما، فساوماهما إذا شئتما ابتياع شيء للذكرى». ثم حاول أن يخفف قليلًا من وطأة انزعاج مواريه من أكوام القمامة المنتشرة في شارع بين القصرين، فأجاب عن سؤال لم ينبس به مواريه قائلًا: (قد يشعلون فيها النار الليلة ليتخلصوا منها).

فور دخولهم البيت أمر شارل خادمه النوبي سليم أن يعد الدجاج والحمام والأرز في الحال من أجل ضيفيه، ثم أخرج زجاجة نبيذ فرنسي أحمر وثلاثة أقداح من خوان صغير بجوار الأريكة الكبيرة في قاعة الاستقبال. وجاء سليم بالخيار والجزر وبعض اللوز والجوز. اتخذ الثلاثة جَلستهم على شكل نصف دائرة فوق أرائك خشبية صغيرة تتوسطها منضدة صُمِّمت على الطراز الإسلامي مزينة بقطع الأرابيسك.

ما إن تذوق الكابتن مواريه أول رشفة من النبيذ حتى أبدى إعجابه صائحًا:

fb/mashro3pdf

- ياه.. أخيرًا تذوقنا نبيذًا فرنسيًا فاخرًا.. من أين تبتاعه؟

- من تاجر يهودي اسمه شامير، يقيم في حارة اليهود بجوار معبد ابن ميمون، ويزعم أنه فرنسي، لكنني أشك في مزاعمه.

وعقب فرتراي مؤكدًا:

- معك حق يا كابتن.. فالنبيذ الذي اشتريناه من التاجر اليهودي عند قرية الرحمانية ونحن في طريقنا من أبي قير إلى هنا كان ذا مذاق رديء، ولولا القيظ الشديد والعطش القاتل ما لمسناه بطرف لساننا!

تجرَّع مواريه نصيبه دفعة واحدة ومدَّ قدحه دون أن يزيد طالبًا المزيد، لكن قبل أن يتلذذ برشفة واحدة رمى في وجه شارل بالسؤال:

- منذ متى تقيم بالقاهرة؟

فلما تلقى الإجابة رفع حاجبيه متعجبًا وقال:

- كيف تقول إن القاهرة ليست تعيسة، أنا لم أرَ في حياتي أتعس من هذه المدينة!

وأردف مسرعًا قبل أن يقاطعه أحد:

- أنت تعلم يا مسيو شارل أن جيش الجمهورية الفرنسية قد حارب في إيطاليا، ومالطة، وحقق أمجادًا مذهلة، فقضينا على الطغاة والملكيين، وخلعنا البابا بيوس السادس في روما الذي يحكم بمنطق العصور الوسطى، ثم أقمنا جمهورية تحت حماية جيشنا العظيم، ولي الشرف أنني كنت وما زلت أحد ضباطه في اللواء 75، الذي نال عن جدارة

fb/mashro3pdf

لقب «اللواء الذي لا يُقهر»، بعد أن أبدينا بطولة فائقة في معركة لودي بإيطاليا التي هزمنا فيها النمساويين شر هزيمة، وقد عبرنا بلدانًا ومدنًا وموانئ كثيرة، لكنني أؤكد لك أن بؤس مصر وأهلها لا شبيه له!

لاحظ الملازم فرتراي سحب انزعاج تتجمَّع في فضاء القاعة، فقد لوى شارل شفتيه محتجًا، وكأنه ندم على دعوتهما إلى بيته، فتدخَّل الضابط محاولًا تغيير دفة الحديث، سائلًا بمكرٍ وابتسامة عريضة تزين وجهه الأشقر:

- أخبرني صديقي الجديد.. كيف هُنَّ النساء في مصر؟

قضم شارل قطعة خيار، وتأمل غرفته بحنان كأنه يعتز بوجوده هنا، وقال بأداء تشع منه نبرة تحدٍّ:

- سأتلو عليكم منهن خبرًا بعد قليل أيها الملازم فرتراي، لكن يجب أن يعرف الكابتن مواريه.. أننا نحن الفرنسيين أسهمنا مع المماليك في إشاعة البؤس في هذه المدينة، فقد قتلنا منهم الكثير، وفرضنا ضرائب باهظة على التجار الكبار والصغار فاكتوى بنارها الفقراء وما أكثرهم، برغم أن المصريين شعب بسيط.. طيب، ورحيم، ويحب الحياة، لكنه ضحية جهل مزمن وفقر دائم بسبب أطماع المماليك الذين ينهبونهم بانتظام بكل أسف، ثم جئنا نحن بجيوشنا لنفاقم من تعاستهم، أما النساء فهن..

قاطعه مواريه وهو يضع ساقه فوق المنضدة استجابة لحالة استرخاء انتابته بعد القدح الثاني، وقال بلغة يقينية:

fb/mashro3pdf

في مسألة الجهل أتفق معك، فلا يوجد أجهل من المصريين وأغرب منهم، فقد اخترعوا الدين قبل العالم أجمع ومنذ آلاف السنين، وتركوا لنا حضارة مدهشة من معابد ومقابر وأهرام مخيفة، ومع ذلك فقد تقهقروا إلى الخلف قرونًا، واتبعوا أفكارًا خشنة لرجل جاء من صحراء العرب زعم أنه رسول من عند الله، ولو اطلع هذا الشعب على التوراة والإنجيل لأدرك أن قرآن محمد ما هو إلا إعادة صياغة لما جاء به موسى والمسيح! كما أن..

- وهل اطلعت على القرآن؟

ردَّ الملازم فرتراي سريعًا:

- أجل.. لقد اطلعنا على الترجمة التي أنجزها دي ريير قبل مائة وخمسين عامًا تقريبًا، واسمها «قرآن محمد»، وكذلك وزَّع علينا بونابرت كتابين مهمين هما: «رسائل عن مصر» الذي كتبه كلود إيتان سفاري، و«رحلة في مصر» لمؤلفه فولني، كما أمر القائد بتوزيع النسخة التي ترجمها فولني للقرآن علينا ونحن في عرض البحر بعد أن علمنا وجهة الحملة التي أخفوها عنَّا!

- ألم تكونوا تعلمون أين ستحاربون قبل أن تصعدوا على البوارج والسفن؟

أجاب مواريه بدون اكتراث:

- لم تشأ حكومة الإدارة في باريس وبونابرت نفسه أن يُعلما أحدًا بوجهة الحملة سوى حفنة قليلة من القادة حتى لا يتسرَّب الخبر إلى الإنجليز

fb/mashro3pdf

الأوباش، فيحاولوا محاربة أسطولنا وتعطيل مشروعنا، فلعلك لا تعلم أن الجنرال الإنجليزي نلسن كان يجوب البحر المتوسط بأسطوله جيئة وذهابًا بحثًا عنَّا!

- وقد نجح نلسن أخيرًا ودمَّر أسطولنا في أبي قير قبل أسابيع قليلة!

امتعض مواريه من تعليق شارل، وأعاد ساقه إلى سيرتها الأولى، وغمغم بعبارة لم يسمعها أحد، ثم صاح بصوتٍ عالٍ فجأة كمَن يعظ الفاسقين:

- إن مجد الجمهورية الفرنسية يتطلب منَّا عمل الكثير يا عزيزي شارل، هل تعلم أن إقامة مستعمرة فرنسية في مصر ستجعلنا نسيطر على كل بلدان الشرق المتخلفة، ونسعى إلى تطويرها وإيصال حضارتنا العصرية إلى مدنها وقراها، فتزدهر تجارتنا ونربح الكثير؟ ليس هذا كلامي، بل هذا ما كتبه الفيلسوف الألماني ليبنتز في «مذكرة غزو مصر» التي قدمها إلى الملك لويس الرابع عشر عام 1672. أي منذ مائة وثمانية وعشرين عامًا!

ارتسم على وجه كل من شارل وفرتراي علامات حيرة واستفهام، فأكمل مواريه متفاخرًا وبإيقاع سريع:

- إنها مذكرة سرِّية طويلة ملخصة في خمسين صفحة، لم يطلع عليها سوى قادة الحملة، على رأسهم نابليون وكليبر وديزيه وديبوي حاكم القاهرة الآن الذي عينه قائدنا فور فتح المدينة، لكن الجنرال ديزيه قائد إحدى الفرق الخمس في حملتنا، وبيننا صداقة عميقة، أعطاني نسخة

fb/mashro3pdf

من هذه المذكرة قبل أن نصل إلى شواطئ الإسكندرية بنحو أسبوع؛ فالتهمتها في يومين وأعدتها إليه، وكلي إيمان بما ذكره هذا الفيلسوف العبقري! إنه يشرح فيها الضرورات التاريخية والحتمية التي تفرض على فرنسا غزو مصر واحتلالها، وكيفية الاستعداد لهذا الغزو وعدد الجنود والضباط الذين تحتاجهم هذه العملية وهو لا يتجاوز ثلاثين ألفًا من المقاتلين، لكن الزمن تغير الآن عن أيام ليبنتز ولويس يا عزيزي شارل، وحسب معلوماتي فإن حملتنا تضم نحو أربعة وخمسين ألفًا من الضباط والجنود والإداريين والبحارة والعلماء، جئنا على متن نحو أربعمائة بارجة وفرقاطة وسفينة، وعندما ننجح في السيطرة على مصر تمامًا، وهذا أمر بات قريبًا جدًّا، سيصبح لنا شأن كبير في العالم بعد أن نقضي على الإنجليز ونقطع عليهم الطريق إلى الهند.. تلك الدجاجة التي تبيض لهم ذهبًا!

- ولكن ما ذنب المصريين؟

نهض مواريه، فوقفا معه، وتوجَّه نحو لوحة مرسومة لطفلين يتسولان بجوار أمهما العمياء، تأملها الكابتن مليًّا، ثم وضع يده على كتف صاحب البيت وقال بمودة:

- أنت رسام رقيق يا شارل، ونحن ضباط ومقاتلون، يهمنا في المقام الأول استقرار جمهوريتنا الجديدة، فالأعداء من كل جانب، وأنصار الملك لويس السادس عشر ما زالوا يطمحون في العودة فيتآمرون ويمكرون، أما أنت فلا أعرف ماذا تريد من شعب أعمى ومتسول؟

fb/mashro3pdf

قال ذلك وهو يشير إلى اللوحة، فهتف شارل بسرعة:

- إنه ضحية الفقر والجهل!

هزَّ مواريه منكبيه اعتراضًا، وقال ببرود:

- الحياة لا تتسع للجهلة والمرضى والفقراء، فالقضاء عليهم ضرورة إذا لزم الأمر حتى يحقق العلماء والأصحاء أحلامهم وطموحاتهم في بناء دول عصرية وحديثة. لقد هزمنا فرسان مالطة في ليلة واحدة قبل أن نأتي إلى هنا مباشرة؛ لأنهم جهلة لا يدركون تطورات العصر، حيث استطاع بونابرت أن يقيم هناك جمهورية تحت الحماية الفرنسية بعد أن ظلَّت هذه الجزيرة تحت حكم هؤلاء الفرسان المتخلفين عدة قرون. إنهم فضلات العصور الوسطى والحروب الصليبية الأولى، وقد مضى زمانهم وهم لا يفهمون ذلك، لكن بونابرت العظيم تمكن في أسبوع واحد من تدشين مؤسسات حكم عصرية في مالطة تليق بجمهوريتنا الوليدة.

صمت مواريه فجأة ليتناول رشفة من النبيذ، ثم واصل كلامه بحماسة أكثر وهو يزدرد ريقه:

- من فضلك يا شارل.. لا تنسَ أن المماليك الذين يسيطرون على هذا البلد التعيس أهانوا تجارنا وقناصلنا كثيرًا، وقد وصلت بهم الوقاحة والخسة أن قتلوا أحد قناصلنا في الإسكندرية قبل عشرين سنة تقريبًا. إن مجد جمهوريتنا أهم ألف مرة من المصريين وجهلهم وفقرهم وعميانهم ودينهم!

fb/mashro3pdf

ثـم مسـتدركًا وابتسـامة باهتـة تلوِّن قسـماته، فبـرز عيب في أسـنانه الأمامية:

- لا يوجـد شـيء إيجابـي وممتع هنا سـوى ركـوب الحميـر.. إنها حقًّا مسـألة ظريفة للغاية.. إن حمير المصريـين أجمل وأرشـق وأسـرع من حمير الإيطاليـين بكثير!

صاح شارل مستفهمًا ومستنكرًا:

- وشعار ثورتنا.. الإخاء والحرية والمساواة؟!

مزقت سـتار الجدية ضحكة سـاخرة أطلقها الملازم فرتراي، ثم قال بأسى:

- خدعونا بأكذوبة اسـمها المسـاواة، إن قائدنا يعيـش حياة الملوك. لقد أسرَّ لي الجنرال برنوييه المسئول عن التموين والزي العسكري أنه زار مقـر بونابرت في سـفينة القيادة العملاقة لوريـان ونحن في طريقنا إلى هنـا؛ وقد فوجئ بأنـه مقر فخم جدًّا بما يحوي مـن أثاث فاخر وتحف بديعة ومكتبة متنقلة كأنه جناح ملك، وليس مقر رجل عسكري يخطط لمعركة حربية.

تلقى شـارل كلام فرتـراي بفتح عينيه عن آخرهمـا تعجبًا، أما مواريه فقد أشـاح بيـده اليسـرى احتجاجًا، لكن الملازم السـاخط لـم يعبأ بهذا ولا ذاك، وواصل حديث النقمة قائلًا:

- أمـا أنا فقد رأيـتُ بعينيَّ كيف أن الضبـاط الكبار فـي الحملة يحتفظون لأنفسـهم بأفخـر أنواع النبيـذ والأطعمـة، بينما نحن الضبـاط الصغار

fb/mashro3pdf

لا يُصرف لنا سوى المتوسط وربما الرديء من الشراب والطعام، في حين لا يجد الجنود والبحارة ما يسد رمقهم، فاضطروا إلى سلب ونهب القرى التي مررنا بها من الإسكندرية حتى القاهرة، برغم تعليمات القائد بعدم إيذاء الشعب أو الاعتداء على ممتلكات الناس.

ثم تمتم مع تنهيدة أخيرة وهو يعاود الجلوس:

- يبدو أن القادة يصدرون الأوامر النبيلة لتُكتب في سجلات التاريخ تبجيلًا لهم؛ لا لتنفذ، ومن أسف هم يعلمون ذلك تمامًا.. إن القادة مجموعة من الدجّالين!

رمقه الكابتن مواريه بنظرة تحذير مخفية، وتحيَّر شارل للحظات قبل أن يتساءل:

- هل يقتنع نابليون بما تقول يا كابتن مواريه؟

أخذه الغرور وكأنه صديق حميم لبونابرت وقال:

- بكل تأكيد، فقائدنا رجل عبقري، وقد درس مذكرة ليبنتز بعناية، كما درس القرآن، وكذلك قرأ باهتمام كتابَي سفاري وفولني عن مصر لقد فهم الجنرال طبيعة المصريين.. إنهم مهووسون بمحمد، فقرَّر بونابرت أن يُدغدغ مشاعرهم ويزعم أنه أيضًا مفتون بمحمد وقرآنه حتى يستدر تعاطفهم فينصاعوا لقراراته!

ثم أردف مؤكدًا آراءه بعبارة دالة وصوت حاسم:

- ألم تنظروا إلى مشايخ الأزهر وكبار التجار أمثال عبد الله الشرقاوي ومحمد الفيومي ومحمد أنور السادات وهم ينحنون أمامه ويطلقون

fb/mashro3pdf

عليه بسعادة لقب «السلطان الكبير»، برغم أنه لم يكمل الثلاثين عامًا بعد؟

على الفور رفع شارل سبابته في وجه الكابتن وصاح:

- حذار من المصريين يا كابتن.. إنهم أذكى مما تتخيلون، وإذا كانوا قد انحنوا أمام قائدكم، فهذه حيلة لاتقاء شركم حتى يتدبروا الأمر، ويُحا..

بضحكة مجلجلة عطَّله مواريه عن مواصلة الحديث، وقال متهكمًا:

- يا فنان.. لا تندفع وراء عواطفك.. ولا تجعل إقامتك بين هؤلاء الحقراء تؤثر على نقاوة فرنسيتك وعمقها. دعني أسألك وأنا أعلم أنك شاركت في ثورتنا العظيمة كما أخبرتنا ونحن في الطريق إلى هنا.. أقول.. دعني أسألك، لكن أجبني بصراحة من فضلك: هل تظن أن شعبًا لا يقرأ ولا يكتب قادر على مواجهة جيش فرنسا العظمى؟ ألم ترَ كيف يقضي هذا الشعب الجاهل الكسول يومه في معاقرة الجوزة والدخان؟ إن الجنرال ديزيه يطارد الآن مراد بك ومماليكه في الصعيد.. وهما آخر عقبة في طريق استقرار أوضاعنا بمصر، صحيح أن مراد بك جاهل من الناحية العسكرية، لكنه موهوب فطريًّا في وضع الخطط وحشد الفلاحين والبدو وراءه ليقاومونا، ومع ذلك لا أمل له على الإطلاق في تحقيق أي نصر ضدنا، أو عرقلة حلمنا بإقامة مستعمرة فرنسية في مصر، ثم إن..

fb/mashro3pdf

أوقفه فرتراي بحركة مفاجئة من يده، ووقف مترنحًا وقد ثمل بالشراب، فانفرجت أساريره، وهتف وهو يتشمَّم بأنفه:

- توقفا! إنه الطعام.. رائحة ذكية وشهية للغاية.. لقد عضَّنا الجوع بما يكفي!

لاحظ شارل أن أكثر من زرٌّ قد سقط من سترة فرتراي، فسأله إن كانت معه ليخيطها خادمه، فضحك الملازم، وصاح:

- يا بن وطني.. المصريون مجانين بحق.. لقد ابتعت من سوق في دمنهور جوادًا قويًّا، وقد رفض البائع أن يأخذ مني 25 قرشًا إسبانيًّا من الذهب ثمنًا للجواد، وأصرَّ أن ينزع زرين من أزرار هذه السترة مقابل إعطائي الجواد.. تخيل! يرفضون النقود ويعشقون الأزرار.. إنهم مخبولون!

تحير شارل وتأفف مواريه مع دخول الخادم سليم بقامته الممدودة وبشرته السمراء حاملًا صينية من النحاس رُصَّت فوقها صحون الأرز والدجاج والحمام والطرشي والخبز والطماطم والخيار والفلفل، وكثير من الفواكه المتنوعة وقُلة الماء، وتركها فوق منضدة الأرابيسك، فانقضَّ عليها فرتراي، وهتف وهو يقضم قطعة من الحمام:

- يا سلام.. الحمام لذيذ بحق.. دعونا من الفقر والجهل والمجد والمماليك وبونابرت ومحمد، وتعاليا نُنصت إلى حديث النساء.. أجمل شيء في هذه الدنيا.. هيا يا شارل أخبرنا عن أحوال النساء هنا في القاهرة!

* * *

fb/mashro3pdf

في مأوى العفاريت

تذوَّق أيوب السبع تفاح النساء للمرة الأولى في مأوى العفاريت، حين منحته إياه عن طيب خاطر حسنات ابنة المعلم حسنين بائع المشروبات الساخنة. تكبره بثلاثة أعوام، ممشوقة الجسد تضجُّ أعضاؤها بأنوثة نافرة. لونها الخمري مريح للناظرين وعيناها واسعتان تبعثان برسائل شهوانية بانتظام. تعاون والدها في تنظيف الأقداح وإشعال الكانون وإعداد المشروبات. عند تقاطع حارة خان جعفر مع سكة المشهد الحسيني يفترش المعلم حسنين سجادة صغيرة يجلس عليها وأمامه الكانون والأقداح والآنية والأوعية الخشبية المغطاة التي تحوي السكر والحلبة والقرفة والبن واليانسون والخروب وخلافه. في الشتاء لا يكاد يلاحق أو يلبي طلبات الزبائن، وفي الصيف يجلس حوله المتسكعون والعجزة ومبددو الوقت فتروج بضاعته مع حلول المغرب وهطول المساء.

حسنات الابنة الوحيدة للرجل وجدت نفسها فجأة مسئولة عن النصبة بعد الموت المفاجئ لأبيها. في البداية ساعدتها أمها، لكن حين تزوَّج عليوة العربجي من الابنة، أمرها أن تلزم بيتها ولا تعرض حسنها الفاتن للمارة، وهو ما لم يحدث أبدًا؛ إذ اكتشفت حسنات أن زوجها مجرد

fb/mashro3pdf

عبد بائس أمام البوظة والحشيش والمنزول، فكل ما يكسبه بالنهار، ينفقه في الخمارة والغرزة في الليل. مُنحت حسنات فطرة إلهية أكدت لها أن عليوة لن يستقيم حاله، ولن يرتدع عن الذهاب إلى الخمارة ولن يتوقف عن تعاطي الحشيش والمنزول، فلفظته من حياتها، وأعادت تجهيز النصبة لتبيع المشروبات الساخنة للزبائن، ثم راحت تتابع بعينين جائعتين جارهم أيوب وهو يغدو ويروح بوسامته ونضارته وكتبه وجديته.

بعد مرور شهر على مصرع زوجها في إحدى معارك السكارى داخل الخمارة، كانت حسنات قد تعرَّت تمامًا في بيت العفاريت، وألقت بجسدها في حضن أيوب المذهول من قدرتها على إتيان المعجزات كما قال لها وهو يلهث من جنون الشهوة. في البداية لاحظ أيوب أن بائعة الحلبة ترشق عينيها في وجهه بجرأة لا تخلو من رغبة شيطانية، فاستجاب لنداء الغريزة، ومرَّر لها ابتسامة اختبار، فتلقتها بكرم بيِّن تمثل في دعوته لتناول الجنزبيل. لبَّى الدعوة بابتسامةٍ دالة، وحين حاول أن يدسَّ يده في سيالته لإخراج النقود أقسمت ألا يفعل، وهمست بغنج التقط إشارته الشاب النبيه على الفور: «والنبي يا سي أيوب أزعل بحق.. نحن كرماء وخيركم سابق».

fb/mashro3pdf

لم يخبر أيوب أحدًا من أصدقائه في الأزهر شيئًا عن حسنات ولا عن خطوته التالية، لكنه رتَّب لها بصبرٍ وذكاء، فقد دعاها في ليلة شتوية إلى معاونته في حمل بعض الكتب التي قام بنسخها مؤخرًا لينقلها إلى زبون يقطن في منطقة بعيدة. استجابت المرأة سريعًا، وبهمة شديدة وضعت

حمولة الكتب على رأسها وسارت خلفه، بينما حمل أيوب صُرَّة كتب أخرى واتجه نحو صحراء الدراسة. حين خرجا من باب الفتوح كانت الشمس على وشك المغيب، ونسمات هواء باردة راحت تلفح وجهي الشاب والمرأة بقوة. سألته: «أين بيت هذا الرجل يا سي أيوب؟ لقد صرنا محاصرين بين الصحراء والخرابة والمقابر». ابتسم وهمس بقلب يخفق بعنف: «لقد اقتربنا.. هل الحمولة ثقيلة؟». أجابت وقد أنهكها السير: «أبدًا.. لكننا توغلنا كثيرًا، حتى كدنا نقترب من مأوى الجن والعفاريت». ضحك أيوب بصوتٍ عالٍ فردَّد الفراغ رنين ضحكته وقال: «لا جنًّا هناك ولا عفاريت يا حسنات». فجأة توقفت حسنات عن المسير، وألقت حمولتها على الأرض، وهتفت وصدرها يعلو ويهبط من فرط الإنهاك: «لا يا سي أيوب.. هناك خلف هذه الخرابة، حيث البيت المهجور، تسكن العفاريت.. الكل يؤكد ذلك». توقف أيوب وقال بثقة: «الناس ساذجة يا حسنات، تظن أن هذا البيت مأوى للجن والعفاريت لأن صاحبه وُجد مقتولًا قبل سنوات، ولأنه مُقام بجوار الخرابة مباشرة على مشارف المقابر والصحراء، وأقسم لك لا يوجد شيء مخيف.. أمسكي يدي وتعالي معي لتتأكدي بنفسك»، ثم بصوتٍ ملؤه حنان العالم كله: «ألا تثقين بي يا حسنات؟». تركا الكتب على الأرض، وقبضت براحتها على كفه، وسارت ملتصقة به تتقاذفها مشاعر شتى، في حين طفق أيوب يصارع ذئب الشهوة الذي يعبث بكيانه كله. دفع بإصبعه باب البيت الخشبي فاندفع وأحدث أزيزًا هو للأنين أقرب، فصرخت حسنات: «يا نهار أسود.. إنه صوت العفاريت». ضحك أيوب ليمنحها

fb/mashro3pdf

قـدرًا من الثقة، وقال: «لا تخافي فهذا صوت الباب لأنه قديم ومفصلاته صدئة». وعلى الفور أخرج أيوب من جيبه شمعة وأشعلها بالشرارة الناتجة عن حكِّ حجرين ببعضهما، حينئذ أدركت حسنات أن خطتها نجحت في اصطياد الشاب الوسيم، فاطمأنت روحها، وزال خطر الجن، فالغريزة أقوى من العفاريت. وفي اللحظة التي كان يحاول فيها أيوب تثبيت الشمعة على الأرض تعرَّت حسنات تمامًا من كل خلجاتها، فانبهر أيوب وهو يتأمل جسدها تحت الأضواء الشاحبة للشمعة. لم يكن للبيت المهجور نوافذ، فظلَّت تيارات الهواء تتصارع داخله محدثة أصواتًا مريعة وقرقعات مخيفة، في الوقت الذي ألقت فيه حسنات جسدها كله في حضن أيوب. نزع ملابسه وألقاها أرضًا. بدون كثير ذكاء عرفت حسنات أن رجلها الجديد لا يملك أية خبرة بشئون النساء والجنس، فساعدته على إشعالها، وإشعاله، وقادته رويدًا رويدًا وبذكاءٍ نحو دروب المتعة الحسية المتفجرة.

استجاب أيوب لتعليمات الشبق، وبدا كمَن عاشر ألف امرأة من قبل. حين انشقَّ القمر وزُلزلت الأرض واستعر الجسد بالسخونة قال لها لاهثًا: «أنت معجزة يا حسنات.. وتصنعين المعجزات»، فقهقهت بصوتٍ غجري ممتزج بمشاعر داعرة وصاحت: «لقد أتعبتني أيها الشاب حتى تملكتك»، فوضع يده على فمها وهمس بصوتٍ خفيض: «أخفضي صوتك حتى لا تستيقظ العفاريت!»، ثم تلقى صوتًا من عالم المجهول يقرعه تقريعًا لأنه ارتكب الفاحشة واقترف خطيئة الزنى، فأبعدها عنه بحركة لا إرادية، ثم تفكر لحظة في صفعها؛ لأنها أغوته ولم تحفظ

fb/mashro3pdf

عفتها، وقد همَّ أن يفعل، لكنها ابتسمت في وجهه وهي ترتدي ملابسها، فغضَّ بصره، ونهض ملتحفًا بصمتٍ ثقيلٍ ومفاجئ. اقتربت منه وألقت رأسها في صدره وقبلت يمينه. احتواها بذارعه ولثم شفتيها ممتنًّا!

ظلت حسنات مستودع اللذة السري لأيوب، وغدا مأوى العفاريت أفضل الأماكن التي تبرق فيها أنوثة حسنات وترعد فيها فحولة أيوب، برغم أنه ضاجعها غير مرة بشكل سريع في الليالي المعتمة تحت القبو أو خلف سور التكية، ولما جاء الفرنساوية قلَّل أيوب من الذهاب إلى بيت الجن حرصًا منه على ألا يلفت انتباه العسس والجنود، خاصة برطلمين رئيس العسس الشرس ورجاله القساة، لكنه استعان بحسنات لإخفاء بعض السيوف والسكاكين والخناجر التي تستخدمها عصبته. وفجأة، ودون سابق إنذار، أُجبرت على الرحيل من الحسين حين تزوجت أمها تاجر قماش من بولاق، فاصطحبتها معها بالقوة، وقبل الرحيل التقت أيوب في مأوى العفاريت وذرفت دمعًا كثيرًا بعد أن تحرَّرا من رعشة الجسد وهمست: «كيف سأعيش في بلد آخر.. وأين؟ بولاق.. يا نهار أسود.. إنها في آخر الدنيا»!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

عمامة الجبرتي

- يا أولاد الكلب.. العمامة يا أولاد الكلب.

هكذا صرخ الشيخ عبد الرحمن الجبرتي غاضبًا وهو يدلف مسرعًا من باب حانوت أيوب السبع ممسكًا بيمناه عمامته المتربة، محاولًا في الوقت نفسه ضبط قفطانه بيسراه. تلفَّت خلفه أكثر من مرة والغضب يتقافز من عينيه. على الفور ترك أيوب قصبة النسخ وتوجَّه نحو الشيخ مرحبًا باهتمام زائد، عارضًا معاونته على إزاحة التراب الذي علق بقفطانه، ثم هُرِعَ نحو باب الدكان ليستطلع الأمر، فتلقى سحابة من غبار أثارها موكب الحمير الذي مرق سريعًا من أمام الدكان.

جلس الجبرتي على أريكة تتوسط المكان، وتنهَّد وقال بغضبٍ لم يسكت عنه بعد:

- هؤلاء الجنود الفرنساوية المجانين يخالفون قرار قائدهم السلطان الكبير.

ثم استطرد دون أن ينتظر أي تعليق:

- لقد رأيت بعينيَّ القرار الذي أصدره بونابرته أمس لجنوده. أطلعني عليه ترجمانه فنتور.

fb/mashro3pdf

باهتمام مدَّ أيوب رأسه سائلًا:

- ما فحوى القرار يا شيخنا؟

تنحنح الجبرتي وقال ضاغطًا على كل حرف كأنه ينتزعه انتزاعًا من بين أسنانه:

- ينص القرار على ضرورة تقليل سرعة الحمير التي يمتطيها الإفرنج حين يتحركون في المناطق المزدحمة بالقاهرة، وقد أكد لي الشيخ عبد الله الشرقاوي أن أعضاء الديوان من المشايخ والأعيان قدموا عدة شكاوى بسبب الحوادث التي يرتكبها هؤلاء الفرنساوية بالحمير التي يستأجرونها ويلهون بها؛ إذ أدت إلى مصرع طفل وإصابة سيدة عجوز هنا في الجمالية وقصر الشوق..

ثم غمغم بنبرة عصبية كأنه يحدِّث نفسه:

- وهل يوجد مكان في بر مصر كلها أكثر ازدحامًا من منطقة الأزهر؟

تأمل صاحب الدكان الضيف الطارئ بعينين يختلط فيهما الافتتان بالريبة، فالجبرتي من كبار العلماء الذين أُعجب بهم في فترة دراسته بالأزهر، وقد ارتبط الرجل بعلاقة معقولة مع والده، حيث قام الأب بنسخ أكثر من كتاب بناءً على رغبة الجبرتي، فكيف يتعامل هذا الشيخ مع الفرنساوية؟ وكيف يقبل بزيارة المعهد العلمي الذي أُنشئ في دار حسن كاشف بعد أن استولوا عليها؟ ولماذا لم يعترض على قبول علمائنا وشيوخنا الأجلاء التعيين في ديوان القاهرة الذي أنشأه ساري

fb/mashro3pdf

عسكر الفرنساوية؟ وهل حقًّا صدقوا مزاعم السلطان الكبير بأنه هجر عقيدته المسيحية وابتغى الإسلام دينًا؟

- لا تزعج نفسك يا شيخنا الجليل، فقد ذهبوا.

بنبرة مهدِّئة خاطبه أيوب، لكن الجبرتي تجاهل ما سمع وقفز من مكانه، وجال ببصره في الدكان فلمح المخطوطات والأوراق وأدوات النسخ، فسأل مستفهمًا:

- أليس هذا دكان الحاج إسماعيل السبع.. نسَّاخ الكتب؟

ثم اقترب وعاين أيوب بنظرات عميقة، بعدها سدَّد في وجهه عدة أسئلة سريعة:

- أظنك ابنه.. أليس كذلك؟ وهل تتقن الصنعة مثل أبيك؟ أين هو؟

بدا الشيخ عبد الرحمن الجبرتي على مشارف عامه الخامس والأربعين. ذا وجه مستدير سمرته عميقة، وآيات الترف مطبوعة في وجنتيه، أما عيناه فتشرقان بالحذق والذكاء، وقد خالط الشيب لحيته الطويلة. وعلى الرغم من بدانته الجلية من أثر الجلوس للقراءة والكتابة عشر ساعات يوميًّا، إلا أنه خفيف الحركة، كثير التلفُّت حوله.

- بلى.. أنا ابنه أيوب، وأظن أنني اكتسبت منه سرَّ الصنعة، وقد وافته المنية قبل عام.. طيَّب الله ثراه!

ترحَّم الشيخ على صاحب الدكان، واعتذر لعدم علمه بالوفاة، فقد كان في جولة في الوجه القبلي استمرت شهورًا. ثم نهض ليُلقي نظرة

fb/mashro3pdf

على المخطوطات المتناثرة هنا وهناك. ابتسم حين وقعت عيناه على مخطوط «بُردة البوصيري». استفسر أيوب بعينيه عن سر الابتسامة. لم يتركه الجبرتي نهبًا للفضول مدة طويلة؛ إذ سرعان ما هتف ساخرًا:

- هل تعلم يا بني أن الفرنساوية ترجموا هذه القصيدة إلى لغتهم؟ لقد رأيت نسختها الفرنساوية في المكتبة الملحقة بدار حسن كاشف جركس بحارة الناصرية والتي اتخذوها مقرًا للمجمع العلمي حين قمت بزيارتهم قبل يومين، وقد قال لي ترجمان بونابرته إن كبير الفرنسيس مفتون برسولنا الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام، وإنه يقرأ القرآن بلغتهم بعد أن ترجمه رجل من طائفتهم يُدعى دي ريير.

توقف الجبرتي فجأة عن الكلام، ودار حول نفسه باضطرابٍ كمَن يبحث عن شيء، وصرخ مستاءً:

- أين رستم.. العبد الذي كان بصحبتي؟ لقد ذهب ليقضي حاجته، قبل أن تنقضَّ عليَّ الحمير و..

اقتحم الدكان فجأة شاب صغير لا يكاد يبلغ العشرين. وجهه مدوَّر وعيناه لوزيتان وبشرته ناصعة البياض. عمامته وجلبابه نظيفان. يعتريه ذعر. انحنى سريعًا على يد الجبرتي وقبلها وقال معتذرًا بلهجة عربية مضعضعة:

- سامحني يا سيدي.. لقد بحثت عنك في كل مكان، ودخلت..

fb/mashro3pdf

أبكمـه الجبرتي بحركة مـن يده، وربَّت كتفه مهدئًا من روع الشـاب. تأمـل العبد قفطان الشـيخ فهاله مـا رأى من ترابٍ عالقٍ به. سـأل مرتعبًا، لكـن الجبرتي غمغم بعبـارات مطمئنة، ثم همَّ بالانصراف. أخذ يسـوِّي هندامـه، وهـو يصبُّ لعناته على الفرنسـاوية، لكن أيوب استوقفه راجيًا منـه أن يتفضَّل بتناول الحلبة أو القرفة، لـم يمانع وهمهم بالموافقة ملقيًا بجسـده البديـن على الأريكة. أسـرع أيوب نحو باب الـدكان الذي يطل على المشهد الحسـيني وصاح مناديًا حسنات بائعة المشروبات الساخنة طالبًـا منهـا إعداد ثلاثة أقداح من الحلبة، فلمـا أحضرتها تدحرجت منها ابتسـامة إغواء على تضاريـس وجهه، فارتبـك قليلًا، ونهرها بتقطيبة وهو يرمق الشـيخ بطرف عينه، فوجده مـستغرقًا في مطالعة مخطوطة «نواضر الأيك» للسـيوطي، وقد ارتسـمت على وجهه ابتسـامة ماكرة. اقترب منه برفقٍ وهمس:

- هل حقًّا انتوى بونابرته إشهار إسلامه كما يزعم؟

سـأل أيوب وهـو يناول ضيفه قدح الحلبة ويرمقـه بعينين متربصتين، فمط الجبرتي شفتيه كالحائر، ثم اعتدل في مجلسـه، وأعاد ضبط العمامة فوق رأسـه، واسـتحضر حالته حيـن كان يلقن تلاميذه العلـم في الأزهر وقال بنبرة مستكينة:

- ذلك موضوع يطول شـرحه، تفضل بزيارتي في داري ببولاق لنتحدث فيـه براحتنا، لكـن ثمة ملاحظة مهمة وهي.. أنت تعـرف يا بني أن الله جـلَّ عُلاه هو عليم بذات الصدور، لكني أشـك فـي نوايا الرجل، فكل

fb/mashro3pdf

ما يريده هو السيطرة على المسلمين حتى لو زعم أنه يقدر نبينا الكريم، ويحترم ديننا الحنيف.

ثم أضاف ضاحكًا:

- لكن مهما فعل، فلن أصدقه أبدًا، فهو نصراني ابن نصراني، وإلا ما سمح بفتح الحانات والخمارات في مصر كلها ليرتادها جنوده الكفار، والغوغاء والسفلة من بني جلدتنا، وما ترك نساء الفرنساوية يمرحن ويقهقهن في الطرقات سافرات الوجوه عاريات الصدور، يضاحكن عشاقهن ويعابثن رجالهن على مرأى من الجميع، فينشرن المجون والخلاعة!

* * *

fb/mashro3pdf

أيوب - اجتماع طارئ

صباح 13 مايو 1805

فوجئت سعدية بخروجي قبل شروق الشمس، ولما سألتني: «ماذا يقول الناس حين يرونك خارجًا من دارك في الصباحية؟». ضممتها في صدري، وقبّلت جبينها، وهمست: «معذرة يا حبيبتي.. جدَّ أمر مهم.. سأخبرك بكل شيء فيما بعد». تناولت برتقالة من صحن الفاكهة الموجود فوق المنضدة الصغيرة، وهممت بمغادرة المنزل بعد أن دسست خنجري وطبنجتي بين طيّات ثيابي، لكن سعدية ألقت في قفاي جملة أوقفتني قبل أن أصل إلى الباب: «هي امرأة.. أليس كذلك؟ وحين جاء صاحبك علي أبو حمص أمس وظللتما تتهامسان بجوار الباب، أدركت أنها هي مَن أرسلته.. وأنه جاء ليُحذِّرك.. الله أعلم بماذا وعدتها». ألا لعنة الله على الغيرة وضيق الأفق. التفتُّ نحوها، واقتربت منها برفق وأنا أبتسم، وضممتها في صدري وأقسمت: «والله العظيم لا يوجد في حياتي سواكِ يا سعدية.. ولكنْ ثمة أمور خطيرة سأشرحها لكِ فيما بعد». غمغمت بعبارة آلمتني، ربما لكونها صادقة، فقد قالت: «جسدك في جسدي طوال ليل أمس.. أي نعم، لكن روحك هجرت روحي»!

fb/mashro3pdf

لم أشأ أن أُعلِّق، وغادرت بيتي مع أول نقطة ضوء تهديها الشمس إلى أهل الأرض. اخترقت حارة خان جعفر ووصلت حتى ميدان بيت القاضي. لم ألحظ سوى بعض الكلاب الضالة التي تكاثرت في الشهور الأخيرة، وتذكرت الليلة التي قضى فيها الفرنساوية على الآلاف منها بالسم، وهمس باطني: «والله كانت لهم بعض الأفعال الإيجابية». قشَّرت البرتقالة وتناولتها في الطريق، فقد كنت أشعر بجوع شديد. توجَّهت نحو شجرة الجميز على مشارف صحراء الدراسة كما اتفقت أمس مع علي أبو حمص.

تلقاني علي ودياب بنظرات معتذرة، وقال الأول: «معذرة يا أيوب.. لقد خطفناك غداة الصباحية». قلت لهما: «لا مشكلة.. المهم نفكر جديًّا في الحيلولة دون أن يجلس الضابط الأرناؤوطي محمد علي على عرش مصر». دار بيننا حوار طويل حول هذه المصيبة التي لم تخطر لنا ببال. قال أبو حمص: «نقتل هذا الضابط الأرناؤوطي»، وقال دياب ضاضو: «نشيع بين الناس أن هذا الرجل لا يعرف اللغة العربية فكيف يحكم الناس ويقيم العدل وهو لا يفهم لغتهم؟». وقلت: «إن الناس لا يهمها سوى أنه مسلم يصوم ويصلي، ومحمد علي ممثل بارع في نقل صورة الرجل التقي الورع إلى الآخرين، كما أن حكامنا طوال الوقت لا يتقنون العربية».

استبعدنا مسألة قتله؛ لأنه يسير ويتنقَّل دائمًا وسط حراسة ضخمة يجزل لأفرادها العطاء، فتحميه بأرواحها فيصعب علينا الوصول إلى

fb/mashro3pdf

رأسه، كما أن قتله لن يحل المشكلة، فقد تفرض الأستانة علينا رجلًا آخر غير مصري أيضًا ولا ينتمي لبلادنا، وهكذا توصلت إلى حل طرحته على رفيقيَّ، وهو أن نذهب للقاء السيد عمر مكرم اليوم بأية وسيلة لإقناعه بأن يدخل القلعة الليلة أو صباح الغد على أكثر الفروض، ويُعلن نفسه واليًا على مصر، ونحن من جانبنا سنعمل على حشد الناس في مصر وإنبابة وبولاق لتأييده، والهتاف بحياته، وسنظل مجتمعين عند القلعة لا نبرحها حتى يأتي فرمان من السلطان يؤيد قرارنا باختياره واليًا على مصر!

رحبا بهذا الحل، رغم أن دياب ضاضو تشكَّك في قدرتنا على مخالفة أوامر السلطان العثماني وفرض حاكم بأنفسنا معللًا ذلك بقوله: «نحن رعايا السلطان وعلينا إطاعته فهو ولي الأمر كما هو معروف بين الناس».

قلت بجدية: «الأمور تغيرت الآن، وما عاد أحد يستطيع فرض إرادته علينا إذا استطعنا اختيار حاكم عادل يلتف حوله الناس»، ثم افترقنا على أن نصلي الظهر في جامع الحسين، ثم ننطلق بعدها إلى دار السيد عمر مكرم. تركتهما، واتخذت سبيلي نحو الدرب الأصفر. بدت الشمس قاسية إلى حد بعيد هذا الصباح، وانتشر الباعة والمتعطلون والشحاذون بطول شارع بين القصرين. انعطفت يسارًا نحو حارة الدرب الأصفر، وطرقت باب الخواجة شارل. كنت في أمس الحاجة إلى الاسترشاد برأيه في هذه المصيبة. لن أخبره بطبيعة الحال عن عُصبتنا التي أسسناها قبل سبعة أعوام، وأقسمنا أن تظل تقاوم الفرنساوية وتعمل في السر،

fb/mashro3pdf

لكني سأفاتحه في المشكلة المستجدة، فنحن نتناقش عادة في كل شيء. داهمتني ذكرى فرانسوا فارتجفت واعتراني حزن، ولاحت مني نظرة على الموقع الذي قتلوها فيه فندمت. فتح خادمه سليم وحياني بحفاوة، لكنه أخبرني أن شارل ما زال يغطُّ في سُبات عميق!

* * *

fb/mashro3pdf

شارل - زيارة مفاجئة

13 مايو 1805

استيقظت مذعورًا على صوت سليم يخبرني أن أيوب السبع في انتظاري. ماذا جاء به الآن؟ لقد كان زفافه ليلة أمس، والمفروض أن يظل بصحبة عروسه ثلاثة أيام كما هي العادة لدى المصريين هنا. تُرى.. أي خبر غريب جاء بك يا أيوب؟

تلقاني بابتسامة واعتذار، فلما سألته ما الخبر؟ تلفت حوله، وقال بصوتٍ مكروب: «إن جماعة من مشايخ الأزهر والتجار الكبار قرروا تنصيب محمد علي أمس واليًا على مصر». انتابني ذهول، وتذكرت قول مواريه: «إن المصريين جهلاء ينصاعون لمن يخدعهم بسهولة». تألم باطني، وسألت أيوب: «هل حقًا ما تقول؟».

تناولنا إفطارنا ولاحظت أن أيوب يأكل بنهم، وقد أكثر من التهام الفول. خمنت أنه قضى ليلة ساخنة مع عروسه ولم يتمكن من ملء معدته، فتبسَّم خاطري. قال لي إنه اقترح ترشيح السيد عمر مكرم ليصبح الوالي الجديد. للحظة خشيت من اغتياله، فقد قُتل أكثر من والٍ منذ خرج جنودنا من مصر قبل أربع سنوات، مثل طاهر باشا، والجزائري، وقد عبَّرت لأيوب عن مخاوفي قائلًا: «القاهرة محتشدة بجنود إنجليز وأرناؤوط وأكراد وهنود وفرس، علاوة على المماليك، كما أن السلاح

fb/mashro3pdf

متاح ومتوفر بيد الجميع، والخِسَّة مثل أفعى متربصة». فوجئت باندهاشه؛ إذ قال لي بصراحته المحببة: «تخيل يا خواجة شارل.. إنني لم أفكر في احتمال اغتيال السيد عمر مكرم على الإطلاق».

توقفنا عن الكلام لحظات حين أتى سليم بالقهوة، فقام أيوب يتأمل الصورة التي رسمتها لأختي فرانسوا عقب مقتلها كما يفعل في كل زيارة. يرنو إليها.. يشرد.. تنهمر دموع في قلبه. أتتبعه.. أقف بجواره.. أعاين وجهها الملائكي.. أواسيه، أواسيني، حتى تنعقد شفتاه ويصير نهبًا لألم كبير، فأجرُّه جرًّا نحو الأريكة الرئيسية بعيدًا عن الصورة وذكراها الموجعة، لكن هذه المرة لم يطل التسمُّر أمام فرانسوا؛ إذ لاحت منه نظرة على صورة مسعدة حجاب. لم يكن قد رأى هذه اللوحة من قبل، فسألني: «مَن هذه المرأة يا خواجة شارل؟».

بصراحة.. للحظة ارتبكت، فقد أخفيت أمر مسعدة حجاب عن العالم أجمع، وقنعت بأن السرية تمنحنا سعادة أصفى وألذ، ومذ ذابت في المجهول قبل ثلاثة أعوام، لم أحاول أن أستدعيها على القماش، لكن أول أمس ألحت عليَّ ذكراها، فنهضت مع اقتراب ظهور خيوط الفجر ورحت أستجمع ملامحها من الذاكرة، وأصورها بألوان الزيت. أعجبتني الصورة، لكن لم يَدُر بخلدي أنها ستلفت انتباه أيوب.

قلت له دون أن أنظر إليه: «إنها امرأة مصرية من وحي الخيال»، فباغتني هاتفًا: «كأنني رأيتها من قبل»، ثم أنقذني من الارتباك عندما غيَّر الموضوع هامسًا: «يبدو أنك غير متحمِّس لأن يصبح السيد عمر مكرم واليًا على مصر، فمَن تقترح إذن؟».

* * *

fb/mashro3pdf

أشرف هانم وإيواظ بك

لـم تكن المرة الأولى التي يرى فيها شـلضم السـقاء إيـواظ بك، فقد شـاهده أكثـر من مرة حيـن يقوم بتوصيل الميـاه يوميًّا إلى داره الفسـيحة فـي شـارع بيـن القصريـن، لكنها المـرة الأولـى التي يـرى فيهـا زوجته أشـرف هانـم. كانت تتحرك بنشـاط فـي أرجـاء المطبخ والحمَّـام. تأمر وتوجِّـه وتتابـع، والإماء مذعنات والجاريات لهـا طائعات، والعبيد على أوامرها عاكفون. حركتها الخفيفة لا تتواءم مع اكتنازها باللحم الأبيض، وشخصيتها القوية تجعل الخدم في رعب بيِّن!

صرخـت فجـأة حين لاحظت بعـض الأتربة عالقة فـي الثريا المدلاة من السـقف في صحن الدار: «لا أريد أي شـيء يعكِّر صفو زيارة السيدة نفيسـة البيضا اليوم.. وإلا الويل لكم». ثم صاحت آمرة: «نظفوا هذه الثريا فورًا.. أشـعلوا القناديل.. أطلقوا البخور». ارتبكـت الجاريات، وطفقن يبحثن عن مقشـة بذراع طويلة. أشـارت إحداهن إلـى أن أدوات النظافة في السـرداب. بعد ثوانٍ تلقت أذنا شـلضم صرخة مدوية زلزلت جدران الدار! هُرع الجميع إلى مصدر الصوت، فاكتشـفوا أن الباب المؤدي إلى السـرداب أسـفل الدار قد سـقط فوق جارية حبشـية. صرخت الجواري

fb/mashro3pdf

وولولن، فنهرتهن صاحبة الدار. لطمت جارية صغيرة خديها حين رأت خيطًا متواصلًا من دم يسيل من أنف الجارية؛ فصفعتها أشرف هانم بقوة. أمرت ثلاثة من العبيد برفع الباب عن الأمة المسكينة فأخفقوا. كالت لهم السباب والشتائم، فحاولوا مرة أخرى بينما عويل الجارية المكومة تحت الباب يمزق الأفئدة. هنا تجلى دور شلضم السقاء الذي بادر دون أن يستدعيه أحد إلى مكان الحادث، وانحنى بطوله الفارع وعضلاته المفتولة، وبسمل وحوقل حتى تمكن من إزاحة الباب، فسحبت النسوة صديقتهن المروّعة لتخرج متسربلة بقروح ودماء ودموع!

بسرعة أمرت سيدة الدار جواريها بعمل اللازم لإزالة دماء المرأة المصابة وتطهير وتضميد جراحها، والعودة سريعًا لمتابعة الإعدادات الخاصة بالزيارة المتوقعة. ثم انحنت برفق على شلضم الذي جلس على الأرض لاهثًا بعد أن أدى مهمته الإنسانية، وراح يمسح عرقه بكم ردائه. لاح لها السقاء شابًا عفيًا كامل الرجولة. عاينته بحس أنثى فقدت نعمة التواصل التام مع زوجها. أعجبتها قسماته المحددة، وعيناه الواسعتان وجبينه العريض وبشرته الخمرية الضاربة لسمرة غامقة. تجرأت ووضعت راحتها اليمنى على زنده، ربما لتتحسس صلابته، فانتبه، وهبَّ واقفًا. سألته: «ما اسمك؟ ومن أين أنت؟»، فأجاب وهو يغض بصره: «خادمك شلضم يا سيدتي.. أقطن في كوخ صغير عند القبو بجوار بيت القاضي».

غمغمت بعبارة لم تتضح له ملامح حروفها، وباطنها يخفي بسمة ارتياح. اقتادته نحو القاعة الرئيسية ومنحته عشر بارات دفعة واحدة. من

fb/mashro3pdf

جلسته المعتادة صاح إيواظ بك: «ما هذا الصراخ؟ ماذا حدث يا أشرف هانم؟». تقززت من سؤاله، كما قرفت من بدانته وخموله، فلم ترد، لكن حين كرر السؤال، أجابته دون أن تلتفت إليه: «لا شيء.. سقط باب السرداب على إحدى الجواري»، لم يعلق، وواصل سحب أنفاس الشيشة بتلذذ.

حين انتشر الفرنساوية في حواري القاهرة وأزقتها قبل شهرين، فرَّ ما بقي من المماليك خارج القاهرة رعبًا وهلعًا بعدما وصلهم نبأ الخسارة الفادحة لجيش مراد بك في معركة إنبابة، باستثناء عدد قليل منهم وافق على دفع ضرائب مهولة للسلطان الكبير نظير شموله بالأمان، وكان إيواظ بك أحد هؤلاء المماليك الذين هرعوا نحو الشيخ عبد الله الشرقاوي شيخ الجامع الأزهر طالبًا منه التوسط لدى نابليون ليبقيه في داره؛ إذ بكى قائلًا: «إنني رجل كبير على مشارف الخمسين.. الأمراض تغزوني، والخيول هجرتني، والفروسية خاصمتني، ولا أستطيع محاربة دجاجة يا مولانا». أشرف هانم هي مَن نصحته بذلك، وقد استعانت بالسيدة نفيسة البيضا لنيل رضا بونابرته. وقد وافق الجنرال، إكرامًا لشيخ الأزهر ووعده بالأمان إذا دفع الضرائب الباهظة المقررة. وهو ما كان.

في عصر اليوم الذي سقط فيه باب السرداب على الجارية، سمع أيوب الطرقات السرية على باب داره، فنهض واقفًا، وفتح الباب بحذر. فلما تجلى وجه شلضم السقاء صرفه بالحسنى، طالبًا منه أن يلتقيه عند شجرة الجميز بعد قليل.

fb/mashro3pdf

أخبره شلضم بزيارة نفيسة البيضا إلى دار إيواظ بك هذا اليوم، واقترح أن يقوموا بقتل هذه المرأة التي تتعاون مع الفرنساوية الكفار. حكى له شلضم وقائع ما جرى في دار المملوك البدين، وكيف أنقذ حياة الجارية حين هوى فوقها باب السرداب، والمبلغ الذي نفحته إياه صاحبة الدار إكرامًا لشجاعته. أنصت أيوب إلى قصة صديقه باهتمام بالغ، ولما توقف شلضم عن الكلام، شعر أيوب بلفحة برد مقبلة من اليسار، فحبك كوفيته حول عنقه، وهمهم: «يبدو أن البرد حلَّ قبل الأوان هذا العام، فما زلنا في منتصف أكتوبر»، ثم رجع بظهره حتى لامس جذع الشجرة وقال بتردد: «لست من أنصار قتل النساء يا شلضم، حتى لو كُنَّ يتعاونَّ مع الكفار». قال ذلك بينما طيف حسنات يمر على سطح ذاكرته وهي في حضنه، فينعشها إنعاشًا.

بُهتَ شلضم من ردِّ صديقه، وهتف موضحًا: «إن نفيسة البيضا تساعد بونابرته على البقاء في بلادنا فترة أطول، فكيف لا نحسبها من الأعداء الواجب قتلهم؟». ابتسم أيوب ونهض بخفة ورشاقة، وقال ضاحكًا بعد أن ربَّت كتف صاحبه: «هيا نلتقِ غدًا هنا لنناقش جدوى قتل النسوان مع بقية جماعتنا»!

بعد ذلك بسنوات قليلة سيتذكر أيوب هذه الليلة بكل تفصيلاتها، وهو يحاول أن يجد تفسيرًا مقنعًا للفضيحة المدوية التي فاحت رائحتها في حي الحسين كله!

* * *

fb/mashro3pdf

ثورة.. ثورة

- اهرب يا أيوب.. اهرب!

هكـذا صرخ علـي أبو حمص مـع منتصف نهـار الاثنيـن 22 أكتوبر 1798، وهمـا متحصنـان بمتـراس أمـام جامـع الأزهـر؛ إذ إن المدافـع الفرنسـية كانـت تطلق النيران بعصبيـة من القلعة، فتـدك بالقنابل الجامع العتيد وسـوق الغورية والفحامين. ركض أيوب وعلي في حماية سحابة من دخان ليختبآ خلف وكالة الغوري. لقد التقيا مع مطلع الشـمس حين أدركا أن الناس لبَّت الدعوة إلى محاربة الكفار التي انطلقت صباح أمس من المسـاجد ومن فوق أسـطح البيوت. أخرج كل منهما خنجره وأخذا يذبحان بثأر وانتقام وبغيظ أسود كل جندي فرنـسي يجدانه في طريقهما، ثم يكبران معًا: «الله أكبر.. والنصر للمسـلمين». عبرا سـاحة الحسـين. توجَّهـا نحـو جامـع الأزهر حيـث تجمَّـع المحاربـون منذ أمس داخل الجامـع وحولـه تلبية لنداء الجهاد الذي أطلقه عدد من صغار المشـايخ. شـعرا أن بعض جنود الكفار يتمترسـون عند الغورية. خرجا من الجامع. هرعـا إلى هناك، لم يجدا أحدًا، لكن فجأة أمطرت السـماء سـيلًا من نار وشواظ على أهالي القاهرة. توجَّعت جدران جامع الأزهر وأنَّت. هُدمت

fb/mashro3pdf

بيوت وصوامع ووكالات وانشقت جدران. تخلخلت حارات، وارتجت أزقة. فرَّ الناس من طائر الموت الأسود الذي يلاحقهم؛ فأفلح بعضهم وأخفق معظمهم. ارتعب الشابان مع المرتعبين. نطق علي بالشهادتين عندما أصم أذنيه صوت كالرعد. القنابل ما زالت تقرع جدران المدينة. امتلأت الحواري والأزقة بالجثث والدماء والصراخ والعويل، واختلطت الأعضاء المبتورة بالتراب والطين والدم. امرأة شبه عارية تخرج لاطمة خديها، وطفلها الصغير يصرخ خلفها. أيوب يلهث صارخًا: «لن يتوقف الكفار المجرمون هذا اليوم. لقد جُن جنونهم». علي يمسح خيطًا من دم يسيل من جبينه ويهتف مسرورًا: «هل تعلم أن خليل المنوفي هو الذي قتل الجنرال ديبوي الكافر الذي عيَّنه بونابرته حاكمًا على القاهرة؟». بُهتَ أيوب وسأل: «أعلم أنه قُتل، لكني لا أعرف أن خليل هو قاتله.. كيف حدث هذا؟». يجيب علي: «أقسم بالله العلي القدير إن المنوفي هو مَن قتله.. لقد هجم عليه عند خان الخليلي أمس في الصباح، وجذبه حتى سقط عن جواده فالتفَّ المؤمنون حوله وأشبعوه طعنًا كما أكد لي». شدَّ أيوب على يد رفيقه مهنئًا ومفاخرًا. فجأة زُلزلت الأرض جرَّاء دفقة قنابل متتالية أسقطت جدار البيت المواجه لوكالة الغوري. شاهد علي جنديًّا فرنسيًّا يختبئ خلف كوم قمامة أشبه بالتل ويطلق الرصاص بشكل عشوائي على أي شيء يتحرك. تسلل خلسة وانقضَّ بجسده الضخم على الجندي من الخلف وطعنه في عنقه حتى سقط صريعًا. الخيول والحمير تفر من حظائرها وتركض مذعورة وتدهس الجثث والجرحى

fb/mashro3pdf

فـي هياجها المفاجئ. الصهيـل والنهيق يختلطان بدوي المدافع وصراخ الأهالي ومواء القطط ونباح الكلاب وأنين الجرحى. يلحظ أيوب شيخًا معممًـا يهـرول خارجًـا من جامـع الأزهر رافعًا يديـه إلى السـماء داعيًا: «يا نجـيّ الألطـاف.. نجنا مما نخـاف». يردد علي وأيـوب الدعاء خلف الشيخ بقلب ضارع وصوت هامس.

يسـأل أيـوب بينما يخفق وجيب صدره بشـدة: «هل رأيـت أحدًا من أصدقائنـا؟». يؤكد علي: «أجل.. قابلت خليل وشـلضم أكثر من مرة في بيـت القاضي وجامع الأزهر والجمالية، وكلنا إيمان شـديد بأننا سـنطرد الكفـار مـن ديـار المسـلمين الليلـة، لكني لـم أرَ دياب ضاضـو لا أمس ولا اليوم». ينبطح الشـابان فجأة على الأرض حين تسقط قنبلة على وكالة الغوري. تشتعل النيران في الخشـب والتبن والفحم، فترتجف قطة سـوداء وتموء بشـكل جنوني. ترتفع سـحابات دخان سوداء كثيفة ناشرة غازات وروائـح خانقـة فـي سـماء القاهـرة. ينهض علـي وقد سـقطت عمامته. يتأمل للحظة الخـراب المحيط، ثم يعدو نحو جامع الأزهر لاعنًا الكفار وهـو يصـرخ: «سـأذبحهم أولاد الكلب هـؤلاء». يناديه أيـوب: «علي.. تمهـل.. لا تتهور». يأتيه صـوت صديقه غائمًا مكتومًا، فقد حال الصراخ وأجيـج النيران دون وصـول الصوت واضحًا، بينما اختفى علي بين النار والدخان. فجأة يتهدم بيت قديم مقابل الوكالة، وتندلع فيه النار. يرتجف أيوب. يهم بملاحقة علي، لكن الخطر يحدق به من كل اتجاه. يشـعر أنه غدا مشـلولًا بين القنابل والنار والدخـان والرائحة المقيتة. همس باطنه:

fb/mashro3pdf

«المـوت قريـب جدًّا، فليرحمني اللـه»، ثم نطق بالشـهادتين. فجأة بُعثَ طفـل حافـي القدمين مهترئ الثياب لا يتجاوز الخامسـة مـن بين حطام البيـت المتهدِّم. تحاصـره النيران والجثث، بينمـا صراخه يمزق الأفئدة. تنطلـق طلقات رصـاص متتالية من مكان مجهول صـوب وكالة الغوري والأزهـر والطفل المسـكين. قُذفَ الرعـب في قلب أيوب بشـدة. يوزِّع بصره بين الحرائق والطفل المذعور. يغمض عينيه للحظة، ويشد من أزر نفسـه بتلاوة آية الكرسـي سـرًّا، ويهرع نحو الطفل في لمح البصر. يرفعه فوق كتفه، ويركض بأقصى سرعة في اتجاه باب زويلة بعيدًا عن النيران.

يقفـز أيوب بين الجثـث والجرحى والقطط النافقـة ويتفاداها بمهارة مُلهمـة مـن غريزة الحيـاة. ينتفض من فـرط الذعر، فالرصـاص يطارده، وأكثر من ثلاثة جنود فرنسـاوية يلاحقونه. يقبض بيديه على ساقي الطفل حتى لا يسـقط مـن فوق كتفه. يبكـي الطفل بحرقة، بينما الدم يسـيل من ساق أيوب. فجأة ينعطف يمينًا في حارة الروم. يختبئ للحظة خلف نتوء حجـري بجـوار مدخل بيت عتيق ليلتقط أنفاسـه ويرصـد إلى أين وصل مطـاردوه. فُتـحَ باب البيـت بحـذر، وجذبته يد قويـة إلى الداخـل كأنها شفطته، ثم أُغلقَ الباب في الحال!

كأنـه دلـف إلى دار الهـدوء، فالصمت شـامل، والهواء طـري والنور شـاحب. أنزل أيوب الطفل واحتضنه بقوة كمَن يخفيه وهو يكابد رعشـة مفاجئة. تأمل المكان. اقتربت منه سـيدة ذات وجه أسمر مريح. قالت له بصـوت حنـون: «أعطني الطفـل.. لا تخف». ثم ربَّت كتفـه رجل كهل:

fb/mashro3pdf

«اطمئن يا بني.. لا تخشَ شيئًا». ظل أيوب متسمرًا في مكانه، زائغ البصر مشتت الروح مضطرب الوجدان. فجأة رصدت عيناه صليبًا ضخمًا معلقًا على الحائط، فارتبك وسأل بارتياب دون أن يترك الطفل: «أين أنا؟». ابتسم الرجل وقال بنبرةٍ حنون: «أنت في بيت أهلك».

تلقى أيوب صوتًا من المجهول يخبره أنه في أمان، فأنزل الطفل برفق وجلس على الأرض منهكًا ومهدودًا. انحنت السيدة لتحتضن الطفل وأمرت الخادمة بإحضار الطشت والصابون وإبريق الماء، وراحت تغسل له وجهه ويديه وتقبله حتى توقف عن البكاء. ثم أجلسته في حجرها وجيء بطعام شهي وشرعت في دسه داخل فمه بحنان. تابع أيوب ما تفعله السيدة مع الطفل، فانشرح صدره واطمأن، ووجد نفسه محاطًا بشاب وصبية والرجل الكهل.

«اسمي ميخائيل، وهذا والدي المُقدّس حنا رمسيس صاحب وكالة الصابون في الدرب الأحمر». هكذا قال الشاب الأسمر ذو الجسد العملاق، ثم أضاف: «أنا مَن جذبتك.. كنت أتابع مطاردة جنود الفرنساوية لك من الكوة السرية التي في غرفتي بالدور العلوي، فلما دخلت حارتنا، وثبتُ سريعًا، وأدخلتك إلى هنا سالمًا.. نشكر الرب». لم يرد أيوب، وواصل تفرسه في أهل البيت. سألته الصبية وهي تناوله قلة الماء مشيرة نحو الطفل المشغول بالتهام الطعام: «ما اسم ابنك؟». ابتسم للمرة الأولى وقال بصوتٍ متحشرجٍ بعد أن تجرّع كثيرًا من المياه: «لا أعرف، فهو ليس ابني»!

fb/mashro3pdf

سُمع صوت انفجار مدوٍّ مصحوب بصراخ نسوة، فبكى الطفل، لكن ميخائيل العملاق همس: «لا تقلقوا، فالانفجار بعيد.. عند الأزهر غالبًا»، فقالت الأم بلوعة: «الفرنساوية مجرمون.. لن يتوقفوا عن قتلنا.. ما ذنب الأطفال؟ ارحمنا يا يسوع باسم الصليب».

هبَّ أيوب واقفًا، تعتريه حيرة وقلق مما يسمع، فانتبه المقدس حنا إلى بقعة دم لوثت الجزء الأسفل من جلبابه عند ساقه اليمنى. على الفور شرع ميخائيل وأخته في تنظيف الجرح البسيط الذي تعرَّضت له ساقه. تفكر مليًا قبل أن يسأل بعقل تنهشه الحيرة: «ألستم نصارى مثل الفرنساوية.. فكيف تدعون عليهم؟». اقترب منه المقدس حنا، واصطحبه نحو كنبة في أقصى صحن الدار، ودعاه للجلوس وطلب من زوجته أن تعد سريعًا طعام الغداء، ثم سأله: «ما اسمك يا بني؟». فلما عرف اسم اللاجئ الطارئ همس له بصوت هادئ قائلًا: «يا أيوب.. لقد ولدت هنا في هذا البيت الذي شيده جد أبي، وزوجتي من أسيوط وليس لنا بلد آخر، أما الفرنساوية فقد جاءوا من بلاد بعيدة خلف البحار كما يقولون، حضروا بجيش غازٍ محتل يريد أن يخرب ديارنا.. ألا ترى أنهم يقتلون أهلنا منذ صباح أمس؟».

فجأة.. تذكر أيوب علي أبو حمص، فنهض هاتفًا: «يجب أن أمضي.. فأصدقائي في مرمى النيران». أمسكه المقدس حنا من كُمّ جلبابه ورجاه أن يعاود الجلوس حتى تهدأ الأمور بالخارج. استجاب للرجاء من فرط الإنهاك. لم يستطع أن يضع في جوفه أي شيء مما قُدِّم له، لكنه شعر بتشويش ذهني لا حدَّ له، فتساءل وهو يتفرس في رسم بدائي للسيد

fb/mashro3pdf

المسيح معلق على الجدار المقابل: «هل حقًّا تكرهون الفرنساوية برغم أنهم مسيحيون مثلكم؟». تولى ميخائيل الإجابة وهو يناوله قطعة خبز، فأخذها ووضعها جانبًا دون أن يأكلها: «نحن مصريون يا أيوب، وهذا بلدنا، ما لنا ومال الفرنساوية القتلة». كأنه جاهز بالرد، قال أيوب: «لكن المعلم جرجس الجوهري يتعامل معهم، وهو نصراني مثلكم.. ألا يقوم بجمع الضرائب الباهظة التي يفرضها بونابرته ويعطيها له؟». ابتسم المقدس حنا وهمس بحكمة: «ومشايخ الأزهر أيضًا يتعاونون مع بونابرته يا أيوب.. ألم يتم تعيين كثير منهم في ديوان القاهرة الذي أنشأه نابليون وعلى رأسهم شيخ الأزهر نفسه؟ للضرورة أحكام يا بني».

سرح أيوب في كلام المقدس حنا، وتساءل خاطره: «أين الصواب في هذا العالم؟ فالموت كان أقرب إليَّ من حبل الوريد قبل دقائق، والآن تحميني أسرة نصرانية فأحظى بالأمان، ومنذ ساعتين ذبحنا أنا وعلي أكثر من ثمانية جنود من النصارى الكفار عند المشهد الحسيني وجامع الأزهر، وحسنات لامتني قبل يومين وقالت محتجة: ما لهم الفرنساوية؟ إنهم كرماء.. يدفعون لي كثيرًا بعد أن يتناولوا القرفة والحلبة والقهوة؟ فصفعتها في بيت العفاريت، ثم ضاجعتها مرة أخرى! ودياب ضاضو الذي اختفى.. هل استشهد مع الآخرين؟ وهذا الطفل المسكين الذي فقد أسرته بكل تأكيد تحت وابل من القنابل والرصاص.. ترى مَن سيتولى تربيته ورعايته؟».

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

معبد الكرنك في الدرب الأصفر!

لا ريب.. فقد ابتهج الخواجة شارل حين رأى أمامه الكابتن جوزيف مواريه والملازم فرتراي بزيهما العسكري الأنيق.. السترة الزرقاء والبنطال الأبيض والغطاء الأسود للساقين، لكنه تساءل مَن الذي يرافقهما؟ وما هذا الملف الضخم الذي يحمله تحت إبطه؟ لم تكن الساعة قد تجاوزت الثانية عشرة ظهرًا حين سمع الرسام الفرنسي صيحات تناديه من بعيد. التفت خلفه، فشاهد الثلاثة مقبلين عليه بابتسامات متنوعة بصحبة خادمه سليم. آنذاك كان يجلس قبالة باب زويلة وأمامه حامل الرسم. لقد قارب على الانتهاء من تصوير هذا المنظر الذي طلبه تاجر فرنسي رافق الحملة ودشَّن خمَّارة في الأزبكية بحضور لفيف من بني جلدته.

- مرحبًا شارل.. لقد افتقدناك كثيرًا أيها المواطن الفرنسي النبيل. وقد أرشدنا سليم إلى مكانك.

بهذه العبارة صافح مواريه شارل وشدَّ على يده، ثم أردف مسرعًا بلهجة مسرحية:

- يشرفني أن أقدم لك أفضل رسامي جمهورية فرنسا، وأهم فناني حملتنا المجيدة.. إنه فيفان دينون!

fb/mashro3pdf

مـا إن أبدى شـارل ترحيبه بالقادمين، حتى صـرخ دينون صائحًا وهو يتأمل باب زويلة وجامع المؤيد شيخ:

- أوه.. إنـه منظر بالغ الروعة.. أحيي اختيـارك لهذا المكان أيها الفنان.. حقًّا لا يوجد أجمل من شمس مصر.. إنها تمنح البشر والحجر سبيكة ذهبية من الإضاءة الساحرة والظلال الآسرة.

ثم عاين اللوحة المرسومة وقال مشجعًا:

- برافو.. أنت فنان موهوب بحق.

كانت نسـائم منتصف فبراير تهب متقطعة، بينما الشمس تطل وتحتجب بانتظام خلف سرب من السُّحُب البيضاء، فتمنح القاهرة قدرًا من طزاجة وحيوية. سـألهم شارل إن كانوا قد وصلوا من معسكرهم ببولاق إلى هنا ممتطين خيولهم، فردُّوا بالإيجاب، وأنهم تركوا جيادهم في حظيرة داره، وفضلوا السـير على أقدامهم حين أخبرهم سليم أنه يجلس قريبًا من هنا، فأمر شـارل خادمه بمسـاعدته في لملمة حاجياته وأدواته، والذهاب إلى البيت سريعًا لإعداد طعام الغذاء.

قبل أن يدلفوا من باب بيت الرسـام الفرنسي في الدرب الأصفر أثنى دينـون على شـارل لأنه اختـار مكانًا متميزًا ليقيم فيه، وقال بنبرة أستاذ عليم:

- برافـو شـارل.. إنـك إنسـان ذكـي.. إن هـذه المنطقـة تحتشـد بعمائر ومسـاجد وزوايا وبشـر تثير خيال أي فنان ليرسم وينطلق.. ولكنْ لِمَن هذا البيت الضخم ذو الواجهة البديعة؟

fb/mashro3pdf

- إنه بيت أولاد الشيخ محمد أمين السحيمي وأحفاده.. وقد أكدوا لي أنه بُني منذ مائة وخمسين سنة تقريبًا.. إنه تحفة من الداخل.. يحتوي على غرف وممرات ونوافير وقاعات استقبال ومشربيات وسراديب.. كأنه قصر مسحور. لقد أطلعني عليه شاب من أهل البيت حين أبديت إعجابي ورغبتي في تفقده والوقوف على معماره وفنونه وكنوزه وأسراره!

قال شارل ذلك؛ ثم قادهم نحو داره بترحاب. لم يبدُ على دينون أنه تجاوز الخمسين، فقد كان نشيطًا.. دائب الحركة.. يضج بالحيوية. يمتلك بصيرة نفاذة وعينين ثاقبتين زرقاوين براقتين. له أنف مدبب وشعر أصفر طويل يكاد يصل إلى كتفيه. لم يجلس مثل رفيقيه في قاعة الاستقبال بالدار، بل قام بجولة في أرجاء البيت، وقد أعجبته اللوحات المعروضة في كل مكان تقريبًا. تأمل صورة المرأة المتسولة وابنها وقال لصاحبها: «لوحة رائعة بحق.. لقد تمكنت من تجسيد التعاسة يا صديقي». غمغم شارل شاكرًا هذا الإطراء وهو يناوله قدحه من النبيذ الفرنسي. هتف مواريه وقد شرع يتجرع أول رشفة:

- مسيو دينون.. طوال وجودي في مصر لم أذق ألذ من هذا النبيذ الذي يكرمنا به شارل.

تذوق دينون النبيذ، فودَّ لو قال له إن النبيذ الذي في حوزة بونابرت ألذ كثيرًا، فقد أمر القائد بإحضار عشرات الزجاجات معه من فرنسا،

fb/mashro3pdf

لكنه أحجم واكتفى بتأكيد كلام الكابتن مبتسمًا. لاحظ صاحب البيت أن الملازم فرتراي قليل الكلام.. شارد البال، فأقبل عليه وسأله بلطف:

- ما بك يا صديقي؟ أين قفشاتك ونكاتك وولعك بالنساء؟

بيأسٍ مريعٍ أجاب فرتراي:

- لا شيء البتة.. لقد أُصبت بالرمد ونحن في بلبيس وكدت أفقد بصري، وحين قام الغوغاء بالقتل والتخريب في أكتوبر الماضي هجموا على المستشفى الذي كنا نعالج فيه وذبحوا بعض رفاقي، لكننا تمكنا من كثير منهم وأطلقنا عليهم الرصاص، وقتلناهم في الحال.

سكت لحظة، ثم هتف بحسرة:

- لقد أوحشتني فرنسا.. أريد العودة إلى باريس فورًا.. لقد كرهتُ وجودي هنا!

سدَّد له مواريه نظرة حادة مشوبة بقرف، وقال موبخًا:

- أنترك هؤلاء السفلة والغوغاء يدمرون مشروعنا الحضاري يا حضرة الضابط؟

فجأة صاح دينون مشدوهًا:

- أوه.. برافو شارل.. لوحة رائعة بحق.. كيف رسمتها؟

لقد جذبت الصورة الضخمة التي رسمها شارل للجنود الفرنسيين وهم يقتحمون جامع الأزهر بخيولهم اهتمام دينون، فتوجَّه نحوها وظل يعاينها باهتمام كبير، فقال شارل من مجلسه:

fb/mashro3pdf

- هل تعلم يا مسيو دينون أنني احتجت إلى شهر كامل حتى أُنجزها، وقد استعنت بأقوال كثيرين شهدوا جريمتنا في الأزهر!

صرخ مواريه محتجًّا:

- جريمتنا؟

- طبعًا جريمة يا كابتن مواريه.. ألم نقتل من المصريين نحو ثلاثة آلاف إنسان في يومين اثنين فقط!

صبَّ الكابتن في جوفه ما بقي من نبيذ دفعة واحدة، وهبَّ واقفًا وهتف:

- والمجرمون المتعصبون قتلوا منا خمسمائة جندي وضابط، غير الجنرال العظيم ديبوي حاكم القاهرة.

وأكمل سريعًا وعروقه تنفر من فرط الانفعال:

- ألم تعلم أن هؤلاء الجهلة اعتدوا على بيت الجنرال كفاريللي في الناصرية، وانقضوا على المجمع العلمي وحطموا الأدوات والآلات التي ابتكرها علماؤنا من أجل خدمة البشرية لا المصريين فحسب.. ألم أقل لك إنهم جهلة لا يعرفون شيئًا عن العلوم والفنون!

فوجئ شارل بالأداء العصبي لمواريه، فاستعان، بشكل عفوي، بدينون، وسأله بنبرة هادئة:

- ما رأيك يا مسيو دينون؟ ألم يرتكب جنودنا جريمة في ثورة القاهرة في أكتوبر الماضي؟

fb/mashro3pdf

كان دينون قد أمسك بورقة بيضاء ملقاة على المنضدة وأخرج قلم رصاص من جيب سترته، وراح يرسم الجالسين بحماسة حين تلقى سؤال شارل، فقال بدون اكتراث كبير:

- أتفق وكلا الرأيين في آنٍ معًا.. أجل.. المصريون جهلاء ومتعصبون، ونحن، أيضًا، ارتكبنا جريمة.. لكنها جريمة مشروعة؛ لأنها كانت دفاعًا عن النفس، وحسنًا فعل نابليون حين أعدم المشايخ الستة الذين حرَّضوا الجهلاء على قتلنا والاعتداء علينا، وكما علمت فإن جواسيس إبراهيم بك الهارب في الشام كانوا يبثون دعاية مغرضة ضدنا، كما هددوا الناس الذين يتعاملون معنا بالقتل، وعلمت أيضًا، من العالم مونج، أن الباب العالي لعب دورًا مؤسفًا في نشر بيانات تسب حملتنا وتعتبرنا غزاة، ما جعل كثيرًا من الجهلاء يصدقون المزاعم التي تقول إن قتلنا هو انتصار للإسلام. صحيح أن هناك سيدة مصرية عجوزًا في الجمالية أخفت بعض جنودنا في دارها، وأنا منهم، في أثناء هياج المسلمين المتعصبين ضدنا، إلا أنها حالة استثنائية لا يمكن القياس عليها.

ثم أضاف بعتاب هادئ:

- من فضلك شارل.. لا تصف جرائم المصريين ضدنا في أكتوبر الماضي بأنها ثورة.. أرجوك.. لا تبتذل كلمة ثورة يا صديقي.. فنحن الفرنسيين فقط مَن قمنا بثورة.. طردنا ملكًا وأسقطنا نظامًا كهنوتيًا متخلفًا، وقضينا على حفنة إقطاعيين يخاصمون العصر والتطور، وأقمنا نظامًا جمهوريًا، وأنت نفسك شاركت في ثورتنا المجيدة

fb/mashro3pdf

كما أخبرني الكابتن والملازم، لكن المصريين كالقطيع الهائج.. لا يملكون فكرًا ولا تصورًا عن المستقبل، ولا يحلمون بمجتمع أفضل، وجُلُّ ما يشغلهم هو مستقبلهم بعد الموت، أي الجنة والنار في الدار الآخرة.. لقد هاجوا ليقتلونا لأننا نختلف عنهم في الدين فقط. ألم ترَ أنهم قنعوا بالعبودية تحت حكم المماليك والأتراك؟ إنهم شعب أهوج يسيطر عليه الأجانب، ويدمر عقله التطرف الديني، ثم إنهم لا يطيقون الاقتراب من العلم والمعرفة، وإلا ما دمروا الآلات والمعامل..

قاطعه شارل موضحًا:

- لكننا أسرفنا في قتلهم ودكِّ مدينتهم بالقنابل بدون داعٍ.. فقد كان من الممكن أن نستعين بمشايخهم ليخففوا غضب الناس وسخطهم على قرارات بونابرت المتعسفة التي أشعلت نيران الثورة في صدور الجموع، وأظن أن بؤس المصريين الحالي وجهلهم يمكن القضاء عليهما خلال فترة وجيزة جدًّا بشرط أن نفهم هذا الشعب الذكي والطيب، ونعامله بالحسنى لا أن نهين عقيدته وندمر مساجده وبيوته كما فعل بونابرت بحجة تحصين القلعة بشكل أفضل، أو نزيل الأضرحة التي يتبرَّكون بها حتى لو كان من وراء ذلك هدف نبيل وهو توسيع الشوارع وتمهيد الطرق! ألم يأمر جنرالكم بتحويل مسجد الصالحية إلى قلعة؟ ألم يحرق جنودكم قرية علقام ويصادروا ما فيها من ماشية وغلال بحجة أن أهاليها اعتدوا على رجالكم وقتلوا منهم ستة عشر جنديًّا؟ لقد نما إلى علمي أن الجنود المقتولين بالوا في جامع القرية ودخلوه

fb/mashro3pdf

بأحذيتهم. يجب أن نراعي مشاعر الناس وحساسيتهم المفرطة تجاه عقيدتهم يا مسيو دينون حتى لو..

فجأة انتفض فرتراي بحركة عصبية، فانجذبت العيون نحوه وتعطلت لغة الكلام، وقال الملازم بحدة بعد أن قذف في جوفه ما تبقى من النبيذ دفعة واحدة:

- إن بونابرت لم يستخف بأبناء النيل فحسب، بل يستخف بنا أيضًا نحن ضباط وجنود الجمهورية الفرنسية. إنه يقيم في أفخر القصور بالأزبكية.. قصر المملوك الهارب محمد بك الألفي، ويتلذذ بأجمل النساء الفرنسيات والمصريات. ألم تسمعوا ماذا فعل مع الضابط فوريه؟ لقد أرسله في مهمة إلى فرنسا ليخلو له الجو مع زوجته مدام بولين فوريه.. «كليوباترا مصر» كما أطلق عليها الجنود تندرًا، وأمر بتخصيص دار فسيحة لها بجواره في الأزبكية، حتى يسهل عليها تلبية رغباته سريعًا، ولا تنسوا زينب ابنة الشيخ خليل البكري التي صارت من عشيقات قائدنا المفضلات، وأبوها يغض الطرف عن الاثنين.. الجنرال الهائج.. والفتاة الولهانة، و..

fb/mashro3pdf

أطلق الكابتن مواريه ضحكة ساخرة وهتف:

- هذا يؤكد أنه قائد محظوظ ونبيه، والمرأة ضرورة يا حضرة الملازم حتى تخفف التوتر الشديد للرجل كما تعلم، وقائدنا في حاجة إلى محق أي توتر جنسي حتى يتفرغ لتخطيط المعارك التي تنتظرنا، وحتى..

قاطعه فرتراي بصرخة:

- ونحن.. ألسنا رجالًا مثله في حاجة إلى نساء، لقد جاء بنا إلى هذا البلد التعيس لنموت من الحر والعطش والحرمان، وقد رأينا جميعًا كيف مات من جنودنا عدد كبير في الصحراء في الرحمانية ودمنهور ونحن قادمون من الإسكندرية إلى هنا، ناهيكم عن العشرين رجلًا الذين ماتوا غرقًا في عملية الإنزال من البوارج والسفن عند أبي قير، ولا تنسوا جرائم البدو والفلاحين الأنذال المجانين الذين اغتصبوا رجالنا مرارًا بعد أن أسروهم في هذه الرحلة الملعونة، وبرغم أن هؤلاء البدو قد سَبَوا كثيرًا من نسائنا غير أنهم لم يلمسوهنَّ.. وأخذوا يتلذذون بممارسة اللواط مع الرجال بالقوة.. إنهم مجانين وحقراء!

تدخل دينون بإشارة من يده ليوقف أي تعليق من أي طرف وقال مُغيرًا مجرى الحديث:

- دعونا من هذا الكلام، وأدخل الرب في ملكوته كل مَن مات في سبيل مجد جمهوريتنا، ثم إن العاهرات في كل مكان يا حضرة الضابط، ألقِ جسدك في حضن أية واحدة منهن لتطفئ نيران توترك، لا.. لا.. دعونا من هذا.. تعالوا أُرِكم هذه اللوحات النادرة لمعبد الكرنك الذي بهرني حين شاهدته في الأقصر عندما قامت إحدى فرق جيشنا العظيم بقيادة الجنرال ديزيه بمطاردة مراد بك وجنوده في الصعيد.

تردد فرتراي لحظة قبل أن يجلس يأسًا، ورمقه الكابتن مواريه بنظرة استنكار، وهمَّ شارل بأن يعلِّق على ما يدور، لكن فضوله لرؤية اللوحات

fb/mashro3pdf

دفعه لأن يؤجل تعليقه مؤقتًا. فتح دينون مغلفًا ضخمًا كان يضعه تحت إبطه، وراح يستعرض أمامهم اللوحات متنوعة الأحجام والأشكال للمعبد الشهير، وقد نفذها بخامات وأدوات مختلفة. ومضى يشرح لهم الصعوبات التي واجهته في أثناء تصوير كل لوحة، والوقت الذي استغرقه لإنجازها. أنصتوا إليه باهتمام شديد وعلامات الافتتان تتجلى في عيونهم. التقط شارل إحدى اللوحات وتأملها مليًا، ثم قال وبريق الإعجاب يشع من عينيه:

- إنها رائعة يا مسيو دينون.. معك حق.. المعبد ساحر.. لم أرَه من قبل، وأنت فنان كبير بحق!

على الفور هتف دينون:

- أشكرك يا عزيزي.. إنها هدية لك عربونًا لصداقتنا الجديدة.

ارتسمت آيات الامتنان على وجه شارل، وراح يغمغم:

- ظني أنك من القلائل الذين رسموا معبد الكرنك!

اعتدل دينون في مجلسه وراح يرتشف النبيذ بتمهل وصاح مفاخرًا:

- لا يا شارل.. أنا أول فنان في العالم كله يرسم معبد الكرنك منذ ألفي عام!

fb/mashro3pdf

* * *

برطلمين الملعون

مـاذا سـنفعل بعـد أن ألقـى فـرط الرمـان ورجالـه القبض علـى دياب ضاضو؟

لم يوجِّه علي أبو حمص سؤاله إلى شخص محدد، لكن شلضم نظر نحو أيوب، الذي اكتسى وجهه بمسحة حزن في ضوء النجوم الساهرة. تحلَّى الجالسون قليلًا بالصمت حتى همس أيوب مُصحِّحًا برفق:

- اسـمه برطلميـن يا علـي، البسـطاء فقط ينطقونـه فرط الرمـان، وأنت تعلَّمت في الأزهر يا رجل!

- لا أدري.. إنه مصيبة.. من أين أتى به بونابرته ليعينه كتخدا مستحفظان القاهرة؟

غمغم أيوب وقال:

- إنـه رجـل مـن نصـارى الأروام كمـا تعلمـان، ومنصبـه بوصفـه نائب المحافـظ أو رئيـس العسـس يمنحه سـلطات لا حدود لهـا، والغريب أنه اختار أتباعه من أسـوأ رجال الترك واليونان والمغاربة المتوحشـين الذين خلت قلوبهم من الرحمة.

fb/mashro3pdf

- منذ ثورتنا في أكتوبر الماضي والملعون برطلمين لا يتوقف عن التفتيش في صدور الناس، فيسجن هذا ويقتل ذاك، بعد أن نشر أتباعه في كل مكان.

قال علي باستياء، فأردف أيوب:

- لذا يجب أن نكون أكثر حرصًا عند اللقاء وعند القيام بعملياتنا.

ثم سكت أيوب فجأة متوجسًا كمَن سمع صوتًا، وتلفت حوله بحذر؛ فانتقلت عدوى التوجس إلى رفاقه، وهبَّ علي متنفضًا بعد أن أخرج خنجره من طيات ملابسه، ورفعه متخذًا وضع الدفاع؛ لكن شالضم السقاء ابتسم وطلب من علي معاودة الجلوس وقال وهو يشير بسبابته نحو البيت المهجور:

- لا تقلقا.. إنه صوت الهواء عند مروره بقوة في بيت العفاريت.. إذ لا توجد به نوافذ كما تعلمون.

مرَّ طيف حسنات في خاطر أيوب، فابتسم وتذكر لقاءهما الأخير قبل أسبوع، حيث منحته بسخاء، ووهبها بكرم، فارتوى وامتلأت، وتعانقا وتداخلا حتى طرب الجسدان وانتشيا. وفجأة سمع أيوب صوتًا من المجهول يخبره أن حسنات قد تشي به عند برطلمين، فارتعب، وتذكر كم أخفى عندها خنجره الملوث بالدم حين يدفعه اضطرابه إلى العودة سريعًا إلى بيته بعد أن يقتل أحد الفرنساوية الشاردين، فكانت ترتاب في تصرفاته وتسأله عن سر الدم والخنجر. آنذاك يتهرب ويتخفى وراء

fb/mashro3pdf

سلسلة من أسئلة متناقضة حول حالتها وأمها. أجل.. دهمه خاطر سيء، فانطبعت بين حاجبيه تقطيبة مزعجة دفعت علي إلى سؤاله:

- خيرًا.. ما بك يا أيوب؟

استردَّ ذاته من سهوها بسرعة، وطرد الهاجس المفزع، وهمهم:

- لا شيء.

ثم استطرد سريعًا ليدحر أي خاطر مخيف علق به واستفسر:

مَن منكما عاد والدة المرحوم خليل المنوفي مؤخرًا؟

لقد قضى خليل نحبه في ساحة جامع الأزهر حين دكتها قنابل الفرنساوية في أكتوبر الماضي، ومن يومها ورفاقه يتناوبون زيارة والدته في باب زويلة، وقضاء ما يلزمها من احتياجات، لأن خليل كان ابنها الوحيد.

- كنت عندها أمس، وأنا أزوِّدها بالمياه، وقد دعت بأن يحفظنا الله من غدر الكفار.

قال شلضم، ثم كمَن تذكر شيئًا:

- يا علي.. الست أم خليل توصيك بأن تُطلق اسم المرحوم ابنها على ابنك المقبل في الطريق إذا جاء ذكرًا.

بدون ترتيب قرأ الجميع الفاتحة ترحمًا على صديقهم الشهيد، وكانت زوجة علي على وشك وضع ابنهما الأول، ثم هبَّت نسمة قوية

fb/mashro3pdf

تنبئ الجالسين على مشارف الصحراء أن البرد هذه الليلة قد يكون قارسًا برغم أن الشهر فبراير، فحبك كل منهم كوفيته حول عنقه، وقال أيوب موجهًا كلامه لصديقيه:

- مَن منكما يستطيع مراقبة الملعون برطلمين؟ أنتما تعلمان أنه يقطن في بيت المملوك يحيى كاشف الكبير بحارة عابدين بعد أن استولى على كل ما فيه من أثاث فاخر ومتاع وعبيد وجوارٍ، إثر فرار المملوك مع الفارين.

تعجَّب الصديقان وأطلقت العيون أسئلة استفهام متتالية قبل أن تنطق الشفاه، لكن زعيم العُصبة أبان مقصده سريعًا بقوله:

- إذا استطعنا أن نعرف متى يخرج ومتى يعود هذا الزنديق إلى داره، وفي أي الحارات أو الأزقة يتجول بموكبه الشرير؛ أمكن لنا اختيار التوقيت المناسب لتنفيذ عملياتنا وقتل الفرنساوية.

تساءل علي:

- ماذا تقصد بالضبط؟ ثم إن هذا المجرم يمتلك حانوتًا يبيع فيه القوارير الزجاجية في الموسكي، فهل سنراقب هذا الحانوت أيضًا؟

- لا.. لا.. إنه أهمل هذا الحانوت منذ ترأس العسس، وقد كلَّف أحد أتباعه من الأروام بمباشرة العمل فيه.

fb/mashro3pdf

طأطأ علي رأسه قليلًا وقال متحيرًا دون أن ينظر في وجه أحدهما:

دعنا من فرط الرمان يا أيوب.. إنه رجل مخيف.. مغرم بقطع الرقاب. ألم ترَ طوله الفارع، وابتسامته المرعبة التي يجمد لها الدم في العروق، حتى زوجته طويلة جدًّا ومخيفة مثله. لقد مرَّ موكبه أمس أمام الفرن الذي أعمل به في قصر الشوق.. يا ساتر.. والله كاد زملائي في العمل يبولون على أنفسهم من منظره المريب الذي لا يُنسى. إنه يعتمر عمامة بيضاء ضخمة فتشتعل بشرته البرونزية بنار مكتومة، وكان يرتدي ثوبه اليوناني الموشى بالقصب وحزامًا أحمر في لون نار الفرن، وسراويل ضخمة، ومعطفًا تعلوه رمانتان مثل التي يضعها قادة العسكر الفرنساوية على أكتافهم.. بصراحة منظره كله مهيب ومروع، أما نظرته فتقتل ألفًا من المتمردين. لا.. لا يا أيوب.. انسَ فرط الرمان هذا!

بحدة رفض أيوب اقتراح علي وقال مشددًا على مخارج الحروف:

- لن نفلح في قتل أعداء الإسلام إلا وهذا البرطلمين نائم في داره لا يتجول بموكبه المرعب في الحواري والعطوف.

ضحك شلضم وقال صانعًا بيده حركة فاحشة لا تناسب المقام:

- نائم في داره، أو يضاجع امرأته أو إحدى جواريه!

لم يضحك أحد، فاعترى شلضم خجل، فانتصر عليه بسؤال سريع يفوح منه رائحة يأس:

أيوب.. هل تعتقد أننا نحن الثلاثة فقط قادرون على طرد الفرنساوية؟

fb/mashro3pdf

هبط السؤال كمطرقة نزلت فوق رأسيهما. ساد صمت للحظات، لكن علي وزَّع نظره بين رفيقيه وقال بتردد:

- إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين!

تململ شلضم في جلسته، وضبط طاقيته، ومدَّ ساقه عن آخرها حتى كادت تلمس طرف جلباب أيوب، وقال متحيرًا:

- إن الفرنساوية صاروا في كل مكان كالجراد، ومشايخ الأزهر يذهبون إلى قصر بونابرته في الأزبكية بانتظام ليقدموا بين يديه ولاء الطاعة، وقد هللوا وشكروه ووصفوه بالرجل الطيب حين أعلن العفو عن كل الذين شاركوا في ثورتنا، في حين أنني علمت أن جنوده قطعوا رؤوس العشرات من الذين ألقوا القبض عليهم بعد الثورة وسجنوهم في القلعة، ثم ألقوا جثثهم في النيل ليلًا حتى لا يدري أحد بجرائم بونابرته!

تهكم أيوب ساخرًا:

- يقتل معظمنا في الليل سرًّا ويصفح عن بعضنا في النهار علنًا.. إنه شيطان خبيث!

fb/mashro3pdf

ابتسم الصديقان من باب المجاملة، لكن أيوب تفكر مليًّا وتساءل باطنه: «هل سنستطيع طرد الفرنساوية حقًّا كما يقول شلضم؟ أليست المهمة شبه مستحيلة، ما دام رؤساؤنا من المشايخ وكبار التجار أنسوا لهم وتعاونوا معهم، وقبل الثورة لم يعترض كبار القوم منَّا على ما قرره

بونابرتـه مـن تنظيـم الاحتفالات بوفـاء النيـل والمولد النبوي الشـريف بالتزامـن مع احتفالات الفرنسـاوية بتأسيـس جمهوريتهم كمـا يقولون، وذهبـوا إلـى قصـر قنطرة السـد وكسـروا الجسـر حتـى جرى المـاء في الخليج، فأطلقت القنابل والمدافع وهلل الجميع، وقد رأيت الشيخ عبد الله الشـرقاوي ينحني ويفسح الطريق أمام بونابرته، فكرهته. وفي ساحة الأزبكية جلس شـيخ الأزهر والشـيخ البكري والسـادات بجوار سـاري عسكر وقادته يتضاحكون ويشربون ويأكلون ويستمعون إلى الموسيقى والأناشيد والتراتيل، فكيف يمكن لنا طردهم؟».

- ما بك اليوم يا أيوب.. لسـت على ما يرام!

اسـتردَّ وعيـه حين خرق أذنه سـؤال علي أبو حمص، فقـال وهو يهم بالوقوف منهيًا الجلسة:

- أبدًا.. فقد أُجهدت طوال اليوم في العمل.

ثم أضاف بحسم ناسفًا رأيه السابق:

- معكمـا حق.. دعكما من برطلمين، فالاقتـراب منه خطر فظيع، ولكن علينا توخي الحذر منه ومن رجاله في كل وقت.

ثم أضاف قبل أن ينصرفوا:

- أمـا ديـاب، فلنتواصل مع أسـرته بحذر حتى يسـترد حريته بـإذن الله، ولنتقصَّ أي معلومة عنه، وسـأخبر كل من الحـاج عبد المجيد العطار والحاج ما شاء الله شمس الواعظين بقصة القبض عليه عسى أن يفعلا

fb/mashro3pdf

شيئًا عند شيخ الأزهر؛ لأنهما من أصدقائه، وقد تكون كلمته مسموعة عند الفرنساوية أو برطلمين الملعون!

في طريق العودة، اتخذ شلضم سكة بين القصرين، في حين سار الصديقان معًا حتى باب الفتوح؛ إذ طلب علي بخجل من أيوب أن يُقرضه مائة بارة لأن زوجته على وشك الولادة وفي حاجة إلى مصاريف. على الفور دسَّ النساخ راحته في سيالته وأعطاه ما يريد بمودة بالغة، بعد أن عرض عليه المزيد. تهلل وجه الخباز وصاح:

- أشكرك جدًّا أخي الكريم.. وعقبال ما نفرح بزواجك وأبنائك!

ثم صافح صديقه وأسرع نحو بيته في حارة برجوان. ابتسم أيوب وتذكر حسنات وغنجها المدوّخ في الوقت الذي رنَّ في سمعه سؤال شلضم: «هل تظن أننا نحن الثلاثة فقط قادرون على طرد الفرنساوية؟».

* * *

fb/mashro3pdf

في بولاق

الذهول الذي انتاب أيوب السبع لم يكن بسبب آيات الثراء البادية في كل زاوية من زوايا الدار الفسيحة، بل يعود هذا الذهول إلى أن صاحب الدار أطلعه على ما يخطه يومًا بيوم منذ هبط الفرنساوية أرض مصر.

لقد استثمر أيوب اللقاء العابر الذي جمعه بالشيخ عبد الرحمن الجبرتي عند حارة الناصرية بالسيدة زينب السبت الماضي، واستأذنه في الزيارة، فرحب الرجل وعاتبه لأنه دعاه مرة من قبل حين اضطرته الحمير إلى الاختباء في دكانه العام الماضي، «لكنك لم تلبِّ الدعوة يا نسَّاخ». كما قال الجبرتي ضاحكًا.

امتطى أيوب حماره الأبيض، وانطلق من حارة المشهد الحسيني نحو الموسكي فالأزبكية محاذرًا الاقتراب من قصر محمد بك الألفي حيث يتواجد حرس بونابرته بكثافة. في الطريق تذكر كيف احتفى وأصدقاؤه ليلة أمس بالإفراج عن دياب ضاضو؛ إذ دعاهم إلى تناول الكوارع والفتة في مسمط رمضان الغلبان بالغورية، وقد قضوا سهرتهم بعد ذلك في مرح وطرب وسرور عندما جلسوا بعض الوقت في حانة الشيخ الأمين بجوار المسمط، فتجرع كل واحد منهم قرعتين قبل أن يتفرقوا، ومن

fb/mashro3pdf

عجب أنهم لم يفقدوا عقولهم لحظة، فنفذوا أوامر أيوب بعدم التحدث في شئون السياسة والفرنساوية على الإطلاق، لكن قبل أن يذهب علي أبو حمص إلى داره همس أيوب في أذنه قائلًا: «لا يوجد ما يمنع من أن يكون برطلمين الملعون قد خصص أحد رجاله الأوباش لمراقبة دياب؛ لذا آثرت أن نتصرف كأننا مجرد شباب يعشق الطعام ويهوى الخمر، ولا شأن لنا بأمور الكبار»، فسأله علي: «ألن تقدم الشكر لشيخ الأزهر والتجار الذين توسطوا في الإفراج سريعًا عن دياب؟!».

في الطريق إلى الجبرتي استقبل أيوب شمس الصباح بروح مغتبطة، فقد أنجز في اليومين الفائتين ثلاث مهمات جليلة، حيث طعن أول أمس جنديًا فرنسيًا مخمورًا كان خارجًا للتو من خمارة افتتحت مؤخرًا في باب الخلق، وأنهى نسخ كتاب «تفسير الجلالين» الذي طلبه منه الحاج ما شاء الله شمس الواعظين نظير مبلغ معتبر، والتقى حسنات في بيت الجن بعد أكثر من ثلاثة أسابيع قضتها طريحة الفراش إثر إصابتها بحمى مفاجئة.

قبل وصوله إلى بركة الأزبكية بأمتار قليلة استنشق أيوب عبق الأشجار والزهور من الحديقة المسوَّرة التي شيدها رجال الحملة على مشارف البركة من ناحية الغرب، فانتعشت خياشيمه. لاحظ بعض الفرنساوية وهم يشذبون الأشجار وينسقون الزهور ذات الألوان البهيجة، فتساءل مستغربًا: «كيف يعشق أولئك الناس الشجر والورد، ويكرهون الإنسان، فيطرودنه من بيته ويقتلونه؟». عندما وصل إلى شاطئ النيل قبل ميناء بولاق بقليل هبَّت رياح مفاجئة كادت تطيح بعمامته، فأوقف الحمار وأحكم لفها حول رأسه.

fb/mashro3pdf

استقبله رستم خادم الجبرتي على باب الدار وقاده نحو قاعة الاستقبال في الدور الثاني، بعد أن أمر جارية سوداء باصطحاب الحمار إلى الحظيرة الكبيرة ليشرب ويرعى. انتبه أيوب إلى خرير المياه المنبعثة من النافورة التي يراها الزائر فور دخوله وقد توسطت صحن الدار غير المسقوف، فأعجبه تصميمها. صعد السلاملك خلف رستم وهو يتأمل الثريات الضخمة والسجاجيد الفاخرة والتحف المنثورة في الزوايا والممرات. تعجب من عدد المخطوطات الموزعة في أماكن مختلفة. شاهد الحركة النشطة للجواري والعبيد في أرجاء الدار. أذهلته آنية صينية ضخمة ذات ألوان بهيجة تستقر في ركن قصي بقاعة الاستقبال. غمغم بصوتٍ غير مسموع: «لم أكن أتخيل أنك بكل هذا الثراء يا شيخ عبد الرحمن».

تلقاه الشيخ الجبرتي بابتسامة مشرقة أبانت أسنانه البيضاء، صافحه بحرارة وجلس متربعًا على شلتة محشوة بريش نعام على الأرض. لاحظ أيوب أن بدانة الشيخ لا تعوقه عن الجلوس براحته. أقبل ثلاثة عبيد سود يحملون صواني الفواكه والقهوة والحلبة، ووضعوها أمام الضيف الذي اتخذ مجلسه بجوار صاحب الدار، ثم انصرفوا بأدب، بعد أن تلقوا أمرًا من سيدهم بتجهيز طعام الغداء عقب صلاة الظهر مباشرة. بنظرة سريعة أيقن أيوب أن الشيخ يستخدم هذه القاعة لممارسة الكتابة، فالأوراق والأدوات والأحبار والقصبات كلها فوق طاولة خشبية بجوار النافذة التي تطل على النيل مباشرة. كما يوجد عدد من المخطوطات استقرت فوق خوان قريب.

fb/mashro3pdf

سأله أيوب، وهو يعرف الإجابة سلفًا:

- هل حقًّا تدوّن ما يحدث في مصر منذ دخلها الفرنساوية؟

ابتسم الجبرتي؛ لأنه يدرك أن الخبر وصل إلى أيوب عن طريق الحاج عبد المجيد العطار، الصديق الوفي للشيخ عبد الرحمن، والذي يوفر له الأعشاب التي تداوي العطب وتحفز الهمة، وقال وهو يمد يده نحو كومة من الأوراق:

- أجل.. إن ما حدث في مصر وما زال يحدث أمر لم نعرفه من قبل يستلزم منَّا أن ندونه لحظة بلحظة كما فعل أسلافنا ابن تغري بردي والمقريزي وابن إياس، حتى تعلم الأجيال القادمة تفاصيل المصيبة التي وقعت في بر مصر؛ ليتعظوا وينتبهوا ويتحوطوا، فلا يتورطون ولا يحبطون.

ثم أعطاه الأوراق طالبًا منه أن يقرأ. تفحص الضيف الأوراق بتركيز، فاندهش لأن الشيخ عبد الرحمن مزود بخط نسخ جميل إلى حد كبير، فراح يطالع بعينيه الورقة الأولى، لكن الجبرتي أمره - بلطفٍ - أن يتلو النصوص بصوتٍ عالٍ، فاستجاب أيوب وقرأ: «ذِكر دخول الفرنساوية الإسكندرية سنة ثلاث عشرة ومائتين وألف من الهجرة وهي أولى سني الملاحم العظيمة والحوادث الجسيمة والوقائع النازلة والنوازل الهائلة، وتضاعف الشرور وترادف الأمور، وتوالي المحن واختلاف الزمن، وانعكاس المطبوع وانقلاب الموضوع، وتتابع الأهوال واختلاف

fb/mashro3pdf

الأحوال، وفساد التدبير وحصول التدمير، وعموم الخراب وتواتر الأسباب، وما كان ربك ليهلك القرى بظلمٍ وأهلها مصلحون».

انتفض أيوب صائحًا:

والله العظيم الحق كله معك يا شيخنا.. إن الفرنساوية ما أتوا إلا بالخراب!

طأطأ الجبرتي رأسه، وهو يعبث بلحيته محاولًا مداراة الفخار الذي اعتراه بسبب التقريظ، وأشار له أن يكمل، فتلا أيوب بصوتٍ أعلى: «كانت العلماء عند توجه مراد بك تجتمع بالأزهر كل يوم ويقرأون البخاري وغيره من الدعوات، وكذلك مشايخ فقراء الأحمدية والرفاعية والبراهمة والقادرية والسعدية وغيرهم من الطوائف وأرباب الأشاير، ويعملون لهم مجالس بالأزهر، وكذلك أطفال المكاتب ويذكرون الاسم اللطيف وغيره من الأسماء، وفي يوم الاثنين حضر مراد بك إلى بر إنبابة، وشرع في عمل متاريس هناك ممتدة إلى بشتيل وفي يوم الثلاثاء نادوا بالنفير العام، وخروج الناس للمتاريس، وكرروا المناداة بذلك كل يوم، فأغلق الناس الدكاكين والأسواق وخرج الجميع لبر بولاق».

يا سلام يا شيخنا.. هذا عمل رائع جدًّا.. إنك تكتب ما حدث بالضبط حين علمنا بوصول الفرنساوية إلى الإسكندرية، وخروج مراد بك بعساكره لملاقاتهم.

fb/mashro3pdf

انتابت الجبرتي لحظات فخر، فاعتدل في جلسته، ومد ساقه إلى آخرها، وقال:

- إنك لم تقرأ ماذا فعل الأثرياء حين جاء الخبر الأسود، فقد حملوا أمتعتهم وكنوزهم ليخفوها في الريف ناحية المطرية قبل هروبهم من المدينة كما تعلم، لقد سجلت ذلك في أوراق لا أعرف أين ذهبت.. إن الجواري اللاتي أملكهن حفنة من الجاهلات يخرّبن أوراقي وحاجياتي وأشيائي وهن ينظفن المكان!

ثم استطرد بهدوء دون أن ينظر إليه، بينما أصابع يده اليمنى تغوص في لحيته عبثًا:

- لا بأس.. سأعيد تدوينها مرة أخرى.. أكمل يا بني.. أكمل.

لاحت من أيوب نظرة إعجاب إلى الرجل، فوجده غارقًا في البحث عن أوراقه الضائعة، وداهمته فكرة مزعجة حتى دهمته: «هل يمكن أن يعرف شيئًا عن عُصبتنا، ويكتب عنها. إنها مصيبة، فقد تعرضنا للقتل والإعدام إذا علم بونابرته ورجاله ويرطلمين بهذا الأمر». طرد خاطره حين لكزه الشيخ برفق صائحًا:

fb/mashro3pdf

- اقرأ يا بني.. تابع.. أنا أسمعك.

للمرة الأولى يشعر أيوب بارتباك مذ دخل عرين الجبرتي، لكنه تماسك وأكمل القراءة بصوت مشحون بنبرة ارتعاشة خفية: «وخرجت الفقراء وأرباب الأشاير بالطبول والزمور والأعلام وهم يضجون

ويصيحون ويذكرون بأذكار مختلفة، وصعد السيد عمر أفندي نقيب الأشراف إلى القلعة، فأنزل منها بيرقًا كبيرًا سمته العامة البيرق النبوي فنشره بين يديه من القلعة إلى بولاق، وحوله ألوف من العامة بالنبابيت والعصي يهللون ويكبرون ويكثرون من الصياح».

تناول الجبرتي بلحة والتهمها وهو يقول بأسى:

للأسف.. لا العصي ولا النبابيت ولا الأذكار والدعوات ولا الصياح أو النباح تنفع في مواجهة عسكر مدجج بأسلحة فتاكة وخطط مدروسة مثل عسكر الفرنسيس!

ثم أضاف حين لم يتلقَّ ردًّا من أيوب الذي اكتفى بهز رأسه موافقًا:

يا بني.. إن هؤلاء القوم يسبقوننا في العلوم والمعارف كثيرًا جدًّا، وقد قمت بزيارة المجمع العلمي الذي أسسوه في حارة الناصرية بعد ثورة الشعب في جمادى الأولى من العام الماضي، وكم كانت دهشتي عندما وجدت رجلًا من قومهم يدعى كونتيه قد استطاع أن يصنع آلات وأدوات هائلة مثل التي حطمها العامة في الثورة، ولم ييأسوا مما حدث، بل أعادوا صنعه. كما شاهدت في بيت إبراهيم كتخدا السناري رجالًا منهم يرسمون كل شيء.. الحيوانات والأسماك والطيور والأشجار والنباتات، كما رسموا شيوخنا وتجارنا ببراعة وإتقان.. كل ما يقع تحت بصرهم يرسمونه ويدوِّنون ملاحظات حوله.

لماذا؟

fb/mashro3pdf

- لا أدري، لكن العلم مفيد، والمعرفة نعمة يا بني، ويكفي ما صنعوه ليسمموا عدة آلاف من الكلاب المتوحشة والمسعورة التي كانت تعرض حياتنا للخطر كل لحظة. لقد قتلوها في ليلة واحدة.. كيف؟ لا أعلم؟ إنهم قوم من السحرة ورجال شياطين!

- ولكن..

- أعرف.. أعرف.. إنهم كفار.. لا تجري في عروقهم دماء حارة مثلنا نحن المسلمين، فلا غيرة لديهم على نسائهم، ولا يستحون أن تخرج المرأة عارية الرأس عندهم، وهذا أسوأ ما فيهم، كما أنهم يتناولون الخمور، فهي في دينهم ليست حرامًا. وأنت تعلم أن الخمر حرمها الله عز وجل. لقد فتنت مظاهر الخلاعة عندهم ضعاف النفوس عندنا، ورأينا الجواري والسفلة يحاولون تقليدهم في كل شيء، وحكى لي كثير من الأصدقاء أن بعض جواريهم السود قد افتتن بالوجوه البيضاء لجنود الإفرنج، فذهبن يطاردنهم ويعرضن أجسادهن عليهم بكل أسف.. خلاعة ومجون وفجور.. يا ساتر.. تابع يا أيوب.. اقرأ.

وراح الشاب يقرأ بتركيز أشد: «ولما أشيع ذلك في الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك، والبعض استسلم للقضاء، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا في ذلك، ووافقهم على ذلك بعض المتعممين الذي لم ينظر في عواقب الأمور، ولم يتفكر أنه في القبضة مأسور، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم، ولا قائد يقودهم، وأصبحوا يوم الأحد متحزبين، وعلى الجهاد عازمين، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح

fb/mashro3pdf

، الات الحرب والكفاح، وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية ، زعر الحارات البرانية، ولهم صياح عظيم وهول جسيم ويقولون بصياح في الكلام: نصر الله دين الإسلام..».

قاطعه الجبرتي مذكرًا إياه بالسبب الذي جعل الناس تثور في أكتوبر الماضي ضد الفرنساوية، حيث قال:

أنت تذكر طبعًا ما قرره الإفرنج من ضرائب على العقارات والأملاك، والمناشير التي ألصقوها بالمفارق والطرق ليعرف كل شخص المبلغ الذي يستوجب عليه دفعه للفرنساوية، هذه الضرائب التي أقرها الديوان هي سبب المصيبة التي حلّت بنا في ذلك الوقت.

ودون سابق إنذار تلقى أيوب السؤال الصدمة:

هل عندك علم أن ثمة عصبة تشكّلت في السر لقتل الفرنساوية؟

«غاص قلبي في صدري. ليتني ما جئت إلى هنا، وليتني ما انصعت إلى فضولي. المصيبة تقترب. ما لي أنا ومال الجبرتي. صحيح أنه يكرههم بحق، لكن مَن يضمن لي ألا يفشي السر، إنه شيطان.. حصيف.. ذكي.. يلتقط الشاردة والواردة، وقد تصادق معهم ودخل مجمعهم العلمي مع الداخلين. احفظني يا رب».

- أبدًا.. أبدًا.. لا علم لي بذلك!

قالها أيوب وباطنه يدعو الرحمن ألا يلحظ عبد الرحمن اضطرابه لا في صوته ولا في سحنته ولا في نظراته.

fb/mashro3pdf

بدرجة قليلة من الاكتراث قال الشيخ:

- لقد أسرَّ لي أحد معارفي بما أثار مخاوفي من أن هاتيك العصبة تقتل الفرنساوية خاصة حين يتحركون فرادى أو وهم خارجون سكارى من الخمارات والمقاهي التي انتشرت بكثافة في الأزبكية وباب الخلق وبركة الفيل وبولاق.

كرر أيوب باضطراب واضح وهو يدس رأسه في الأوراق:

- لا أعرف.. لا أعرف!

- حسنًا.. هل وصلك خبر الفتاة التي اختطفها جنديان فرنسيان فور دخول عسكرهم مصر السنة الماضية وحاولا الاعتداء عليها بالقرب من حيِّكم في الحسين عند المقابر والخرابة، فانقضَّ عليهما مجموعة من الشباب تواجدوا هناك بالمصادفة وأنقذوها وقتلوا الجنديين بالسكاكين في الحال. لقد قصَّت الفتاة هذه الواقعة المأساوية لأبيها، فوصلتني!

بحركة من رأسه نفى أيوب علمه بالواقعة بينما قلبه يخفق بعنف، فبادره الجبرتي راجيًا:

- على أية حال.. إذا علمت شيئًا حقيقيًا عن هذه العُصبة، وأكرر حقيقيًا، فأخبرني حتى أدوِّنه؛ لأنني لا أسجل شيئًا إلا إذا تيقنت منه تمامًا.

ومثلما انقضَّ الجبرتي بأسئلته المخيفة على رأس أيوب فجأة، انسلَّ خارجًا إلى مخطوطاته فجأة، حيث قال بتباهٍ ملحوظٍ وهو يناوله ورقة أخرى:

fb/mashrooa3pdf

طالع بيان ساري عسكر الذي أعلن فيه العفو عن الناس بعد الثورة، وما كتبته ردًا عليه.. طالع يا بني.. لا تتردد.

بحلقٍ جافٍ راح أيوب يقرأ وهو يقاوم رغبة جارفة في مغادرة هذا المكان، لكنه شكمها بعزيمة من حديد حتى لا يلحظ الشيخ النبيه أي شيء مغاير. تلا أيوب: «واعلموا أيضًا أنني أقدر على إظهار ما في نفس كل أحد منكم لأنني أعرف أحوال الشخص وما انطوى عليه بمجرد ما أراه، وإن كنت لا أتكلم ولا أنطق بالذي عنده، ولكن يأتي وقت ويوم يظهر لكم بالمعايشة أن كل ما فعلته وحكمت به فهو حكم إلهي لا يرد، وأن..»

قاطعه الجبرتي ساخرًا:

- إن بونابرته هذا مجنون.. يزعم أنه يوحى إليه.. ويظن أننا سذج، فجاء يبيع الوحي في حارة المؤمنين!

ثم صاح غاضبًا:

- هاتِ الأوراق.. هات.. سأتلو عليك ما كتبته ردًا على هذا المأفون.

وراح يقرأ بنفسه بصوتٍ عالٍ: «وقد أوردت ذلك المنشور وإن كان فيه بعض الطول للاطلاع على ما فيه من التمويهات على العقول، والتسلُّق على دعوى الخواص من البشر بفاسد التخيلات التي تنادي على بطلانها بديهة العقل فضلًا عن النظر».

fb/mashro3pdf

توقف الشيخ عن القراءة فجأة حين دلف ابنه من الباب، فصافح أيوب، وانحنى ليهمس في أذن أبيه بشيء. على الفور انتهز أيوب الفرصة ونهض واقفًا واستأذن في المغادرة، بحجة أن والدته متعبة اليوم.

عبثًا حاول الجبرتي إثناءه عن الانصراف دون جدوى، فصاح مناديًا رستم ليوصله إلى الباب طالبًا منه أن يعاود الزيارة مرة أخرى، فغمغم أيوب بالموافقة وهو يتجه صوب باب القاعة، فلما خرج وذابت خطواته على درجات السلم أشار الشيخ بإصبعه نحو الباب وقال لابنه:

- هذا الشاب يخفي سرًا عظيمًا يا بني!

* * *

fb/mashro3pdf

أيوب - حيرتي الدائمة

11 أكتوبر 1805

لم يعد باليد حيلة، فقد استقر الضابط الأرناؤوطي محمد علي على عرش مصر، وكل محاولاتي في اختيار رجل مصري ليتولى هذا المنصب ذهبت سدى، ورفاقي القدامى والجدد عجزوا عن تحريك الشعب ضد محمد علي. وأمس قال لي علي أبو حمص يائسًا: «الناس في مصر لا يهمها سوى أن يكون حاكمهم من المسلمين.. أتذكر يوم التفَّ حوله الناس في أغسطس عند ساحة الحسين يهتفون باسمه حين كان معنا الشيخ الجبرتي؟». وقبل أسبوع واساني الخواجة شارل قائلًا: «لا تحرق أعصابك يا أيوب.. الشعوب في حاجة إلى وقت طويل لتعرف أين مصلحتها بالضبط، فاصبر قليلًا».

معك حق يا خواجة، فالآلاف منا ما زالت أسيرة الجهل والأمية، ولا تعرف القراءة والكتابة، فأنَّى لها التفرقة بين شخص وآخر؟ وكيف تدرك أن الحاكم الناجح هو الذي نشأ وتربى في البلد الذي يحكمه، فيعرف لغته وأهله وناسه ومشكلاتهم وكيف يوازن بينهم، فينصف الفقير ويشكم الغني. ومحمد علي لم يرَ مصر إلا منذ أربع سنوات فقط

fb/mashro3pdf

وهو على مشارف الثلاثين، كما أنه لا يعرف شيئًا عن لغتنا، فكيف سيقيم العدل وينصر الضعفاء، حتى لو أتوا له بمائة ترجمان!

أخرجت الأوراق التي أعطاني إياها قبل أعوام الخواجة شارل، حيث خبأتها تحت السجادة التي تغطي الأرض في الزاوية القصية بدكاني. أعدت قراءتها من جديد. قال لي آنذاك إنها ملخص صغير لكتاب «العقد الاجتماعي» لمؤلف من الفرنساوية اسمه جان جاك روسو، وقد قام شارل نفسه بترجمتها إلى العربية ليتسنى لي قراءتها.

فجأة رأيت سعدية تقتحم الدكان بوجهها الصبوح. ابتسمت وتقدَّمت نحوي، وهمست: «هل تسمح لي بالذهاب إلى أمي؟». تعجبت. فلماذا لم تخبرني بذلك قبل أن أغادر البيت؟ قلت لها ضاحكًا: «أسمح يا مدام، ولكن لماذا لم تطلبي مني ذلك في الصباح؟». ابتسمت كعادتها كلما خاطبتها بالفرنسية، ودارت وجهها خجلًا، فلما اقتربت منها وضممتها في صدري، قالت دون أن تنظر في وجهي: «سنذهب إلى ست الدار الداية في خان الحمزاوي، لأني متعبة من الحمل». فهقهت وطبعت فوق جبينها قبلة وقلت لها: «ألف ألف سلامة عليكِ يا حبيبتي.. هانت. وإن شاء الله تقومين بالسلامة، هل آتي معك؟». قالت لي: «لا ضرورة.. فهذه أمور نسائية»، ثم ضاحكة: «أليس كذلك يا مسيو؟».

fb/mashro3pdf

للحظة شعرت أن هناك شبهًا ما بين سعدية وبين فرانسوا، فارتجف باطني، وشردت قليلًا غير آمن، ربما خشيت أن يصيب زوجتي مكروه. فلما غادرت سعدية الدكان، أعدت أوراق «العقد الاجتماعي» مكانها،

وأحضرت الأوراق والأحبار والقصبة وشرعت في نسخ كتاب «الفتوحات المكية» الذي طلبه مني تاجر من ينبع، لكن ما إن نسخت أول جملة، حتى سمعت صخبًا وضجيجًا في الحارة. نهضت مسرعًا لأستطلع الأمر، فرأيت موكب محمد علي يخترق الحارة متجهًا نحو ساحة الحسين، وقد أحاط به حراسه الأرناؤوط، وبعض العبيد السود. جاء ممتطيًا جواده ومضى يلقي قطعًا ذهبية وفضية على العامة التي تحيط به وتتبعه كظله، فيتنافسون على التقاطها ويدعون له بطول العمر.

تذكرت أنه فعل الأمر نفسه حين تم تعيين خورشيد باشا واليًا على مصر قبل أن يطيح به علماؤنا ومشايخنا وتجارنا بعد أسبوعين تقريبًا من حفل تنصيبه.. إذ خرج محمد علي من الدار التي أقيم فيها الحفل، وذهب إلى داره بالأزبكية، حيث راح يوزع طوال الطريق قطعًا من الذهب والفضة على الحشود الملتفة حوله، والتي صارت تدعو له وتشكر فضله. تذكرت كل ذلك، فغمغمت متحسرًا: «والله أنت ملعون يا بن الأرناؤوط.. تعرف جيدًا كيف تستغل بؤس فقراء المصريين بثمن بخس»!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

شارل - حنيني إلى الوطن

11 أكتوبر 1805

قرأت رسالة والدتي أكثر من مرة؛ لأبحث بين سطورها عن السر وراء إلحاحها في عودتي إلى باريس. إنها تقول إن صحتها جيدة، وكذلك أبي، فلماذا تلحين يا أمي؟ لقد تسلمت الرسالة صباح اليوم، جاءني بها مسيو شامير مع الألوان والقماش والجرائد والنبيذ كما هي العادة، وبرغم أني صرت لا أطيق هذا التاجر الجشع، لكني رحبت به، فهو الوحيد الذي يستجيب لكل ما أطلبه، ويأتيني به بسرعة عجيبة، وكأن المراكب والسفن تجري بأمره من بولاق إلى مرسيليا.

شرعت في الرد على رسالة والدتي وأنا لا أعرف متى سأعود إلى الوطن، فهناك أكثر من عشر لوحات مطلوبة مني لعدد من المماليك والتجار والقناصل الأوربيين، وقد أكدت لهم جميعًا أنني ملتزم بالانتهاء منها في الموعد الذي حددته، وتقاضيت دراهم كثيرة عند بداية الاتفاق كعرابين. هذا يعني أنني في حاجة إلى أكثر من ثلاثة أشهر لأنجز هذه اللوحات، وهكذا قررت أن أخبر أمي أنني سأعود إلى باريس مطلع مارس 1806 المقبل، رغم أني لا أعرف كيف أفسر لها عدم وجود أختي

fb/mashro3pdf

فرانسوا معي، فحتى الآن لم أقدر على إبلاغها بالمصيبة!

طلبت من سليم أن يأتيني بالنبيذ وبعض المقبّلات، فلم تكن بي حاجة إلى طعام، ومسعدة حجاب ستظل أسطورة في الحضور وفي الغياب، ومن عجب أنها تمتلك جرأة تفوق جرأة النساء الفرنسيات، فكيف امتلكت هذه المرأة المصرية كل هذا الذكاء الخارق لتحقق غريزتها؟ حقًا.. صدق مَن قال إن الحضارة تتجلى في السلوكيات الصغيرة، والملاحظات العابرة، والمصريون شعب يسير فوق حضارة عريقة كما يقول دينون. ترى أين هو الآن؟ وفي أي بلد يعيش؟ هل ما زال مفتونًا بنابليون فتبعه من بلد إلى بلد في حروبه التي لا تنقطع؟ هل ما زال يرسم كل ما تقع عليه عيناه؟ والكابتن مواريه.. هل ما زال يحتفظ بحماسته المخبولة العمياء لإمبراطور فرنسا؟ أم أنه اكتشف الآن المصير المعتم الذي يقود فيه نابليون وطننا الغالي بسبب أطماعه وهوسه ببلوغ المجد؟ وهل يتذكر زليمة أم أنها لحظة حلوة مرَّت وراحت؟ لقد كان يتحدث عنها وكأن فينوس بُعثت من جديد. وأنت أيها الملازم فرتراي.. ترى أين أنت الآن في هذا العالم الشاسع؟ وهل ما زلت ضابطًا في جيش الجمهورية الفرنساوية، أم أنك هجرت السلاح واحترفت الزراعة كما كنت تُقسم بأنك إذا عدت إلى فرنسا سالمًا، فلن تطلق رصاصة على أحد لأن الحرب «مجرد قتل الآلاف من البشر من أجل مجد شخص واحد فقط»؟!

وأيوب يتقدم في تعلم لغتنا بخطى حثيثة، وقبل يومين قال لي

fb/mashro3pdf

مداعبًا: «إن اللغة الفرنسية سهلة يا مسيو شارل»، وقد فاجأني حين قدَّم لي ترجمة معقولة جدًّا للفقرة التي كتبتها له بالفرنسية، ومن عجب أن خطه في الفرنسية جميل ومتناسق مثل خطه في العربية، لكني حذرته بجدية: «إن مهنة النساخ لا وجود لها في فرنسا، ولا مستقبل لها يا أيوب في مصر»، فلما أبدى انزعاجه بخليط من الدهشة والاستنكار، أخبرته بلهجة يقينية: «المطابع ستغزو بلدكم كما حدث في أورُبا كلها قبل ثلاثة قرون تقريبًا».

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

حديث الزير

- انتظرني أمام دار محمد بك أبو الدهب الليلة بعد العشاء!

قفز قلب شلضم السقاء حين تلقى الأمر همسًا من سيدة الدار. كان قد أفرغ قربته في الزير الكائن في الممر المؤدي إلى المطبخ في دار إيواظ بك. فجأة وقفت أشرف هانم قبالته، وألقت نظرة سريعة على الزير، ثم التفتت لترى إن كان أحد من العبيد أو الجواري قريبًا منها، فلما لم تجد أمرته أن ينهي عمله سريعًا، فانحنى احترامًا، تجاوزته وسدّدت له نظرة إغواء وهي تهمس بهذه العبارة التي جعلته يتلظى في نيران الفضول طيلة نهار بأكمله!

ذاب شلضم في الدروب والحواري والأزقة يتعجل مرور الوقت، ترك حماره أمام حوض الدواب في عطفة خوش قدم ليرعى ويشرب كما شاء، وأودع قربته عند عم خليل صانع الخلاخيل بحجة أنه سيزور قريبًا له أصابته حمى في المغربلين. كرر على مسامعه عبارتها ألف مرة، وهو غير مصدق، وتساءل باطنه: «ماذا تريد مني هذه المرأة؟ وهل يليق أن تتواعد سيدة دار وزوجة أمير مملوكي مع سقاء؟». قهر الوقت بالجلوس في مقهى افتتح مؤخرًا بالقرب من باب النصر، تأمل جنديين فرنسيين

fb/mashro3pdf

يتناولان القهوة في مدخل المقهى، فلم يستطع أن يمحو النظرة اللعوب التي رمته بها أشرف هانم عند الزير. وغمغم متعجبًا: «لماذا لم يقض عليكما الطاعون كما قتل زملاءً لكما في هذه الأيام؟». مع منتصف النهار اشتعلت شمس مارس فجأة، فشعر بأنها سلبت الهواء المتاح في الفضاء، فانقبض قلبه. قرر الذهاب إلى أيوب في دكانه، فقد يجد عنده إجابة للأسئلة المحيرة التي تلهب ذهنه. لكنه تراجع عندما وجد نفسه أمام الخمارة خلف القبو، فدخل وتناول قرعتين من البوظة دون أن يجلس، لكنه ابتسم وقهقه على أناشيد الفحش التي انطلقت من أفواه السكارى والندماء.

في طريقه اصطدم بجندي فرنسي يبتاع البيض والدجاج من امرأة افترشت الأرض أمام مسجد قلاوون، فبادر الجندي بالاعتذار بحركة من رأسه، فابتسم شلضم، وقال لنفسه ساخرًا: «لعل من قتلته الأسبوع الماضي شقيق لك أو صديقك أيها الجندي الكافر». ثم تساءل خاطره مغتاظًا وهو يرمق الجندي بنظرة حادة: «لماذا لم تذهب مع بونابرته إلى الشام ليقضي عليك الطاعون الذي دمَّر نصف جيشكم قبل أسابيع».

fb/mashro3pdf

تردد شلضم قليلًا قبل أن يقتحم دكان أيوب، وقف متسمرًا يجفف عرقه بكم جلبابه، لكن جلبة الأطفال في الحارة عكَّرت مزاجه، فدلف من الباب وهو ينوي أن يبوح له بحديث الزير في الصباح.

لم يمكث شلضم مع أيوب سوى دقيقة واحدة؛ إذ جاءه الحاج عبد المجيد العطار ليتفاوض معه على نسخ كتاب «تذكرة داود»، فانصرف

السقاء سعيدًا لأنه لم يُفشِ سر النظرة المغرية عند الزير. مع هبوب نسائم الأصيل، شعر بجوع فجأة، فاشترى بنصف درهم جبنة قديمة وحزمة جرجير ورغيفين من أول حانوت صادفه، لكنه عاف الطعام بعد أول قضمة، وقال لنفسه: «كيف يأكل مَن كان فريسة لقلق؟ وكيف لشاب على موعد مع أميرة أن يزدرد الجبن القديم؟».

عندما رُفع أذان المغرب من جامع الأزهر، همَّ بالدخول وأداء الصلاة لكنه تردد وتراجع خشية أن تأتي السيدة في تلك اللحظة فلا تجده، ثم اندفع سريعًا داخل الجامع قاصدًا «الميضة» كي يغتسل ويمسح عن وجهه تراب وعرق يوم بأكمله، وخرج سريعًا تنتابه نشوة نظافة وهو يردد بصمت: «لا يصح أن تلقى أميرة وأنت غارق في الوحل والعرق». أوقفه سنقر العبيط على باب الجامع طالبًا نصف فضة، فطيب خاطره بكلمة ولم يعطه شيئًا وهرع نحو المكان المأمول. عاتب نفسه متسائلًا ومتعجبًا: «ما لك يا شلضم.. هذه عاشر مرة تحوم حول بيت محمد بك أبو الدهب في ساعتين، وأشرف هانم لن تظهر، إذا ظهرت أصلًا، إلا بعد العشاء كما قالت».

للحظة أصيب بدوار؛ إذ فوجئ بالمرأة التي انتظرها يومًا بأكمله، تلكزه في ظهره وتهمس: «اتبعني»، من أين جاءت؟ لا يدري، وهو الذي دار حول نفسه كل لحظة مسددًا نظراته في عيون العابرين والعابرات كي يلمحها بلا جدوى، وفجأة رآها بعد أن لكزته، وقد أخفت وجهها وجسدها في ثوب أسود مثل بعض الفلاحات. سار كالمنوَّم وراءها،

fb/mashro3pdf

مرقت من خلف جامع الأزهر، وتسللت كأفعى بين الأزقة والعطوف، تستقبل نسمات متتالية باردة نسبيًا، حتى وصلت إلى دار صغيرة تقع في نهاية حارة مسدودة قريبًا من بيت زينب خاتون. فتحت الباب بالمفتاح ودخلت مسرعة وسط عتمة شديدة فانسل شلضم وراءها.

«هذه داري الخاصة التي أستقبل فيها أحبائي المخلصين»، بعد هذه العبارة توقف الكلام، وعزف الجنس موسيقاه الصاخبة الجنونية، وذاق شلضم لذة المرأة الثرية البيضاء المكتظة قليلًا، بعد أن كان يلوذ بأحضان الداعرات القبيحات والسوداوات ليتخفَّف من حمولات جسده. كانت تكبره بعشرين سنة، ومع ذلك لم تشعر أن الشاب الذي معها في مثل عمر ابنها لو حظيت بنعمة الأمومة، بل كأنه رجل حياتها الحقيقي الذي لم تستقبله في حضنها إلا الليلة، وشعرت كم هو فحل قادر على فعل الأفاعيل. ومع الكر والفر انهدت قواها لدقائق، ثم استعادت عافيتها ونهضت، ورمقته بنظرات مترعة بامتنان عظيم!

سألته كثيرًا عن أسرته وأهله، فأخبرها أنه مجرد سقاء فقير يقطن مع أمه وأخيه الأصغر في كوخ خلف القبو، مات أبوه السقاء قبل أعوام تاركًا له حمارًا يحمل عليه قرب الماء. أنصتت باهتمام، ثم قبّلته كثيرًا في فمه وأنفه وعنقه. تركته عاريًا للحظات، ثم عادت حاملة صينية نحاسية رُصَّ فوقها البط والحمام واللحم والأرز والطماطم والفلفل والخيار، فازدرد الطعام الطيب بنهم شديد، وأخذت أشرف هانم تمزق اللحم وتضعه في فمه، وبعد أن قارب الشبع سألها وهو يمسح فمه ببطن راحته: «مَن أعدَّ

fb/mashro3pdf

هـذا الطعام؟ ومتى؟ ومَن جـاء به إلى هنا؟». فهقهـت بخلاعة، فتعجب شلضم واستسلم لمقارنة عابرة بين أشرف هانم المرأة الحديدية الطاغية، التـي تأمر وتصفع وتُطاع، وبين هذه الأنثى الطرية الناعمة التي لا تخجل أن تضحك بمجون، فيهتز نهداها العاريان مثل ثمرتي شمَّام!

للمرة الأولى التي يشـعر فيها السقاء أنه سيد وصاحب دار؛ إذ فوجئ فـور التهام الطعام بأشـرف هانـم قد دخلت حاملة إبريق الماء والطسـت النحاسـي الصغيـر وصابونة ناعمة ذات رائحة جميلـة. انحنت لتصبَّ له الماء فغسـل يديه شـاعرًا أنه يعبر في حلم ضبابـي، وأن الهانم الجليلة ما هي إلا جنية لاحت فجأة وستختفي في الحال.

مع تسـلل أذان الفجر عبر نوافذ وفتحات الدار الفسيحة، كان شـلضم السـقاء قد انهدت قواه، فاستسـلم لنومٍ عميقٍ مباغتٍ، في حين التصقت به أشرف هانم، وقد أراحت فخذها فوق جسده ودست رأسها في صدره وحوطتـه بذراعهـا الأيسـر كمَن يقبـض على فريسـة. مع اختراق أشـعة الشـمس للـدار أفاقـت المرأة الشـبقة، فقبلـت رجلها الغارق فـي النوم، ونهضت بحركة سريعة لا تناسب عمرها واكتظاظ جسـمها، وبخفة شديدة أشـعلت الكانون في المطبخ وأعدت صحنًـا كبيرًا من البيض المقلي مع جرجيـر وكرَّات وخيـار وجبن أبيض وزبدة وعسـل نحـل وخبز، وأتت بكل ذلك إلى غرفة السـعادة، فتأملت النائم بجسـده العـاري، وانكفأت فوقه تقبله، وكان ما كان!

fb/mashro3pdf

بعـد الطعام، وفي أثناء تناول القهوة، لاحظ شـلضـم أنه بات ليلته في بيـت فخم تتجلى فيه آيات الثـراء الفاحش. فرش ناعـم، وثريات باهرة، وستائر ملونة وأوانٍ، ونوافذ، ومشربيات، فابتسم باطنه: «بلغت العشرين يـا شـلضم ولـم تنم مرة فـي بيت مثل هذا». همَّ أن يسـألها لمـاذا اختارته تحديدًا لينال الحظوة، لكنه خشي أن تغضب، فرمقها بنظرة عميقة، فتلقى نظرة أعمق يختلط فيها الحنان بالريبة. وفجأة تقمصـت أشرف هانم حالة المـرأة المتسـلطة، وهتفت: «فـي الداخل.. يوجد حمام به ماء سـاخن.. استحم سريعًا لتنصرف».

للحظـة شـعر بغيظٍ شـديدٍ وظن أنهـا تتعجل مغادرته لتسـتقبل رجلًا آخر، فاسـتعرت في وجدانه نيران غيرة مزيفة، وكاد يسـألها: «متى نلتقي مـرة أخـرى؟»، لكنـه تراجع خوفًـا من غضبهـا المتوقع. عند بـاب الدار احتضنتـه ومنحتـه قبلة عميقـة طويلة اتقدت لها جميع حواسـه، فمد يده اليمنـى لأسـفل قميصهـا محاولًا رفعـه وإيقاظ نمر الشـهوة مـن جديد، فأبعدتها بحسـم، ودفعته برفق بعيدًا عنهـا، وناولته صُرة من الدراهم، ثم سـددت في وجهه سـبابتها مهددة: «لو عرف أي إنسـان بما حدث بيننا.. سـأقتلك!».

* * *

fb/mashro3pdf

في بيت المواطن الطيب فولمار

فوجئ الخواجة شارل بطرقات سريعة وقوية على الباب، فلما فتح خادمه سليم تناهى إليه صوت الكابتن مواريه صائحًا:

هيا يا صديقي الفنان.. ارتدِ ملابسك سريعًا.

لم يكن الكابتن بمفرده، بل اصطحب معه الملازم فرتراي الذي تكدست في عينيه الهموم. تحرج شارل وتردد في الاعتذار؛ إذ كان منهمكًا منذ الصباح في رسم لوحة متوسطة الحجم لحمَّام شعبي خاص بالنساء طلبها منه ضابط فرنسي زاره الأسبوع الماضي، مشترطًا أن ينجزها خلال عشرة أيام كحد أقصى نظرًا لأنه عائد إلى فرنسا، بعد أن قدم طلبًا بإعفائه من الخدمة إثر إصابته برمد أثر كثيرًا على سلامة نظره. انهمك شارل في العمل مستعينًا بخياله ووصف شقيقة خادمه سليم لمحتويات الحمام وشكله من الداخل، وقد تمنى لو ينتهي من تلك اللوحة العويصة كما تمنى هذه الليلة. لكن إصرار الكابتن مواريه على أن يحضر معهما افتتاح محل «فولمار» في ميدان بركة الفيل جعله يترك الحمَّام بنسائه العاريات ويستجيب للدعوة!

المسافة بعيدة نسبيًّا، لكن الطقس رائع، فلا داعي لركوب الخيل.

fb/mashro3pdf

هكذا نصحهما شارل، وهو يرنو إلى القبعة العجيبة التي يضعها الكابتن مواريه فوق رأسه، وكاد يسأله من أين أتى بها؟ لكنه تراجع وأمر خادمه بأن يودع الدواب في الإسطبل مع فرسيه، وأن يجهز لها التبن والبرسيم والماء. سار الرفاق الثلاثة في اتجاه الغورية، ثم انعطفوا يمينًا من عند باب زويلة حتى وصلوا إلى درب الجماميز. في الطريق صاح الكابتن مواريه مزهوًا:

- قريبًا.. سنحول القاهرة إلى قطعة من باريس.

ثم وقف فجأة عند الساحة الممتدة أمام الخليج المصري قريبًا من مقام السيدة زينب، وأشار بسبابته إلى محل افتتح مؤخرًا في الجهة المقابلة لبيع التبغ الفرنسي، وصاح:

- انظرا إلى هذا المحل هناك.. إن المسلمين يقبلون على التبغ الفرنسي مع مواطنينا.. انظرا.. أرأيتما الزحام؟

ثم خلع قبعته وأظهرها لهما هاتفًا:

- تأملا.. إنها قبعة فرنسية مائة بالمائة.. رائعة.. اشتريتها من المصنع الذي أنشئ حديثًا لصنع القبعات خلف مكتب البريد عند بركة الأزبكية.

fb/mashro3pdf

ثم بنبرة محشوة بفخر زائد:

- ألم أقل لكما.. سنجعل القاهرة قطعة من باريس.

وأضاف سريعًا وهو يعاين الساحة والتلال التي خلفها:

- لقد أخبرني عالمنا الجليل مونج أنه إذا استطعنا جلب عشرين ألف أسرة فرنسية ليستوطنوا هنا فيلقنوا المصريين الجهلة المتخلفين

مبادئ العلوم والآداب والفنون فستصبح مصر في ظرف خمس سنوات أجمل مستعمراتنا على الإطلاق، فالمصريون، برغم بؤسهم، يتمتعون بذكاء خاص يجعلهم يستجيبون سريعًا لما فيه مصلحتهم. وقد أكد لي مونج أنه ناقش هذا الأمر مع قائدنا العظيم، كما أرسل لزوجته خطابًا يحمل رأيه هذا.

رمقه فرتراي بنظرة ارتياب وتساءل: «هل يصدق الكابتن نفسه؟ أم يسعى لأن نحتسي شاكرين خمر الخديعة البونابرتية؟»، أما شارل، فتأمل القبعة مليًا وأومأ برأسه موافقًا على كونها قبعة بديعة، ثم قادهما نحو بركة الفيل وقال معترضًا بلغة هادئة:

من الصعب يا كابتن، إن لم يكن من المستحيل، أن تمحو خصال شعب وتغيِّر سمة مدينة في ظرف خمس سنوات، ولا حتى قرن من الزمان!

امتعض مواريه وأخرج من جيب سترته جريدة «بريد مصر» التي نصدرها الحملة لتوزع على جنودها ورجالها، وقال بأداء الواثق وهو ينفر الجريدة بيده عدة مرات منبهًا:

حين نجلس في محل «فولمار» سأتلو عليك الإعلانات المنشورة هنا لتتأكد مما أقول.

بدت السماء أكثر صفاءً في هذا الوقت من يونيو، وراح نور الشمس يسيل تدريجيًا على جدران البيوت والمساجد والأسبلة والأشجار في مشهد فاتن أسلم الخواجة شارل إلى الشعور بالندم لأنه لم يحمل أدوات

fb/mashro3pdf

الرسم معه، وأخذت نسائم الليل تهب بخجل قبل قدوم المساء بأكثر من نصف ساعة، وعندما وصلوا أخيرًا إلى ميدان بركة الفيل، كانت الشمس قد أعلنت استقالتها من السماء هذا النهار، وقد فوجئوا بزحام شديد أمام مقر السيد فولمار؛ إذ احتشد جمع غفير من الجنود والضباط الفرنساوية، وبعضهم اصطحب معه امرأته، كما حضر عدد لا بأس به من المصريين والمغاربة المسلمين الراغبين في دخول المحل أو الذين أشعل فضولهم هذا الجمع الفرنسي، فراحوا يتأملون النساء الفرنسيات حاسرات الوجوه باستغراب وذهول، وتواقح بعض الغوغاء وراحوا يصفون هؤلاء الحاضرات بالألفاظ الفاحشة.

ضحك الملازم فرتراي ساخرًا وهمس في أذن شارل:

- يبدو أن ما يقوله الكابتن صحيح.. هل هذا ميدان بركة الفيل بالقاهرة أم شارع شانترين بباريس؟

ثم استطرد ساخرًا:

- آسف.. آسف.. ليس شارع شانترين.. فقد غيروا اسمه إلى شارع النصر، بعد أن عاد بونابرت من إيطاليا منتصرًا قبل عامين.

fb/mashro3pdf

بصعوبة وجد الرفاق منضدة شاغرة، وقد رحب بهم فولمار صاحب المحل ترحيبًا كبيرًا، فقد كان على معرفة سابقة بالكابتن مواريه، حيث تبادلا الحديث كثيرًا طوال مدة سفرهم من مالطة إلى الإسكندرية فوق سطح البارجة.

بنظرة سريعة لاحظ شارل أن المحل هو جزء من سكن فولمار الذي يبدو أنه بيت أحد المماليك الهاربين وقد تحصل عليه التاجر الفرنسي الذكي بطريقة ما؛ إذ قسمه إلى جزأين: الأيمن خصَّصه للمعيشة، والأيسر أعده ليصبح حانوتًا لبيع الخمور والعطور والتبغ والمخبوزات الفرنسية، وقد صمم فولمار مقدمة الحانوت ليصبح مكانًا لجلوس عدد من عازفي الكمان والبيانو، ولاستيعاب مَن يريد الرقص من الزبائن. كما لاحظ شارل وجود عدد من المسلمين يجلسون على بعض المناضد ويشربون الخمر ويتضاحكون وبصحبتهم ثلاث جوارٍ، واحدة منهن سوداء، فعاينهن متفحصًا وجوههن بتركيز، لكن الكابتن مواريه لم يتركه يتأمل بهدوء، حيث استردَّه من انشغاله مؤكدًا:

ألم أقل لك.. إننا الآن في بار باريس.. وها هم المسلمون المصريون الأذكياء يقلدوننا ويشاركون أهلنا الفرنسيين طعامنا وشرابنا.. ويمارسون التهتك مع النساء.

ثم أخرج جريدة «بريد مصر» وشرع يقرأ بصوتٍ عالٍ:

- يا شارل.. هذه بعض الإعلانات في عدد اليوم لتدرك صحة ما أقول: (في بيت المواطن الطيب فولمار يوجد مصنع للمشروبات والخمور بجميع أنواعها، والطافية والمشروبات الكحولية وغيرها من السلع الأوروبية الطراز)، وهذا إعلان آخر: (المواطنان فور ونازو وشركاؤهما يصنعون جميع أنواع المشروبات في ميدان بركة الفيل قرب المستشفى رقم 2 بأسعار معتدلة)، وإعلان ثالث: (تبغ فرنسي

fb/mashro3pdf

مـن جميـع الأنواع مصنوع في بيت محمد كاشـف في شـارع بيي توار أمام المطعم الميلاني).

أسكته الملازم فرتراي بإشارة من يده قائلًا:

- كفى يا كابتن.. كفى.. لقد علمنا، لكن هذا الصخب الفرنسـي لا يعني سوى شيء واحد فقط هو أن الـ...

في تلك اللحظة أحضر الجرسـون زجاجة نبيـذ كبيرة وثلاثة كؤوس وبعـض المقبـلات، وطلب مواريه من الجرسـون أن يوافيـه بأفخر أنواع التبغ ليدخنه، ثم التفت إلى فرتراي سائلًا بتهكم لم يخفه:

- ما هو هذا الشيء يا حضرة الملازم؟

بنبرة ملؤها بؤس العالم كله قال فرتراي:

- إن نابليون يريد لنا أن ننسى أصدقاءنا ورفاقنا الذين ماتوا في يافا وعكا، ويظن أنه حين يسمح بافتتاح بعض المحلات والحوانيت الفرنسية هنا فـي القاهرة أننا سـنغفر له أخطـاءه وجنونه في حق الذيـن ماتوا أبطالًا بسبب طموحه وغبائه!

fb/mashro3pdf

قـذف الكابتن مواريه أول كأس في جوفه دفعـة واحدة، وضيق عينيه وقطب جبينه غضبًا، لكن قبل أن ينبس واصل فرتراي هجومه وتذمره:

- لقـد حاصـر بونابـرت عكا طـوال شـهرين بلا فائـدة، برغـم أنه خرج مـن القاهـرة علـى رأس جيش مكون من ثلاثة عشـر ألـف مقاتل، غير مئـات الموظفيـن المصريين والعـرب والأجانب الذيـن عملوا خدامًا

ومترجمين وعمالًا وأدلاء، علاوة على زوجات الضباط وخليلاتهم والجواري البيضاوات والسوداوات اللاتي استلبناهن من بيوت الأمراء الفارين، فماذا فعل بكل هؤلاء جنرالكم العظيم؟ أو كما يصفه القائد كليبر ساخرًا عن حق «بطل الحملة»؟! لا شيء.. تعرف لماذا يا كابتن؟ لأن أحمد باشا الجزار حاكم عكا رجل ذكي.. عنيد.. فهو من البوسنة كما تعرفان، وقد خبر العرب حين كان ضمن مماليك علي بك الكبير، وظل يتآمر ويتحالف ويعادي ويتصيد الفرص حتى ظفر في النهاية بعكا ليحكمها، ولن يتركها أبدًا.

ثم بنبرة يبرهن بها على صحة كلامه:

لذا تحالف مع الأتراك والإنجليز الذين ساعدوه وأمدوه بالمدافع والذخيرة والمؤن، بينما بونابرت ترك الطاعون يحصد أرواح جنوده بشراهة حتى فقدنا أكثر من ألف وخمسمائة من أخلص رجالنا في أقل من خمسين يومًا، بمن فيهم ترجمانه الخاص فنتور، ثم إننا كنا محرومين من أية إمدادات؛ فالأسطول الإنجليزي يحتل ميناء الإسكندرية، ويعمل على..

انبعثت الموسيقى فجأة فماتت الحروف على لسان الملازم الساخط، سكت اللغط وتحولت الرؤوس نحو امرأتين وثلاثة رجال يعزفون على آلات الكمان، وراح شارل يتابع منبهرًا ما يراه على الخشبة الصغيرة التي أعدت كمسرح، وتساءل خاطره: «أظن أن هذه أول مرة تعزف فيها موسيقى أورُبية في القاهرة، فهل يمكن أن ننجح في تعليم المصريين

fb/mashro3pdf

أصـول الموسـيقى الحديثة وفنونهـا؟»، لكن الكابتن مواريـه صاح بنبرة عالية ليتجاوز صوت الموسيقى:

- يـا فرتراي.. إن لـم يذهب بونابرت ليواجه الجـزار.. كان هذا المجرم سيأتي بجيوشه إلى هنا في القاهرة، مدعومًا بأعداء جمهوريتنا الإنجليز والسـلطان العثمانـي، وربما قيصر روسـيا، كما لا يمكن أن تنسـى أننا حققنا نجاحًا باهرًا حين استولينا على يافا، وأننا..

- وأننـا قتلنـا أربعة آلاف من أسراهم.. أكمل يا كابتـن مواريه.. أكمل.. برغـم وعـود نابليـون بالحفـاظ علـى أرواح الأسـرى فـي يافـا عنـد استسلامهم.. أليـس كذلك؟

- لا.. لا.. كانوا ألفين فقط..

ثم أكمل مواريه وهو يتابع تدخين التبغ بتلذُّذ:

- ماذا تفعل مع أسرى همج وأنت في مهمة حربية جليلة؟

هـبَّ فرتراي واقفًا فجأة، وهمَّ بالتوجه نحو منضدة قصية هربت منها ضحكة أنثوية عالية، لكنه تساءل بصوتٍ سمعه صديقاه جيدًا:

- أليست هذه مدام بولين خليلة بونابرت وزوجة الملازم فوريه؟

قهقه الكابتن مواريه وقال شارحًا ما غمض على نديمه:

- انتهى منها بونابرت وهجرها بعد أن تلذذ بها.. لقد أعطاها شـهرين من غرامه الملتهب، وهذا يكفي؛ لأن القائد العسـكري الكفء لا يصح له أن ينغمس في المسرات النسائية طويلًا!

fb/mashro3pdf

ثم بلكنة تقطر مديحًا:

إن بونابرت قائد متفرد وحصيف، لم يشأ أن يصطحبها معه حين ذهب جيشنا العظيم إلى سوريا، فهو كعادته دومًا لا يصطحب أية امرأة في حملاته الحربية، بعكس كثير من قواده ورجاله الذين لا يطيقون العيش بدون زوجاتهم أو خليلاتهم، فاصطحبوهن معهم.

بصوتٍ لا يكاد يُسمع تساءل فرتراي وهو ما زال يحدق في العشيقة السابقة لقائده:

وماذا تفعل الآن؟ وما موقف زوجها؟ هل عاد من مهمته المفتعلة؟

أظن أنها طلبت الانفصال خوفًا من ردِّ فعل المسكين فوريه، وقد أُجيبت إلى طلبها فيما أظن، وهي تعيش هنا في القاهرة كما يحلو لها!

عاد فرتراي إلى مجلسه وهو يغمغم بعبارات غير مفهومة، لكن شارل سأل متلهفًا:

هل تعرفانها جيدًا؟ أريد أن أرسمها، فملامحها رقيقة ومثيرة جدًا لي.

ثم أشعله حماس مفاجئ وانتفض واقفًا داعيًا صديقيه إلى مرافقته للتحدث مع مدام بولين، لكنهما لم يستجيبا إلى طلبه؛ إذ حلَّ الصمت فجأة على الجميع، وسكنت الموسيقى، وتوقف الرقص، واشرأبت الرؤوس نحو مدخل المحل، بعد أن هرع فولمار نحو الباب صائحًا:

fb/mashro3pdf

- الجنرال العظيم بونابرت.. مرحبًا يا قائدنا الكبير في حانوتي المتواضع!

ودخل نابليون بملابسه العسكرية البهية..محاطًا بأركان جيشه وقواده وحراسه.. رافعًا يده اليمنى لتحية الحضور.. موزعًا ابتسامته بالتساوي على الجالسين، لكنه لم ينتبه أبدًا إلى النظرة الحاقدة التي رمقته بها مدام بولين!

* * *

fb/mashro3pdf

الجريحان

«ما العمل؟ الليل سقط، والظلمة تفشَّت، والرعب تمدد، والأمان سخر، والعفاريت تنتظر في أماكن متفرقة من هذا البيت لتنقض وتفترس.. اسني ما طاوعتك يا أيوب، ليتني عدت إلى بيتي قبل أن يحاصرني الليل والجن.. يا للمصيبة.. لقد مرَّ أكثر من ساعتين، والطعام باخ وبرد.. ما الذي جعلني أسمع كلامه وأوافق على المجيء إلى هذا البيت الملعون بمفردي؟».

ارتجفت أطراف حسنات وهي مكوَّمة في زاوية قصية من زوايا البيت المهجور. يسيل منها عرق غزير، فليل أغسطس قاسٍ هذا المساء، وحرارة الشمس استقرت في جدران المنزل منذ الصباح ولم تبرحها. وضعت أمامها برام الأرز واللحم، ولم يأتِ الحبيب. جففت دموعها وعضت أصابع الندم، وأيوب غائب في المجهول. سلبها الخوف القدرة على الوقوف، لكنها قرأت الفاتحة وآية الكرسي واتكأت على عزيمتها، ونهضت. أطلت من باب البيت فصفعتها ظلمة مخيفة، ونسمة خجول. رنت إلى السماء، فلم تلحظ سوى نجمة شاردة والباقيات محتجبات خلف سحابات متوترة تذهب وتجيء. ضيقت عينيها ونظرت صوب

fb/mashro3pdf

المدينة فتلقت عيناها أشعة شاحبة قادمة من بؤر غير معروفة المصدر، فخفق قلبها بشدة وتأوهت من فرط الرعب. وقبل يومين قرصها أيوب برفق في فخذها وهو يناولها قدح الشاي الفارغ هامسًا: «أوحشتني يا بيضة.. منذ عشرة أيام لم نلتقِ». ارتعشت أعطافها ورقص قلبها؛ فقد كانت في حاجة إلى ارتواء، واليوم، قال لها بعد أن أغلق دكانه قبل العصر: «انتظريني في الخرابة.. سأكون عندك قبل أذان المغرب».

كانت تثق بأنه لن يحتمل الحرمان أكثر من ذلك وسيدعوها لتطفئ نيرانه المتقدة اليوم، فعيناه، حين قرصها، تبرقان بشبق تدركه جيدًا؛ لذا استحمت في الصباح الباكر قبل أن تخرج لعملها، ونظفت نفسها جيدًا، وأزالت الشعر الزائد، وأعدت برام أرز باللحم، ليتناولاه معًا، وساقتها الشهوة إلى مأوى العفاريت قبل أذان المغرب بساعة. وبرغم توجسها من المكان، إلا أن تكرار الزيارة وضوء النهار غرسا في صدرها زهرة اطمئنان وأزالا عنها قدرًا كبيرًا من الخوف.

عادت لمجلسها ملتصقة بالجدار مسترشدة بخبرتها بالمكان في قياس المسافات وتحديدها، لكن قدمها اليمنى ارتطمت ببرام الأرز فأحدثت صوتًا جعلها تصرخ هلعًا، ورددت جدران البيت المهجور صدى الصراخ فاعترتها رعشة مصحوبة ببكاء حاد. جلست القرفصاء وأغمضت عينيها ووضعت رأسها بين ركبتيها حتى لا ترى العفاريت. «وإذا أرادوا تقطيعي والتهامي فليفعلوا دون أن أرى وجوههم، فالعمر واحد والرب واحد».

fb/mashro3pdf

لا تعرف حسنات هل تاهت في وادي الغفوة، أم استراحت على شاطئ النوم، أم طمأنتها أحلام مزورة أخبرتها أن أيوب عاد وأنه يحتضنها الآن؛ إذ فوجئت بيد تطوقها وتهزها برفق وصوت يدعوها للتيقظ، لكن الصوت مبحوح ومتوجع. أفاقت المرأة المذعورة فإذا بنور شمعة يشع في المكان، وإذا بوجه أيوب يلوح بقسماته المريحة في بيت العفاريت. شهقت حسنات، ألقت بجسدها في حضنه وشرعت تضربه بكفيها في صدره وهي تسبه وتعاتبه هاتفة: «لماذا تأخرت؟ لماذا تركتني مع العفاريت؟»، لكنه بدا خائر القوى غير قادر على ضمها. ابتعدت عنه، قلقت.. عاينته جيدًا، ثم صرخت حين لمحت خيطًا من دم يسيل من كتفه اليسرى وصرخت: «ماذا جرى لك؟».

لم يقل الحقيقة، واكتفى بأن أوضح لها أنه تشاجر عند الخرنفش مع رجل مالطي حاول سرقته بالقوة، لم تشك في صدق أقواله، ونزعت منديل رأسها، ومزقته إلى نصفين وطفقت تمسح الدم النازف من كتفه، مستعينة بمياه البلاص التي أحضراها منذ صار مأوى العفاريت بيت الغرام الملتهب ليغتسلا بعد كل لقاء.

قبل أن تربط مكان الجرح جيدًا أخرج أيوب من جيب جلبابه قرطاس بُن طالبًا منها أن تضع البن على الجرح برفق ليتوقف النزيف، فانفرجت أساريرها للمرة الأولى وصاحت: «الجرح بسيط.. ولكن من أين جئت بالبن؟». لم يعلق، بل ضمها في صدره برفق وقبّل جبينها، فما كان منها إلا أن أحاطت رأسه براحتيها وانهالت عليه تقبيلًا في كل جزء من وجهه.

fb/mashro3pdf

حين هدأت أنفاسه، أطعمته بيديها اللحم والأرز، فأكل بنهم، ثم أحضرت الطست النحاسي الصغير والصابونة والإبريق وغسلت له يديه وفمه. وبعد أن اغتسلت، نزعت جلبابها وملابسها الداخلية، في غرفة أخرى، ضاربة بالعفاريت عرض الحائط، ثم خطرت أمامه عارية ملهوفة. عاين جسدها بقلب ينبض وشرايين متوثبة، وطلب منها أن تجلس بجواره.

لم تشأ حسنات أن تجهد رجلها المجروح، فوسدته على الأرض ونزعت عنه ملابسه بينما وجيب قلبه يطرق مسامع السماء والأرض، وجسده ينصهر في نار شهوة جبارة. وقادت هي رقصة الجنس بمهارة خارقة أججت كيانه الملتهب، فصرخا معًا وعضَّها في عنقها من فرط الارتجاج حتى سال منه دم غزير.

عندما دخلا من باب النصر افترقا. تابعته حسنات بعينيها حتى ذاب في العتمة، لكنها لم تعلم أنه توجَّه إلى حارة برجوان ليقصَّ على علي أبو حمص ما جرى قبل ساعتين. حكى له كيف كاد يفقد حياته حين أخفق في طعن عسكري فرنسي عند الجمالية. آنذاك.. ظن أنه يسير بمفرده، انتهز خلوَّ الحارة من المارة مع قرب حلول المساء. اقترب منه وبسرعة البرق أخرج خنجره من بين طيات ثيابه وقبل أن يطعنه انقض عليه عسكري آخر لم ينتبه لوجوده كان يتبول خلف شجرة توت، وطعنه بالسونكي، لكن أيوب تفادى الطعنة فلم تجرح سوى كتفه اليسرى، وفرّ

fb/mashro3pdf

هاربًا منهما بين الأزقة والحواري حتى فقد الجنديان الفرنسيان أثره، فتوجَّه نحو حانوت قريب وابتاع بنصف درهم بُنًّا.

أنصت علي إلى ما قاله رفيقه باهتمام حقيقي، وكشف عن كتف أيوب، فتيقن أنه جرح بسيط، فشكر الله وحمده على سلامته، لكن أيوب أخبره بضرورة توخي الحذر لدى جميع الأصدقاء عند الإقدام على قتل الفرنساوية، وقال له هامسًا: «يجب ألا ننخدع بأن وجودهم بيننا ييسر علينا قتلهم، فهم لا يأمنون لنا، فتراهم حريصين ومحتاطين لكل شيء».

أما حسنات، فبعد أن كبست بالبن الجرح الذي طال عنقها، وصلت بيتها مغمورة بسعادة عجيبة، وظلت تتذكر رعبها من العفاريت قبل ساعة فتضحك وأمها تسألها عن السبب، ولما غسلت الجرح وتفحصته في المرآة، لاحظت أن أثر أسنان أيوب ما زال مطبوعًا في جلدها. فأخفته بطرف المنديل الذي تغطي به شعرها وطمأنت نفسها أنه سيزول مع الصباح، ولما ألقت بجسدها على الحصيرة لتنام استرجعت وقائع اللقاء الساخن قبل قليل فابتسم خاطرها وتحسست مكان الجرح بشكل لا إرادي، لكنها لم تكن تعلم على الإطلاق حجم المصيبة التي تنتظرها سبب هذا الجرح!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الحريق

كل أهل بولاق يقولون إن الحاج مصطفى البشتيلي ينفق من ماله الخاص على الثورة هناك.

قبل أن يجلس نطق علي أبو حمص بهذه العبارة، كان قد وصل لاهثًا إلى مشارف الصحراء قبل أن يُرفع أذان المغرب، وقد أنهكه التعب؛ إذ قطع الطريق من بولاق إلى الحسين عَدْوًا متسللًا بين الأزقة والحواري والحقول هاربًا من الجنود الفرنساوية الذين استردوا عافيتهم بعد نجاح كليبر في التسلل عبر فوضى المعارك المشتعلة حول القاهرة وبولاق، والوصول إلى قصر الحكم بالأزبكية.

لقد دعا أيوب السبع عصبته إلى لقاء عاجل عندما لاحظ أن القنابل والرصاص ينهمران على رؤوس الناس بكثافة غير مسبوقة منذ اندلعت الثورة قبل ثلاثة أسابيع. وبالفعل تواصلوا عن طريق الطُّرقات السرية، لكن علي أبو حمص تأخر في الحضور بسبب إصراره على شحن بعض الأسلحة والسكاكين سرًّا على بغلة من الجمالية وتوصيلها إلى بولاق لتوزيعها على الشباب هناك، بعدما بدأ ينخفض عدد السكاكين

fb/mashro3pdf

والمطاوي لدى الثوار إثر استيلاء الفرنساوية عليها كلما اكتشفوا مخزنًا أو دارًا بها مجموعة من الأسلحة.

انتظر أيوب حتى استرد علي أنفاسه، فتأمل الشمس الغاربة والسماء الملبدة بالغيوم، فتعكر خاطره، ثم سأله:

- ما أخبار الثورة في بولاق؟

الكل يعرف أن أيوب لم يذهب إلى بولاق نظرًا للمرض المفاجئ الذي ألمَّ بوالدته، كما أنه تولى مهمة تنظيم الثوار هنا في الحسين، والإشراف على إنتاج الأسلحة التي شرع أهل البلد في تصنيعها في بيت أحد الأهالي بالجمالية. لكنه كان يتلقى الأخبار أولًا بأول من رفاقه الأساسيين في العصبة أو من الذاهبين والعائدين إلى بولاق طوال النهار.

- الحمد لله.. فجثث الفرنساوية ملقاة في الأزقة والحواري، والأهالي يبذلون الغالي والرخيص في سبيل طرد الكفار من بلادنا.

fb/mashro3pdf

ثم سكت علي فجأة وانعقد ما بين حاجبية الكثيفين، ونكّس رأسه فبدا كمَن يخاطب رمل الصحراء، فسأله شلضم السقاء بانزعاج:

- ما بك.. تكلم يا علي!

بصوتٍ موجوعٍ أفصح علي عن حزنه المباغت:

- أبدًا.. لقد فقدنا الكثير من الشباب والأطفال في بولاق والأزبكية، ويبدو أن كليبر صار أكثر إجرامًا من بونابرته، لقد استطاع أولاد الكلب

أن يسبوا أعدادًا مهولة من نساء بولاق وصباياها، ويكاد قلبي يتمزق حين أسمع صراخ امرأة يقبض عليها الفرنساوية ويجرونها كالبهيمة، بينما أنا مختبئ خلف تل تراب أو جدار بيت لا أملك لها ولا لي نفعًا!

هوّن عليك يا علي..

هكذا نطق دياب ضاضو، فأردف أيوب متسائلًا:

هل رأيت عددًا كبيرًا من الجنود العثمانلية يشتركون معنا في قتل الكفار؟

- إنهم مثل النمل، وناصف بك ابن الصدر الأعظم أفلح في الهرب من أمام الفرنساوية ودخل مصر ومعه عدة مئات من جنوده، وهو يغدق عليهم الأموال ويحرضهم ويعدهم بالتي هي أحسن!

- بصراحة.. لم نكن نملك أية قدرة على مواجهة هؤلاء الكفرة لو لم يقف السلطان العثماني معنا ويرسل جيشه الكبير لنجدتنا.

- لا تنسوا أنه عيَّن الصدر الأعظم على رأس هذا الجيش ليُحرِّر بلاد المسلمين من دنس الفرنساوية.

بصوتٍ مشبعٍ بأسى قال شلضم:

- لكن ما يحيرني يا أيوب ويكاد يشل تفكيري.. كيف استطاع كليبر المجرم أن يهزم جيش السلطان عند عين شمس برغم أن عدد جنوده أقل بكثير من جنود العثمانلية؟

fb/mashro3pdf

كأنه لمس جرحًا نازفًا؛ إذ ارتسمت على وجه الجميع علامات حيرة وقلق واضطراب، فالسؤال طرق عقولهم بشدة، وهم يرون الحشود الغفيرة من جنود الأتراك يفرون كالغنم المذعور أمام مجموعات صغيرة من جنود الفرنساوية، فتعجبوا حين رأوا وحين سمعوا بالهروب الكبير لرجال السلطان العثماني، ولما بلغ أيوب هزيمة العثمانلية برغم عددهم الضخم، داهمه هاتف من المجهول متسائلًا: «إننا نفتقد إلى شيء مهم جدًّا.. هو الذي يجعلهم ينتصرون علينا برغم أن عددنا أكبر بكثير، وبرغم أن الله معنا، وليس معهم.. ليتني أعرف ما هو هذا الشيء المهم»!

عبرت نسمة قوية فصفعت وجوه الشباب واستردتهم من حيرتهم، تبعها هبوب خفيف للرياح أزعجهم قليلًا، وقال دياب ضاضو وهو يرمق أصدقاءه:

- ماذا نحن فاعلون؟ خاصة أن بونابرته عاد إلى بلاده ليأتي لجنوده بالمدد كما يُقال!

اندفع علي مؤكدًا:

- سنظل نقاوم حتى ندحرهم، ولو عاد بونابرته بمائة ألف جندي فرنساوي، فالحق معنا، وما النصر إلا من عند الله!

لم يشارك أيوب رفيقه في التفاؤل، لكنه غمغم برأسه مؤيدًا، ثم ألقى عليه نظرة، فبدا النصف الأيسر من وجه علي عاكسًا أضواء النجوم الساهرة وكأنه قُدَّ من نحاس، فالوجنتان البارزتان مشتعلتان بالحماسة

fb/mashro3pdf

والبقع الحمراء، ومقدمة الأنف تتلقى وميض النور الشحيح وتعكسه برفق ولين، أما الجبين العريض للشاب العملاق فقد تألق بإرادة قوية وتصميم جاد. قال أيوب:

- ما رأيكم في محاولات الصلح التي يجريها شيوخنا مع كليبر وقيادات الحملة؟

هتف علي محتدًا:

- إنهم جبناء.. خائفون على مصالحهم، فكلهم تجار يكنزون الذهب والفضة، والثورة أوقفت سيل الدراهم الذي يندفع إلى جيوبهم.. كما أنهم كانوا يداهنون بونابرته قبل سفره، وها هم يحاولون التقرب إلى كليبر برغم جهامته كما يُشاع عنه، كما أن هؤلاء الشيوخ حاولوا أن..

قاطعه شلضم وهو يطوف ببصره بين الجالسين:

- وما المانع في تهدئة الأمور حتى نحفظ حياة الناس ونصون نساءنا؟

ثم بحدَّةٍ أكثر:

- ألم تسمعوا عن اللصوص وقطاع الطرق الذين استغلوا الفوضى وراحوا يسرقون الناس ويعتدون عليهم منذ أشاع العثمانلية أن جيش الصدر الأعظم هزم الجنود الفرنساوية عند عين شمس والمطرية، وللأسف لم يكن الخبر صحيحًا كما تعلمون؟

فحدجه علي بنظرة غضب وصاح:

- وهل تقبل أن يحكم الكفار ديار المسلمين؟

fb/mashro3pdf

- لكن خسائرنا بآلاف الأرواح وأحوال الفقراء تتدنى من سيئ إلى أسوأ، والفوضى شاملة وانعدم الأمن وضاع الأمان، والجوع وحش شرس، فالرغيف شحٌّ، واختفى السكر، وزاد سعر إردب القمح عشرة أضعاف، وانتشرت إشاعات تقول إن مراد بك تحالف مع كليبر، واعترض قوافل الغذاء والطعام القادمة من الصعيد إلى مصر، حتى نموت وأهالينا من الجوع ونستسلم، بعد أن منحه كليبر سلطة حكم الصعيد، كما أن..

قاطعه أيوب بإشارة من يده، وقال بأداء حاول أن يبدو رزينا وصوت مشوب بقلق واضح:

- اللصوص وقطاع الطرق والفوضى الشاملة كلها أمور ألفناها كلما ثارت الأهالي ضد الظلم والفقر، وقد شاهدنا طرفًا من ذلك في ثورتنا ضد الفرنساوية قبل سنتين، أما مراد بك فمن أخبث الرجال، حارب بونابرته ودوخ جنوده في الصعيد بحجة الدفاع عن السلطان العثماني وولاياته، ثم عاد وتحالف مع كليبر ضد السلطان نفسه، ومع ذلك لن نوقف الثورة إلا إذا شعرنا أن الإنهاك نال من الناس، وأن اليأس من طرد الفرنساوية استبدَّ بهم، وأن..

fb/mashro3pdf

فجأة توقف أيوب عن الكلام؛ إذ هبَّت رياح عاتية مزمجرة من حيث لا يحتسب أحد، فتطايرت الرمال، وصفعت حبيباتها وجوه الشباب الحائر فأحرقت جلودهم بشدة، وألقى أيوب نظرة على السماء، فرأى السحاب يجري بسرعة حاجبًا القمر، وتوارت النجوم وانطوت على

أنوارها المخنوقة، وسُمع صوت الرعد، ثم انهمرت الأمطار بغزارة مخيفة، فغمغم علي أبو حمص:

- يا لطيف.. يا لطيف.. إننا في منتصف أبريل، والبرد ذهب وولى، فماذا جرى يا رحمن يا رحيم؟

- إنها علامات يوم الحشر.

- ارحمنا يا رب!

- سخط في السماء وغضب في الأرض!

- بل قل: سيول ورعود من أعلى ورصاص وقنابل من أسفل!

غضبت السماء، وارتعد الكون وارتجت أركانه، وأطلقت الصحراء أصواتًا وأصداءً مرعبة، فهرع الرفاق نحو باب النصر هربًا من المطر والرعد وشظايا الرمال المندفعة. حاولوا الاختباء لصق جدار أول بيت. تلقت آذانهم صراخ الأطفال وعويل النساء مختلطين بأصوات الرصاص وانفجارات القنابل. تبادلوا نظرات قلقة دون كلمة واحدة، كأن كلا منهم يستجير بصمت الآخر.. وما من مجير. في لحظة تفرقوا دون اتفاق، وذاب صوت أيوب في أتون النار والرصاص والقنابل والعنف وفوضى الطبيعة وهو يخبرهم:

- سنحدد لقاءً آخر سريعًا وسأبلغكم به.

لكن ما من أحد استمع إلى صوت الزعيم!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

زليمة الجميلة

بـدا الكابتـن مواريه حزينًا شـارد الخاطر، يعبـث بقصبة من الخوص في التراب درءًا للسأم، ثم يرنو إلى مياه النيل المنسابة عند بولاق ببلادة. في روحه سقم، وفي قلبه حسرة، تأمله الخواجة شارل مليًا قبل أن يسأله مداعبًا:

- ألهذه الدرجة فتنتك زليمة يا كابتن؟

فانتهزها الملازم فرتراي فرصة وغمز صديقه العاشق قائلًا:

- لكم أسـرفت في تشـويه النسـاء المصريات زاعمًا أنهن محرومات من الجمال والإثارة، وها أنت تسقط في بحر محبة فتاة مصرية!

بنظرةٍ باردةٍ وبصوتٍ مبحوحٍ قال الكابتن بحزم:

- زليمة ليست مصرية.. إنها من جورجيا!

لقـد عـاد الكابتـن مواريه مـن دميـاط قبل أيـام، وقلبه مفعـم بأحزان لا حصـر لها، فقد وهبتـه المقادير نعمة لم تخطر له ببـال، وقد تلقى هذه النعمة بكل ترحاب ومودة، كما قال لصديقيه الرسـام والملازم، وأفاض في شـرح القصـة العجيبة التي وقعـت له كما وصفها، حيـث حكى لهما

fb/mashro3pdf

كيف التقى زليمة؟ وكيف طارحها الغرام؟ وكيف ضمها في صدره؟ وكيف ذاق طعم شفتيها؟

بدأ مواريه قصته الغرامية المشبوبة من مدخل البيت الذي أقام فيه بدمياط، بعد أن استتب الأمر لفرقته العسكرية في احتلال هذا الميناء الحيوي وإخضاع أهله لجنود الفرنساوية؛ إذ يقع هذا البيت على الطريق المؤدي إلى الجامع الرئيسي في المدينة، فكان يرى النساء وهن ذاهبات ليؤدين صلاة الجماعة. وهذه هي الفرصة الوحيدة التي يمكن له فيها أن يرى امرأة من سيدات القصور والدور الفخمة وليست من الجواري، مؤكدًا أنه من المحال رؤية وجهها؛ إذ إن الحجاب يخفي ملامح الوجه باستثناء العينين.

حكى الكابتن مواريه لرفيقه كيف أنه في ذات عصر لمح امرأة بدا من مشيتها أنها ذات حسن وجمال، فجعل يتأملها كلما توجهت إلى المسجد، حيث يظل واقفًا أمام البيت ليستمتع بها مرتين كل صلاة، وفي إحدى المرات اقتربت منه هذه المرأة أكثر مما يجب، فألقى لها تحية احترام على الطريقة الفرنساوية وابتسامة وودًا، فبادلته التحية والابتسام بعينيها، وفي مساء ذلك اليوم تحديدًا، جاءت إلى بيته سيدة فرنساوية في حدود الأربعين سائلة إياه إن كان يعرف اللغة العربية قراءة وكتابة؟

fb/mashro3pdf

في البداية، قال مواريه لصديقه: تعجبت من هذه السيدة الفرنساوية التي فاجأتني بأنها وصيفة للمرأة التي بادلتني التحية والابتسام في الصباح. سردت لي الوصيفة الفرنساوية قصتها وكيف أن مجموعة

مـن القراصنة خطفوها من مارسـيليا وباعوها لأحـد البكوات في مصر، حيث جعلها وصيفة لنسـائه! ثم أضافت أن سـيدتها - التي ابتسـمت لي فـي الصباح - هي أرملـة لأحد المماليك الذين قتلـوا في معركة الأهرام - وليـس إنبابة كما يفضل بونابرت - فهربت وجاءت إلى هنا في دمياط لاجئـة عند تاجر أقمشـة تركي اسـمه أبو الفـرو كانت تربطـه علاقة طيبة بزوجهـا القتيل، فتزوجها التاجر ليحميها، علـى أمل أن يردها للمماليك نظير مكافأة سخية بعد خروجنا من مصر.

للمغامرة سـحر، قلت لنفسـي، والحاجـة إلى حضن امـرأة ضرورة قصـوى لا يقاومهـا إلا راهـب مخبـول أو زاهـد غبي، وقد مرَّت شـهور طويلـة ونحـن في مصر، لـم نذق فيها طعم النسـاء بما يكفـي بعد، وأنتما تعلمـان تمامًـا أنـه لا توجد لذة أمتع من لمـس أجسـاد النسـاء ومداعبتها وتقبيلها.. و.. و.. وهكذا قبلت المغامرة، رغم علمي بخطورة الاقتراب من نسـاء المسـلمين في هذا البلد المتخلف، وقلـت للوصيفة إنني أعلم العربية كتابة وقراءة، وقد كنت صادقًا، فقد درسـت طرفًا منها في المعهد القومي الفرنسـي بباريـس، وعزز وجودي هنا إمكاناتـي اللغوية، وهكذا - يتابع مواريه - وصلتني أول رسالة من زليمة، فأطارت عقلي وأشعلت سعير الجنس في جسدي.

قالـت زليمـة بالحـرف فـي رسـالتها التـي حملتهـا إلـيَّ خادمتهـا المارسيلية: «أيها الشاب الفرنسي المقدام، لقد أقدمت على خطوة أعلم أنهـا قـد تعطي عني انطباعًا سيئًا فـي بلادك، ولكنك تخطـئ لو حكمت

fb/mashro3pdf

عليَّ بأفكار أمتك. اعلم أن قلبي ما زال بكرًا، وأنك أول مَن تدخله سيدًا فاتحًا، ولكن هيئتك العسكرية وشكلك اللطيف واستقامتك قد استولت عليه وأخضعته، والحقيقة أنني أريد أن أعترف لك بأنني أحبك، فإن لم ترفض حبي حاول أن تأتي عند التاجر الذي أقيم عنده، ودعِ الحب يفعل الباقي.. صديقتك زليمة».

أذهلتني رسالة زليمة، وفتنتني شجاعتها، وقررت السباحة في بحر المغامرة حتى أصل غانمًا إلى شاطئ الغرام، فأنتما تعرفان أن الفرنسي مقدام في الحب كما في المعارك، بعكس الإسبان والإيطاليين الذين لا يستحي الواحد منهم أن يظل يبكي ويتحسر ويتنهد تحت نافذة حبيبته سنوات دون أن يحظى بقبلة! وهكذا يا صديقيَّ توجهت نحو محل التاجر التركي أبو الفرو بحجة شراء بعض الأقمشة التي أحتاج إليها، وكم كانت دهشتي حين وجدتها في المحل تجلس بجوار التاجر، وقد انتهزت زليمة الفرصة حين قام التاجر ليحضر لي بعض الأقمشة، فأزاحت الحجاب عن وجهها، فكأني أمام فينوس إلهة الجمال، فازداد وجيب قلبي خفقانًا، ورقص الدم في شراييني، ووجدتني أنتفض بشهوة طارئة، لكنني تمالكت نفسي بصعوبة وعقدت العزم على توثيق علاقتي بالتاجر مهما كلفني الأمر.

يواصل مواريه حكايته المثيرة، بينما الرسام والملازم ينصتان بانتباه شديد. قال الكابتن: بعد يومين ذهبت إلى التاجر بحجة شراء بضاعة جديدة، ووجدتها هناك، فارتجف فؤادي، وقبل أن أتلقى بسمة وادعة

fb/mashro3pdf

ممن رطبت قيظ أيامي في مصر، فاجأني التاجر التركي بطلب لم يخطر لي على بال؛ إذ رجاني أن أُلقِّن زليمة دروس الحساب والنحو الفرنسي لتساعده في مراسلاته مع التجار الفرنسيين؛ لأنه يعتمد على اليونانيين وهم يخدعونه ويسرقونه، ثم أكد لي التاجر أن زليمة فتاة طيبة تتمتع بذكاءٍ كبيرٍ، وسوف تستجيب للعلم!

الهدية نزلت من السماء إلى الأرض، وبعد أن كانت زليمة نجمًا مشعًّا في الفضاء ليس باستطاعتي الوصول إليه، إذا هي تتهادى على الأرض فألمسها وأحضنها وأقبلها، وبعد أن كنت أتردد في إلقاء نظرة خاطفة عليها خشية أن يلحظ زوجها التاجر، صرت لا أخشى التفرس في وجهها والتمعن في عينيها، وأججت دروس الحساب مشاعرنا المكبوتة، وأتاح لنا التاجر التركي - دون أن يدري - نعيم الخلوة والتواصل والحديث، وهكذا حكت لي زليمة قصتها العجيبة.

قالت إنها ولدت في ضيعة بجورجيا، ولما أراد صاحبها بعض المال ليشتري زوجة كما هي عادة أهل البلد باعها لتاجر أرمني وكانت في حدود الرابعة عشرة من عمرها، وحملها الأرمني إلى القسطنطينية ليبيعها، «لكن الأتراك رفضوا أن يدفعوا له ما أراد لأنها نحيفة القوام والأتراك يفضلونها ممتلئة مكتنزة باللحم، فتوجه التاجر الأرمني ببضاعته - التي هي أنا - إلى القاهرة، فاشتراني علي بك الذي قُتل في معركة الأهرام. هنا خشيت وفررت إلى دمياط عند التاجر التركي أبو الفرو لأنه صديق حميم لزوجي القتيل».

fb/mashro3pdf

أفاض مواريه، وهو يقص على صديقيه حكاية زليمة، وكيف سألها عن مشاعرها نحو الفرنساوية بعد أن علمت أنهم مَن قتلوا زوجها؟ وهل يعتريها حزن كبير على فقد هذا الزوج؟ وقد فوجئ الضابط الفرنساوي بأن ابنة جورجيا سعدت كثيرًا بمقتل زوجها؛ إذ قالت إنه كان قاسيًا فظًّا غليظ القلب يبحث عن الملذات الجسدية في غير الحلال، وإنه كان يسلط على نسائه وجواريه محظية شرسة فظة المشاعر كدرت حياتهن تكديرًا. وقد أجابت زليمة عن كل الأسئلة التي طرحها مواريه بخصوص طبيعة الحياة فيما يسمى «الحريم»، فاكتشف حجم المأساة التي تكابدها المرأة المسلمة؛ إذ أخبرته كيف أقدم البك على جزّ رأس إحدى نسائه الشركسيات بضربة سيف واحدة لأنها التفتت إلى أورُبي يتحدث بالقرب منها، وقد وشى بها أحد العبيد.

بكت زليمة.. أجل بكت وهي تحكي بإسهاب عن فنون العذاب التي تلقتها في حياتها، فرقّ قلب الكابتن ووعدها بأن ينتزعها من هذه التعاسة إذا ما خرج الفرنساوية من مصر، وطلب مكافأته من نعيم الجسد نظير هذا الوعد، لكن زليمة رفضت أن تمنحه أكثر من اللازم إلا إذا تزوجها، فاستغرب الكابتن وسألها على أي دين نتزوج؟ ثم أعلن رفضه التام لأن يشهر إسلامه لأنه يرفض تعاليم دين يمنع الخمر ويشترط الختان – وهي عملية مهينة كما قال – ليفرق بين المسلم واليهودي، وحتى لا يصبح مثار سخرية ضباط الجيش وجنوده مثلما حدث مع الجنرال عبد الله مينو الذي أسلم ليتزوج ابنة تاجر مسلم من رشيد، فردّت زليمة وقالت إنها لو

fb/mashro3pdf

صارت مسيحية فسيقتلها التاجر التركي فورًا لأن المسلمين متعصبون جدًا لدينهم ويرون المسيحيين لعنات شيطانية تسير على الأرض!

أمـا المفاجأة التي لم يتوقعها مواريه فتجلّت في الاقتراح الذي قدمته زليمة؛ إذ قالت له: «إنني سألحق بك إلى فرنسا ومعي ثروتي ومجوهراتي وأقف أمام المذبح وأدين بدينك المسيحي ونتزوج ويصبح أهلك أهلي، فأنا أعلم جيدًا أن المرأة في أوروبا تُعامل بكرم ولطف وإنسانية، بعكس المرأة هنا في مصر.. هذا البلد البغيض»!

والآن يجلس مواريه شارد الذهن على شاطئ بولاق بين شارل وفرتراي، تظلهم شجرة توت كبيرة، بينما يعبث العاشق الحائر بالخوص، ويسترجع ذكرى الأيام الخوالي في دمياط، ويفتش عن وسيلة يخبرها بها بقرب مغادرته مصر، لكن الملازم لم يدعه ينعم بلذة الشرود أمام المياه المنسابة من النهر في هذا الوقت من مايو؛ إذ سأله بصوتٍ عالٍ:

- هل تتوقع أن يستجيب مينو للمفاوضات مع الإنجليز ويعيد مصر إلى تركيا؟

بعصبية غير مبررة قذف مواريه بحصى صغير في النيل وتابع الموجات الدائرية المتولدة، وقال بأداء رزين:

- إن الرب يعاقبنا لأننا أهملنا حماية الجنرال كليبر العام الماضي، فقتله مسلم معتوه، وقد تمثل هذا العقاب في أن يصبح الجنرال عبد الله مينو قائدًا لحملتنا، وفي هذا استخفاف لا حدود له. إن مينو مجنون يتخيل أنه بالإمكان إقامة مستعمرة فرنسية هنا في مصر، وهو أمر محال؛ إذ

fb/mashro3pdf

لم نحصد هنا سوى المرض والطاعون والبؤس وجثث زملائنا. لقد انتبه كليبر إلى الفخ الذي وقعنا فيه، فأقدم على إبرام معاهدة العريش في يناير من العام الفائت كما تعلمان، لكن عنجهية الإنجليز وغطرسة الأتراك أبطلا المعاهدة، وحاولوا فرض شروط مهينة على كليبر، فرفضها وأذاق الجيش التركي المذلة في معركة عين شمس، كما أن..

قاطعه شارل صائحًا:

- أظن أن مينو لن يستطيع مقاومة الإنجليز والأتراك وسيوقع على اتفاقية تسليم مصر لتركيا، فعشرات الآلاف من الجيش التركي وصلت إلى الإسكندرية، فالحملة كلها كانت خطأ فادحًا، ولعل بونابرت أدرك ذلك، ففر من السفينة قبل أن تغرق.

قهقه الملازم فرتراي، ومدَّ يده مصافحًا شارل بإعجاب وقال:

- أحييك يا صديقي.. الحملة كلها باتت خطأ فادحًا، وقد جئنا لنودعك كما تعرف، فقد استدعونا لنلتحق بفرقتنا المتوجهة إلى الإسكندرية لنواجه الجيش التركي.

ثم أدار وجهه نحو مواريه وصاح:

- أخيرًا اعترفت يا كابتن بأنه من المحال إقامة مستعمرة فرنسية هنا في مصر. إن جنرالكم بونابرت رجل مهووس بالمجد، لا بحياة جنوده وضباطه، وأُقسم.. إذا عدت حيًّا إلى وطني سأهجر الجيش إلى الأبد، وأتفرغ لرعاية أرضي الزراعية، فلا يُعقل أن يموت الآلاف من أجل مجد رجلٍ واحدٍ فقط!

fb/mashro3pdf

تبادل مواريه وشارل نظرات استفسار، وهمَّ الكابتن أن يتحدث، لكنه تردد وآثر تأمل ملامح صديقه المتوترة، لكن الملازم فرتراي لم ينتظر أحدًا؛ إذ كان مأخوذًا بحماسة مفاجئة، فواصل كلامه بنبرة أكثر حدة قائلًا:

ثم إن مينو هذا يشبه صاحب حانة بائسة في قرية مهجورة بريف فرنسا شاهدته قبل ثلاث سنوات، وأظن أنه سيرضخ في النهاية ويوقع على معاهدة مع الأتراك برعاية إنجليزية تنهي وجودنا في مصر وتردها للباب العالي، فكما علمت فإن السير هوب يباشر المفاوضات مع مينو، وأن..

توقف فرتراي عن الكلام، حين قرع أذنه صوت بائع ذرة مشوية ينادي على بضاعته بأداء موسيقي منغم، فالتفت نحوه حيث جلس قريبًا منهم وقال:

- حقًّا.. إن له صوتًا رائعًا.

ضحك شارل وهتف وهو ينهض:

- وللذرة المشوية مذاق رائع أيضًا.. هيا نشترِ منها ما لذَّ وطاب، ثم نكمل كلامنا عن مينو والإنجليز والأتراك.. والمصريين المساكين!

نهض الجميع وتوجهوا نحو البائع، لكن مواريه غمغم بصوتٍ سمعه شارل:

- أين أنتِ يا زليمة.. لكم أوحشتني!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ايوب - أحلامي تزدهر

29 أكتوبر 1805

لا أعرف كيف كانت حياتي ستستمر لو فقدت الأمل، فرحيل خورشيد باشا أمس إلى إسطنبول يعني أن معركتنا الآن صارت مع رجل واحد فقط هو محمد علي الأرناؤوطي، بعد أن كنا نخشى أن يفرض علينا الباب العالي خورشيد باشا إذا نجحنا في إبعاد محمد علي، وخورشيد ما هو إلا تركي ظالم مثل كل الذين حكمونا أيام جهلنا التاريخي وغفلتنا الدائمة.

وأمس قال لي علي أبو حمص - أخلص الأصدقاء وأكثرهم إيمانًا بقضيتنا - إن شيخ الجامع في حارة برجوان نهى الحاضرين عن السماع إلى الآراء التي تندد بأن يحكم مصر رجل غير مصري؛ إذ قال الشيخ: «المهم أن يكون مسلمًا مثلنا يصوم ويصلي ويحافظ على مصالح الرعية». قال علي بقلق: «علينا الحذر ونحن ندعو الناس إلى فكرتنا، فالبصاصون بلا حصر، ومحمد علي الملعون جنَّد رجاله من كل ملة وطائفة وأطلقهم يتشممون أفكار الناس ويفتشون في صدورهم». الحق معك يا علي.. علينا أن نتوخى الحذر، والحمد لله، فإن عصبتنا لم يعلم بها أحد رغم أن أفكارنا بدأت تتسلل إلى رؤوس الناس، فتفعل بها الأفاعيل. صحيح أن

fb/mashro3pdf

كثيرًا من كبار السن والنساء يرفضون دعوتنا رفضًا قاطعًا ويتهموننا بأننا من أنصار الفوضى التي تعم البلاد منذ رحيل الفرنساوية، غير أننا بدأنا نستقطب بعض الشباب لأفكارنا.

كعادتي.. أعشق مراقبة الإشراقة الأولى لضوء الشمس وهو يتسلل بحياءٍ بعد ذبول الليل، ولمعان الفجر الفضي، يناوش نجمة ساهرة، أو يداعب سحابة ضالة، وهكذا وقفت فوق سطح بيتي أرنو للأفق وأنصت إلى زقزقة العصافير المبكرة. تمتلئ روحي بإيمان قوي حين أتأمل من موقعي فوق السطح المآذن المتراصة للجوامع الكثيرة في شارع بين القصرين وكأنها كائنات خرافية طيبة تخرق ظلمة الليل وتعلن عن قوة الواحد الأحد. لمحت سيد الفوَّال يمرق من مدخل حارتنا سائسًا حماره وقد وضع قدر الفول فوقه. ناديته كما أفعل كل صباح تقريبًا منذ أخبرتنا الداية أن سعدية يجب أن تستريح في شهور الحمل الأولى، ثم نزلت السلم سريعًا، وأخذت البرام من المطبخ وابتعت بنصف درهم ملء برام من الفول.

fb/mashro3pdf

عند عودتي كانت سعدية قد نفضت عن عينيها غبار النوم ونهضت لتُعدَّ لي طعام الإفطار. لن تستريح هذه الجميلة إذا لم تتولَّ شئوني بنفسها، وكم رجوتها ألا تتعب نفسها حتى تنقضي شهور الحمل بسلام، لكنها تأبى وتردد: «لا يهنأ لي قلب إلا أن أقوم بخدمتك يا زين الرجال»، فأحتويها في صدري وأداعبها: «أنت جميلتي الدائمة يا مدام».

تضحك سعدية كلما خاطبتها بكلمة «مدام»، فهي تعرف أن غرامي باللغة الفرنسية يزداد من يوم لآخر، وأنني أتقدم في تعلُّمها بشكل كبير

كما يؤكد دومًا مسيو شارل، لكن أجمل ما في سعدية طريقتها اللطيفة في مداعبتي، فهي تلقي عليَّ تحية الصباح بالفرنسية كما علمتها، فإذا بكلمة «بُنجور» تخرج من فمها برقة بالغة، رغم أن قشعريرة خفيفة تنتابني كلما نطقت بها؛ إذ تتجلى أمامي في لحظة فرانسوا الجميلة بحلاوتها وسحرها وعذابها ودمها المستباح في الحارة!

لقد فوجئ مسيو شارل حين دعوته أمس لتناول الغداء في بيتي بسعدية تصافحه يدًا بيدٍ وتحييه بكلمة «بنسوار»، فضحك ومدَّ يده مرتبكًا، لكنني أفهمته أن المصريين قادرون على تعلم أي شيء شريطة ألا يُفرض عليهم ذلك، ثم أكدت له - حين غادرتنا سعدية لإعداد الطعام - أن كثيرًا من المصريين بدأوا يفهمون الضرورة القصوى لأن يحكم مصر واحد من أهلها، وأن هدفي هو دعوة الناس للخروج إلى الأزبكية لخلع محمد علي من الحكم، وتنصيب رجل مصري بدلًا منه.

شعرت أن مسيو شارل لم يتحمس كثيرًا لقناعاتي، وهمس في أذني بعد أن تأكد ألا أحد يسمعنا: «حذارِ من رجال الشرطة يا أيوب.. فأي حاكم جديد يتربص حتمًا بمعارضيه، ولا يحتمل كلمة واحدة تندد به ولو على استحياء». ومع ذلك كم غدت فرحتنا - سعدية وأنا - كبيرة للغاية عندما أقبل علينا الخواجة حاملًا هدية للمولود القادم عبارة عن دمية صغيرة على شكل حصان من المعدن إذا أدرت المفتاح الذي ينغرز في بطنه تحرك إلى الأمام ثلاث خطوات، فانبهرت سعدية وصفقت كطفلة، أما أنا فأيقنت كم نحن متخلفون!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

شارل - أحزاني تنمو

29 أكتوبر 1805

«حزني هذه الليلة أكبر مما يحتمل». هكذا كتبت في يومياتي الخاصة، فبعد عودتي من بيت أيوب، اعترتني نوبة حزن مفاجئة، سرعان ما تضخَّمت وصارت كحجر ثقيل في صدري. ألقيت بجسدي على الكرسي الخيزران أمام آخر لوحاتي. طلبت من سليم أن يأتيني بقدح وزجاجة الكونياك. تأملت المراكب المتراصة عند شاطئ النيل في ميناء بولاق، فلم يعجبني الضوء الساقط عليها. هممت بالنهوض لأصلح درجة ألوانها في اللوحة، لكن الحزن يثبط همتي.

حاولت التفتيش عن سبب الحزن المفاجئ، رغم أنني كنت متشيًا بالجلوس إلى أيوب وزوجته التي أعدت لنا طعامًا شهيًا، فلم أجد سوى الوحدة التي طالت وامتدت وتصحرت، وحين دعاني أيوب اليوم لتناول الغداء في بيته.. تيقنت أن اختياري للوحدة اختيار خائب وغير عملي، وأن المرأة ضرورة قصوى للرجل.. ليس لمجرد إطفاء نيران الجنس التي لا تخمد أبدًا فحسب، بل لتأسيس أسرة وإنجاب أبناء، فالإنسان كائن اجتماعي كما يقول جان جاك روسو.

fb/mashro3pdf

قذفت أول قدح في جوفي دفعة واحدة كأنني أريد إطفاء نار الحزن بماء الخمر، وخايلتني ذكرى روز وهي تهتف أمام الباستيل لآخر مرة، فتكدس الشجن في صدري لأنني اكتشفت أن ذكراها باتت تخبو في خيالي، وأن ملامحها تذوب رويدًا رويدًا في اللا متناهي، ولولا الصورة التي رسمتها لها في الحديقة الرئيسية بباريس في القرن الماضي لضاعت قسمات روز ومُحيت تمامًا من فوق شاطئ خيالي.

آه.. إنه الزمن.. هذا الحيوان الخرافي الذي لا يشبع من التهام الناس والأحداث والمدن، ومَن كان يصدق أن أهجر باريس التي عشقتها كما لم أعشق مدينة أخرى من قبل؛ لأقضي تسع سنوات هنا في القاهرة؟ وأول أمس فسرت لي مسعدة حجاب سرَّ اختفائها المفاجئ وغيابها الطويل. قصتها مثيرة وشائقة ومفاجئة، رغم أني لم أصدقها، وظننتها تعبث أو تسخر مني، ومع أن هذه القصة أنعشتني كثيرًا، لكني الليلة هدف مرصود لذئب الحزن مذ غادرت بيت أيوب مع أذان المغرب. عنَّ لي أن أمرَّ على دار مسعدة حجاب لعلي أحظى بمشهد أو بنظرة، أو أتيقن من صدق قصتها، لكني خشيت، فقد حذرتني ألا أمرَّ على بيتها قط إلا حين ترتب لي الأمور.

fb/mashro3pdf

لا أعرف كيف قادتني قدماي نحو الجمالية فباب الفتوح. خرجت أطوف في صحراء الدراسة بلا هدف سوى معانقة الفراغ عسى أن تتبدد وحشتي هذا المساء. نسمة طرية تتوالى مسرعة فتذكرني بخريف باريس وهوائه الرطيب. ألمح نورًا شاحبًا متناثرًا في السماء وسحبًا تجري

بتمهل فتحجب ما بقي من وجه القمر. لم يربكني نباح الكلاب ولهفة ذكورها على التلذذ بإناثها، فقد تعودت على هذا النباح الهائج كثيرًا، وردد خاطري: «حتى الحيوانات لا تعجز عن تلبية أشواق الجنس حين يستبد بها في التو واللحظة، أما أنا فقد تجاوزت عامي الخامس والثلاثين وما زلت غير قادر على الارتواء منذ الاختفاء الغريب والمريب لمسعدة إلا حين تيسر». فجأة دهمتني رائحة مقززة لا أعرف مصدرها، فقد تكون لحيوان نفق حديثًا، فهجرت الصحراء وسماءها ونجومها الخافتة واستدرت عائدًا من باب النصر.

اطمأنت روحي لرؤية شيخ مُسن أعرف ملامحه جيدًا يجوب الحواري والعطوف أمام مسجد الحاكم بأمر الله ناشرًا بخوره ودعواته بلا مقابل، وقررت أن أرسمه من الذاكرة، فلما عدت إلى بيتي وجدت الحزن قد تشبث بجذور روحي، فأنهكني وأعطب خيالي. بعد القدح الثالث من الكونياك تذكرت حماسة أيوب، وتساءلت كيف امتلك هذا الشاب اليقين العجيب بأنه قادر على حشد المصريين للذهاب إلى الأزبكية وطرد محمد علي من قصره!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

بونابرته في الدرب الأصفر

اللقاء الأول الذي جمع أيوب السبع بالخواجة شارل حدث بمحض المصادفة وعلى إيقاع الصراخ والشتائم. جمعهما باب زويلة قبل رحيل الجنود الفرنساوية بشهرين تقريبًا. شارل منهمك في تصوير الباعة والزبائن أمام باب زويلة، وقد جلس على كرسي من الخوص أمام لوحته ينظر ويدقق ويلوِّن، وأيوب يعبر الطريق ممسكًا بكتاب «تفسير الجلالين» بين يديه ويحمل على كتفه صُرة بها بضع أوراق ومحبرة. فجأة سُمع صراخ امرأة منبعثًا من بيت مقابل لجامع المؤيد، ثم فُتح باب البيت بقوة وانسلت منه المرأة المستصرخة تمسح الدم النازف من فمها وتلعن وتشتم، يتعقبها رجل بدين بشارب كث وشعر أشعث رافعًا عصا غليظة يتوعد وينذر. انتفض شارل.. رمى أيوب البقجة على الأرض.. تجمع بعض السابلة في لحظة وأحاطوا المرأة المضروبة بأجسادهم، وحال آخرون بين الرجل وزوجته. في خضم الفوضى والصياح انفضحت الأسرة وأُلقيت الأسرار فوق تراب الحارة وعرف الجميع أسباب المعركة الزوجية. الزوج يستولي على أموال زوجته بائعة الكرشة ويهرول نحو البوظة لينفق النقود كلها على تناول «قرعات» لا نهائية من البوظة، ويعود آخر الليل سكران يحمله ندماء السوء، كما وصفتهم الزوجة الكادحة!

fb/mashro3pdf

ثـم بوقاحـة نادرة هتفت المـرأة المضروبة: «يأتي لينام بجـواري كل ليلة كالخروف وتسألني النسوان لماذا لا أحبل؟!»، ضجَّ الحضور بالضحك ونهر الزوجين شيخٌ أزهري تصادف وجوده لحظة المعركة، وصرخ في وجه المرأة: «احتشمي»، ثم مدَّ سبابته في وجه الزوج وقال غاضبًا: «اتق الله.. وتجنب البوظة فهي حرام.. وارعَ أهل بيتك»!

بعد فض الاشتباك الزوجي العنيف عاد شارل إلى لوحته وحمل أيوب بقجته، لكن نظرة عابرة انبعثت من النساخ نحو اللوحة فاعتراه ذهول. تقدَّم نحوه ببطءٍ وسأله بتوجس: «هل أنت فرنساوي؟ هل جئت مع الجنود الفرنساوية؟»، فأخبره شارل باسمًا: «أجل.. أنا فرنساوي، لكني أقيم في مصر قبل وصولهم، واعترضت كثيرًا على وجودهم وأبلغت بونابرت نفسه باعتراضي قبل أن يعود إلى فرنسا سرًّا». اطمأن له أيوب لسبب ما، ربما شعر بصدق كلامه أو ارتاح لملامحه الهادئة المسالمة، فتحدث معه بقلبٍ صافٍ، وكم سعد بكونه يجيد اللغة العربية. تبادلا كلامًا عامًّا، وقد أُعجب شارل بمهنة النساخ، ثم دعاه لزيارته في بيته الكائن في الدرب الأصفر.

في الطريق إلى بيت الرسام عبر الصديقان الجديدان سكة الغورية، الشمس مسالمة رغم أن مايو انتصف، وموجات متقطعة من الهواء المنعش تتسلل من بين المداخل البحرية للحارات والأزقة فتهبهما حيوية ونشاطًا. تجاوزا حارة الحمزاوي، فخان الخليلي، حتى بلغا شارع بين القصرين. أشار شارل إلى جامع قلاوون وهمس بانبهار: «إنه معجزة معمارية بحق»، شاركه أيوب النظر لكنه لم ينفعل بتقريظ الرسام

fb/mashro3pdf

المجامع. فالتكرار يقتل الدهشة، والعادة تسحق الانبهار. واصلا السير منهل تلفحهما روائح متنوعة من أطعمة مختلفة منبعثة من البيوت، فنثير الشهية. توقف شارل عند بائع فطير أمام حمّام السلطان وابتاع اثنين. احتجَّ أيوب صائحًا: «إنك ضيفنا، ولا يصح أن تدفع الحساب». ابتسم شارل وقال: «هذا بلدي أيضًا.. ألم أقل لك إنني أقيم هنا منذ خمسة أعوام».

«يا خبر أبيض.. إنه السيد عمر مكرم.. يا ألله.. إنه يكاد ينطق»، هكذا صاح أيوب فور دخوله بيت الرسام الفرنساوي، فابتسم شارل، فعاجله أيوب بسؤال: «كيف رسمته وقد اضطر للذهاب للشام استياءً من جنودكم؟». لم ينتظر إجابة إذ سرعان ما هتف: «يا سبحان الله.. مَنْ هذه المرأة الجميلة.. إنها تبتسم كالحقيقة تمامًا». طرب شارل بثناء صديقه الجديد وقال وهو يقضم قطعة من الفطير مشيرًا له بالجلوس: «إنها مدام فوريه زوجة الملازم فوريه». لم يعلق أيوب ولم يجلس، بل اقترب من اللوحة ومدَّ أصابعه برفق ليتحسس الوجه الجميل. وفجأة صاح كمَن لدغته عقرب: «وهل أتى ضابطكم بزوجته معه إلى هنا؟ أليس عندكم نخوة؟». تذكر شارل حين رآها للمرة الأولى في بيت المواطن فولمار، وكيف فتنته ملامحها، فطبعها في خياله ورسمها من الذاكرة عندما علم بأنها غادرت مصر في عهد كليبر.

بعد أن فرغا من تناول الفطير أمر شارل خادمه سليم ليعد قدحين من الحلبة، ثم شرع يشرح لضيفه قائلًا: «لقد أحضر نحو ثلثمائة من

fb/mashro3pdf

رجال الحملة زوجاتهم وعشيقاتهم معهم كما أخبرني بعضهم، رغم تحذيرات بونابرت ورفضه لذلك، لكن يبدو أنه غضَّ الطرف عن قراره؛ إذ أنس إلى وجودهن لأنهن صنعن مناخًا طريًّا مرحًا بين الجنود هم في أمس الحاجة إليه، بعد أن أخفقت محاولاته في اصطحاب راقصات وموسيقيين ليرفهوا عن جنوده». هزَّ أيوب منكبيه استخفافًا بما سمع، وجذب كرسيًّا من الخوص وجلس يتأمل اللوحات المعلقة على الجدار أو فوق الحامل. أشار مستاءً إلى صورة لنابليون وهو يمتطي جواده، فقال بامتعاض: «لا تغضب مني.. أنا أكره بونابرته»، فتلقى من صاحب البيت تعليقًا أطربه: «وأنا أيضًا أكرهه»، فقال أيوب بحماسة منشجعًا برأي صديقه الجديد: «إنه يقتل أهلنا ويستهين بديننا، ولم يفعل شيئًا طيبًا ببلادنا سوى قراره بتسميم آلاف الكلاب الضالة والمسعورة التي بلغت قسوتها حدًّا لا يُطاق، ولم نعرف كيف نواجهها أو نقضي عليها». وافق شارل بإيماءة من رأسه وأضاف: «وقراره الإيجابي الآخر تجلى في منع دفن الموتى في الشوارع حتى لو كانوا من أولياء الله الصالحين». لاذ أيوب بالصمت للحظات وقال بصوت خفيض: «لا أدري مدى صحة هذا القرار». ثم استطرد شارل: «على أية حال لقد رحل بونابرت وراء مطامعه الشخصية وطموحه اللا محدود في السلطة، أما خليفته كليبر فقد قُتل لأنه لم يفهم طبيعة شعبكم، برغم أن الكثير من ضباطه أكدوا لي أنه كان رجلًا شهمًا، وأنه قرر بالفعل مغادرة مصر نهائيًا لأنه يرى أن الحملة كانت عملًا جنونيًّا مرفوضًا. أما بخصوص صورة بونابرت هذه فقد رسمتها تحت ضغط وإلحاح شديدين نظير مبلغ كبير لضابط

fb/mashro3pdf

شـاب مفتون بقائده». ثم بأسى: «مسـكين هذا الضابط.. لا يعرف حجم الكارثة التي أُلحقت بالفرنسـاوية هنا على يد نابليون.. لقد قُتل مئات من جنوده حين رسـا أسطوله في أبو قير بالإسـكندرية، وجُرح اثنان من كبار قواده كليبر ومينو في معركة اقتحام المدينة والسيطرة عليها، كما مات من الحر والعطش في الصحراء عشرات وهم يزحفون نحو قريتي شبراخيت والرحمانيـة، فضـلًا عـن المقاومة التي لقيهـا الجنود من قبـل الفلاحين والبدو طوال الطريق.. هذا ما أخبرني به أحد ضباطه الكارهين لأسـلوبه في القيادة.. إن بونابرت أجرم في حق فرنسا، كما أهان ثورتنا العظيمة».

كلام مدهـش وآراء عجيبـة.. هل يخدعني هذا الفرنسـاوي؟ هل يريد أن يوقـع بـي؟ هل اسـتدرجني هنـا بهدف الكشـف عما نخطـط؟ هل يعلم أنني وزملائي شـكلنا عصبة لقتـل جنودهم؟ وأننا قتلنا عشـرات وأصبنا عشرات. كيف قبلت دعوته بهذه السهولة؟ هل بساطته في الحديث معي بلهجة مصرية هي التي أغرتني بمواصلة الحوار وتلبية الدعوة؟ ما أغربك يا شارل، فقسمات وجهك تشع منها طيبة مريحة، وكلامك معطر ببغض الجنود الفرنسـاوية، فكيف يستقيم هذا؟

«مـا هـذا المـكان؟ إنهـا تماثيـل عجيبـة؟ أيـن تقـع؟ هـل توجد في دياركـم؟»، ثم بصوت متلعثم لكنه مترع بثقـة إيمانية: «بصراحة التماثيل عندنا حرام، لكن هل في المسـيحية تعد حرامًا مثلنا؟». سـأل أيوب وهو يحـدق فـي لوحة مرسـومة بألـوان مائيـة. وقف شـارل بجواره فبـدا أنه أطـول منـه قليلًا، وقال: «إنهـا تماثيل معبد الكرنـك الموجود في بلدكم مصر.. في الصعيد عند مدينة الأقصر.. رسـمها الرسـام دينون الذي جاء

fb/mashro3pdf

مـع بونابرت، ورافق الجنـرال ديزيه وفرقته العسـكرية لمطاردة مراد بك في الجنوب»، ثم بفخر وإعجاب استطرد شـارل: «لقـد أهداها لي حين أهديته صورة أنجزتها لقلعة صلاح الدين». غمغم أيوب بإعجاب: «أنتم عباقرة يا خواجة، ولكن اسمح لي، فالتماثيل حرام»، ثم لاحت منه نظرة إلـى صورة كبيرة علقت في ركن قصي من الصالـة، فتوجه نحوها هاتفًا: «مَنْ هذا الرجل؟». سأل أيوب وهو يرتشف الحلبة مصدرًا صوتًا مزعجًا جفـل منه شـارل فانتبه الشـاب المصري لسـلوكه وقرَّع ذاتـه، وهربًا من الحرج اقترب أكثر من صورة الرجل ذي الوجه الخمسيني وكرر السؤال: «مَـنْ هذا؟». دنا منه شـارل وربـت كتفه وقال بفخر: «إنـه العالم مونج.. أفضـل وأهـم رجل مـع نابليون.. إنه مكتشـف علم الهندسـة الوصفية». علـى الفـور صاح أيوب متسـائلًا: «كيـف تصفه بأنه رجـل فاضل ويقبل المشاركة مع مجرم وقاتل مثل بونابرته ليحتل بلادنا؟». مطَّ شارل شفتيه ورفـع منكبيـه ونطق بكلمة واحدة مشـحونة بقلة الحيلـة وعجز كبير عن الفهم. قـال: «لا أعرف»، ثم أكمل بنبرة يقينية: «يبدو أن بونابرت يمتلك مهارة فائقة في إقناع الآخرين بمشـروعاته العجيبة وطموحاته المجنونة، وقد وعد في خطبة طويلة ألقاها في مدينة طولون كل جندي بمنحه ستة أفدنة نظير انضمامه إلى حملته كما قال لي الضابط مواريه.. كان ذلك في مايو 1798، أي قبل أن تبحر البوارج إلى الإسكندرية بأسابيع قليلة».

غمغم أيوب متسـائلًا بلهفة: «لم أفهم معنى الهندسة الوصفية؟ وأين تقـع مدينة طولـون هذه؟». رفع شـارل حاجبيه إعجابًا بالشـاب وصاح: «أنت إنسان شغوف بالمعرفة يا أيوب وينتظرك مستقبل باهر، أما طولون

fb/mashro3pdf

«مدينة ساحلية جنوبي فرنسا وقد انطلق منها أسطول نابليون مبحرًا إلى الإسكندرية». ثم راح الرسام يشرح لضيفه مصطلح الهندسة الوصفية بإيجاز وحسب وعيه البسيط لها حين أتاحت له الظروف أن يرسم العالم مونج في بيته المجاور لقصر محمد بك الألفي. ذلك القصر الذي استولى عليه بونابرت واتخذه مقرًّا له بالأزبكية بعد هروب صاحبه. هناك تحدث مونج طويلًا بفخر عن اكتشافه، وحاول أن يقدم تبسيطًا للعلم الجديد أمام الرسام بقوله: «الهندسة الوصفية يا شارل علم يبحث في الخطوط والزوايا والمساحات والأحجام والأشكال والمجسمات التي تتقاطع في الفراغ». لم يتردد شارل في إبداء الإعجاب بالعالم وحكمته وصوته الرخيم، لكنه تحرج أن يسأله كيف قبلت المشاركة في حملة تستهدف احتلال البلاد الأخرى وقتل شعبها؟

في ذلك النهار الغريب استمر أيوب في ضيافة الرسام وقتًا طويلًا يسأل ويستفسر ويتلقى إجابات مثيرة ومربكة لدرجة أنه لم ينتبه إلى أذان العصر الذي ترامى إليه صوته من جامع الأقمر، ولما طلب شارل من خادمه أن يوقد المشاعل والشموع مع بداية انحسار الشمس وذبول الضوء في النوافذ، اضطر أيوب إلى الانصراف حتى يصلي العصر قبل أن يُرفع أذان المغرب الذي أوشك. صافحه شارل بحرارة مودعًا، لكنه همس في أذنه بجملة أربكت الشاب الصغير. قال شارل: «مهنة النساخ مهنة جميلة حقًّا.. لكن ليس لها مستقبل بكل أسف يا أيوب»!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

حيرة الثوار

تسلل شبح في الظلمة. عَبَرَ حارة المشهد الحسيني، التفت خلفه أكثر من مرة ليطمئن ألا أحد يتبعه، ثم اخترق الجمالية فباب الفتوح قاصدًا الخلاء على مشارف الصحراء. وفي الوقت نفسه انفلت شبح آخر من فراش الزوجية وغادر بيته بحارة برجوان متوجهًا نحو الخلاء. عند شجرة جميز معمرة على حافة صحراء الدراسة، وتحت أضواء النجوم المتألقة، التقى أيوب وعلي أبو حمص. يونيو لم يعلن عن حضوره القاسي بعد، فالهواء بارد وطري في هذا الوقت المتأخر من الليل. «لقد تأخر دياب وشلضم»، بادر أيوب بالكلام بقلق، وهو يفترش الأرض مادًا ساقيه ومستندًا بظهره على جذع الجميزة. قبل أن يرد علي أقبل الاثنان معًا من خلف البيت الوحيد في المكان.. بيت العفاريت الذي يشبه نجمة ضالة في ليل معتم. جلس الأصدقاء الأربعة على الأرض وقد صنعوا شبه دائرة صغيرة. افتتح أيوب الكلام بالصلاة والسلام على الرسول الكريم متمنيًا ومؤكدًا أن النصر في النهاية للإسلام وللمسلمين، وأن الله نصرهم على جنود الفرنساوية لأنهم على حق. ثم قدم التهنئة لرفاقه مثمنًا الكفاح الذي بذلوه للدفاع عن الإسلام ضد المحتلين الصليبيين الكفار وسأل بهمس:

fb/mashro3pdf

- أظنكم علمتم أن مفاوضات تجري مع المجرم مينو لينسحب جيش الفرنساوية ويغادر مصر نهائيًا، فماذا نحن فاعلون؟

ردَّ علي بحماسة وهو يوزع نظره بينهم ليستزيد من إيمانهم بالقضية

- كما نحن يا أيوب.. لن نتوقف عن مهاجمتهم لحظة حتى يتركوا بلاد المسلمين!

وعقب شلضم السقاء:

- أظن أنه من المناسب أن نوقف نشاطنا الآن ما داموا سيرحلون، وعلينا أن نشكر الله ألا أحد منا قد استشهد منذ أقسمنا هنا على مهاجمة الفرنساوية الكفار ونصرة الإسلام قبل ثلاث سنوات إلا المرحوم خليل المنوفي، فلنقرأ الفاتحة على روحه الطاهرة.. أعني أننا على أتم الاستعداد للشهادة لو بدوا سادرين في غيهم!

لهجت الألسن بالفاتحة وتذكر كل منهم صديقهم الشهيد الذي استشهد في ساحة جامع الأزهر في ثورة القاهرة.

- أنا مع مفاتحة الشيخ السادات في هذا الأمر، فالرجل يمتلك ذهنًا صافيًا ويتسم بالحكمة.

هكذا قال دياب، وهو يرمق الزعيم بنظرة فاحصة. فقال أيوب:

- لست مع هذا الرأي على الإطلاق لأن لا أحد يعلم بوجودنا ولا الشيخ السادات نفسه، ولا تنسوا أنه إنسان متغطرس. صحيح أنه يوجد عديد

fb/mashro3pdf

من الناس يشك كثيرًا في أن هناك عصبة تخطط لقتل الفرنساوية، لكننا بعيدون تمامًا عن الشبهات، ولقد بدأنا منفردين وسنظل منفردين، ويبقى للسيد عمر مكرم فضل الإلهام والتحريض لا أكثر ولا أقل.

غمغم علي وشلضم في صوت واحد تقريبًا:

اللهم احفظ السيد عمر مكرم وأعده من بلاد الشام سالمًا!

لاحت نظرة غامضة من أيوب نحو السماء، فبادره دياب سائلًا:

لكنك لم تقل رأيك يا أيوب.. ماذا سنفعل مع الفرنساوية؟

استردَّ بصره من المجهول وقال دون أن يوجِّه كلامه لشخص محدد:

أرى أننا يجب أن نكف عن قتلهم ماداموا سيرحلون!

أطلق دياب ضحكة ساخرة وقال:

- يبدو أن علاقتك الجديدة بالرسام الفرنساوي قد أفسدت عليك عقلك وأرخت عنك عضلاتك!

حدجه أيوب بنظرة عتاب قاسية، وهبَّ ليتكلم، لكن شلضم السقاء سبق الجميع مذكرًا:

- يا جماعة.. وإن جنحوا للسلم فاجنح لها!

fb/mashro3pdf

ثم أضاف سريعًا :

- أنا أعرف هذا الرسام الفرنساوي. إنه رجل طيب، فقد رأيته كثيرًا في أكثر من مكان قبل أن يأتي الفرنساوية، وكم من مرة شاهدته في دار إيواظ بك وأنا أنقل لهم الماء وأملأ الأزيار وحوض الدواب.

خيم صمت للحظات وأخذ كل منهم يقلب الفكرة في رأسه، لكن أيوب كان قد حسم الأمر، فقال بحزم:

- حقًّا.. إن جنحوا للسلم فاجنح لها.. فلنكف شهرًا عن مطاردتهم وقتلهم، فإذا لانوا واستجابوا وغادروا بلادنا، فمع ألف سلامة، لكن إن غدروا وأجرموا، فليس لهم منا سوى هذه!

وأخرج مُدية حامية من بين طيات ملابسه، ورفعها بيمينه إلى أعلى فانعكست على نصلها تموجات ضوئية منبعثة من النجوم المتلألئة!

* * *

fb/mashro3pdf

مسعدة حجاب

منذ هبط الخواجة شارل أرض القاهرة، وهو لم يعدم الوسيلة في إطفاء نيران شهوته، في البداية استعان بتاجر فرنسي يقيم في باب الخلق، حيث اصطحبه إلى ماخور تديره امرأة فرنسية يقع في الحارة المقابلة لجامع البنات، توفر المتع الحسية للمحرومين والمكتئبين من بني جلدتها ومن الأورُبيين المقيمين في القاهرة نظير مبلغ معلوم، لكنه في كل مرة يقضي فيها وطره كانت نوبة من شجن تدهمه حتى صباح اليوم التالي، حيث تظل تقرع روحه ذكرى روز وحسنها البائد، فيقرر عدم الذهاب مرة أخرى، لكن اضطرام الجسد بالشهوة يقهر القرارات النبيلة المتعجلة، فيجد قدميه تجرانه نحو باب الخلق حيث بائعة اللذة المسروقة. وفي إحدى الليالي - قبل رحيل الفرنساوية عن مصر بأربعين يومًا - اصطدمت به عند السكرية امرأة مصرية بدينة نسبيًا. كان عائدًا من الروضة حيث أمضى نهاره هناك يرسم المراكب الرائحة والغادية في النيل. لم يكن اصطدامًا عفويًا كما اعتقد في أول الأمر، بل ظلت المرأة تراقب الرسام الفرنسي لمدة تزيد على شهرين حين رأته، وقد انتبذ مكانًا قصيًا، جالسًا على كرسي من الخوص وأمامه لوحة كبيرة يصوِّر فيها مسجد المؤيد. آنذاك انبهرت مسعدة حجاب باللوحة وراسمها، وظلت ترمقه بإعجاب،

fb/mashro3pdf

فلما اكتشفت أنه يجيد العربية طار لُبُّها، وأيقنت أنه رجل حياتها المقبل بعد أن لقي زوجها مصرعه قبل سنة على يد فتوة العطوف.

تقصَّت مسعدة خبر شارل وأحواله، وعلمت من خادمتها المخلصة أم إمام أنه يقيم بمفرده، وأعانها المال الكثير الذي ورثته عن زوجها في الإنفاق على جواسيسها من الرجال والنساء الذين أرسلتهم خلف المعشوق الفرنسي في كل مكان، حيث أوامر المرأة القوية تقضي بتقديم التقارير عن حركته بعد كل أذان للصلاة. وهكذا جاءها نبأ يقين بأن الرسام الفرنسي سيمر الليلة عند السكرية عقب انتهاء رحلته اليومية التي يقطعها نحو الروضة في الصباح ويعود إلى مسكنه في الدرب الأصفر مع حلول المساء. ترصدته في الظلام مدججة بغريزة أنثوية طاغية وقد تعطرت بما يكفي لاستفزاز مشاعره الذكورية عندما تحتك به. كما أمرت بأن يُحمل سنقر المعتوه ويقذف به عند باب النصر تلك الليلة حتى لا يفسد عليها خطتها، ذلك أن سنقر يهوى التجوال ليلًا في الحارة فيرتطم بالعابرين الغافلين فيتلقى ما تيسر من صدقات أو شتائم ولعنات. نجحت الخطة واختفى سنقر من الحارة ووجد شارل نفسه مسحوبًا نحو دار مسعدة حجاب بحجة أن قدمها اليسرى التوت فرجته أن يعاونها في الوصول إلى دارها القريبة.

fb/mashro3pdf

حتى هذه اللحظة لم يكن شارل قد تذوق فواكه المرأة المصرية رغم أنه تلقى أكثر من رسالة غواية من قِبل بعض العاهرات الهائمات؛ إذ كبح حذره الدائم أية طموحات جنسية مع نساء مصر، وكمْ تذكر الدروس التي

اماها في المعهد القومي الفرنسي بباريس وتأكيد المُعلِّم أكثر من مرة . رة قاطعة: «الجنس عند العرب هو الكارثة الكبرى، وإياكم والاقتراب .ن نسائهم بالحسنى أو بالمكر أو بالغزل، فالرجال العرب لايتفاهمون ي هذه المسائل على الإطلاق، والدم يسيل لأتفه سبب حتى لو اقتصر ملى نظرة عين».

حفظ شارل الدرس جيدًا وذكَّر نفسه به كلما لمح فتاة رقيقة في الطريق العام أو غانية مبتذلة حتى يستعين بالذكرى على شكم رغباته المتأججة؛ لذا اعتراه اضطراب كبير عندما وجد نفسه داخل دار فسيحة معبقة بالبخور والعطور المثيرة، ولا يوجد بها رجل واحد. لم تمهله مسعدة الوقت الكافي ليفكر ويسترد أنفاسه؛ إذ همست بغنج: «لا تخشَ شيئًا.. هذه داري.. أنت هنا في مأمن كامل».. ثم بضحكة مجلجلة: «حتى سنقر المعتوه ذاب في مقابر باب النصر». لم يفهم العبارة الأخيرة لكنه استسلم سريعًا لنداء الشهوة مدفوعًا بسحر المغامرة، وتلقف قبلة ساخنة في شفتيه!

في فجر اليوم التالي وعند مغادرته فراش مسعدة ثملًا برجولته ابتسم وهمس باطنه بفرح غاب عنه زمنًا: «حقًّا.. لم تخلق امرأة تقارب المرأة المصرية في العطاء والحنان». وهكذا هجر باب الخلق وداعراته الأوربيات، وصارت السكرية الملاذ والمأوى والحبور، وقد وهبته مسعدة بسخاء، وأودعته رموش جفنيها، فكانت تستقبله كل ثلاثة أيام على الأكثر ليقضيا معًا ليلة مغموسة في عصائر الرغبة الطاغية. يذهب

fb/mashro3pdf

إليها سرًّا مع استقرار المساء في سماء القاهرة متخفيًا في سروال رجل صعيدي عابر استعاره من خادمه سليم. ومن باب خلفي في حارة ضيقة يدلف إلى دار الفردوس لتستقبله صاحبة الجنة بقبلة طويلة تشي في كل مرة بأنها تتنقل رويدًا رويدًا من بحر الشهوة المقطرة إلى الضفة الأخرى للحب الرائق. علمها بعض المفردات الفرنسية، فأعجبتها وحفظت بعضها، كما لقنها دروسًا في فنون الملامسة والمداعبة، واكتشفت أن للجسد طاقات مكنونة لا يعرف تفجيرها الرجل المصري. وأيقنت أن شارل أوتي من علوم التعامل مع المرأة ما لم يُؤتَ رجل آخر، فأجزلت له العطاء في كل شيء. تعد له مائدة عامرة بالحمام والبط والأرز المعمّر والفواكه الطازجة، وكم أسرتها طريقة أدائه في تناول الطعام؛ إذ اكتشفت أنه لا يهجم على الطعام مثل وحش جائع كما كان يفعل زوجها القتيل، بل يقترب منه ببطء ويتذوقه على مهل، ويصر على استخدام السكين والشوكة والملعقة ولا يلمسه بيده مطلقًا، ثم يصر على غسيل فمه فور الانتهاء مباشرة. وفي اللقاء الثاني أحضر معه زجاجة نبيذ أحمر، فأزعجها مذاقه في البداية، لكنها تلذذت به فيما بعد، وحاولت أن تستدرجه لتدخين الحشيش فرفض متعللًا بأن صدره لا يحتمل وكان صادقًا.

بعد أن ارتوت في الليلة الثانية وسكتت عن الجسد الشهوة، طلبت من أم إمام أن تأتيها بالجوزة. لم يتعجب شارل من رؤية امرأة تدخن الحشيش، فقد شاهد بعض النسوة البائسات يُدخّن الحشيش تحت القبو القريب من بيت القاضي. ومع ذلك تساءل كيف لامرأة ثرية أن تُقبل على

fb/mashro3pdf

الحشيش الذي تتعاطاه نساء فقيرات؟ تمددت مسعدة على الفراش شبه عارية وراحت تسرد موجزًا يلخص حياتها وهي تنفث الدخان بسعادة. حكت له أنها وحيدة تاجر غلال كاد يفلس، فاشترى وكالته المعلم حسونة التاجر الثري مفتول العضلات، نظير زواجه منها. وافقت لإنقاذ أبيها، لكنه مات بعد زفافها بشهرين حين علم أن حسونة يضربها. وقد حمدت الله: «لأنني لم أنجب منه، ويبدو أني عاقر، فهو له من البنات سبع ومن الذكور اثنان من زوجاته الأوليات». وفي لحظة جنون طائشة تحدى زوجها فتوة السكرية لأنه رفض أن يدفع له الإتاوة المعتادة، فما كان من الفتوة إلا أن قضى عليه في معركة حامية جرت وقائعها في صحراء المماليك: «فلما أتوني بجثته.. لم أحزن ولم أفرح، وكأنها جثة رجل غريب. لم أعرف ماذا أفعل بها، وقلت دون أن أنظر إليها.. ضعوه في التراب.. مأوى كل جبار عنيد». ثم فسرت مشاعرها السلبية تجاه زوجها القتيل: «إلا الضرب يا شارل.. لقد كان طريق القسوة ممهدًا من قلبه إلى يديه.. فيصفعني في أية لحظة وفي أي مكان وبعنف كأنني عدوة، أو زوجة أبيه الفاجرة.. ولا تنسَ أني زوجته الرابعة آنذاك».

fb/mashro3pdf

في الزيارة الرابعة قرر أن يرسمها عارية، وافقت بشرط أن يغير في ملامح وجهها، فقبل ممتنًا. بدت مسعدة امرأة تحبو نحو الثلاثين، ذات وجه مدوَّر محلى ببشرة خمرية مريحة اللون والملمس. عيناها سوداوان واسعتان.. أنفها دقيق رغم طوله النسبي. جمالها الساكن يخفي رغبة دفينة في التحرر والانطلاق، تحرص على العمل الصالح والإحسان إلى

الفقراء، وتبكي من فرط الإشفاق على المساكين. الجسد بض وممتلئ، وتكور النهدين ولونهما يهشمان أية مقاومة يبديها رجل خبرهما. صوَّرها شارل بألوان زيتية وأخلص في قنص المشهد العام للجسد المشرق، وأضاف ظلالًا هنا ومساحة هناك في الوجه حتى يذوب الشبه تمامًا بين الصورة والأصل، فلما عاينت مسعدة اللوحة، همست بذهول: «سبحان الله!»، ثم انكبت عليه تقبله وتمتصه في جسدها بشبق لا نهائي!

بعد علاقة متأججة ومستقرة دامت عامًا كاملًا مغلفة بالسر اللذيذ والسروال الصعيدي، وذات مغرب تيقنت مسعدة حجاب أنها حامل؛ لأن القمر اكتمل مرتين ولم تأتها العادة الشهرية، ولم تشكُ آلام البطن المعتادة، فارتعبت من الفضيحة وتلاطمت بروحها المشاعر وازداد وجيب قلبها خفقانًا. انتفخت الشرايين بالدم، واضطربت الأوردة بالتوتر. أجل.. لقد أحبَّت شارل بجنون، وعشقت أنوثتها المضاءة بنور رجولته، وقد سألته ذات سَحَر بفزع حين شاع خبر جلاء جنود الفرنساوية عن مصر.. هل سترحل معهم؟ فابتسم وأخبرها أنهم جنود احتلال، أما أنا فرسام دخلت مصر مسالمًا ومُحبًا، ولن أرحل عنها الآن على الأقل. قفزت فرحة وارتمت في حضنه شاكرة وممتنة، فضمها في صدره ليكتشف أنها تحولت داخله من خليلة تطفئ شهوة مستعرة على الدوام إلى امرأة يرتاح إليها ويشعر ببهجة عندما يلقاها. وقال لنفسه: «ما هذا يا شارل؟ أبوادر حب حقيقي؟!».

fb/mashro3pdf

لكـن ما العمل؟ وها هـو القدر يهبها نعمة الأمومـة بعد طول حرمان ويلبي نـداء الغريـزة الأزلية، فكيـف الخروج من هـذا المـأزق الكبير؟ والحـارة لـن تقبل بابـن حرام يترعـرع بين جنباتهـا، كما لـن يرضى الله بزواج مسلمة من مسـيحي؟ «هل أطلب من شارل أن يشهر إسلامه ويعقد قرانه عليَّ؟ هل يقبل؟ أم أنني بذلك سأفقده إلى الأبد؟ هل أجهض ابني القـادم الـذي حلمت بوجوده؟ وأين؟ هل أسـتعين بأم إمـام لتدلني على داية في مكان قصيٍّ حتى لو اضطررت للذهاب إلى بولاق أو السـفر إلى إنبابة أو الجيزة؟ هل أحرم نفسـي من النعمة؟ الأمومة جوهرة مختبئة في سـرداب عميق تنشـدها كل أنثى. حتى الحيوانات تسـتمتع بالأمومة، فلِمَ تحرمني منها يا ألله؟ ما أطيب أن يكون لي ابن جميل مثل أبيه شـارل، وما أقسـى القوانين التي تحول بين امرأة وغريزتها، وما أبشع الزمن الذي يَئِدُ السعادة في مهدها».

لـم تنم تلـك الليلة، حيـث باتت كريشـة ضعيفة تطيح بهـا عواصف عاتيـة، وفي الصباح اطمأنت روحها إلى قرار مزلزل. اسـتدعت خادمتها الأمينـة أم إمـام، وأخبرتها بالقرار. كمـا أمرت القائم علـى إدارة وكالتها بتحصيـل الأمـوال كلها التي لها في السـوق، مؤكدة: «أريدهـا اليوم قبل أذان المغـرب». وفـي المسـاء اسـتقبلت شـارل بملابسـه الصعيدية في موعـده المعتاد وسـكبت في روحه أنهـار الحنان مضاعفة، واسـتنشـقت رحيقه الرجولي بكل ما أوتيت من أنوثة، ولـم تخبره بالكائن الذي يتخلق في أحشـائها، ولا بالقرار الصاعق، وكل ما أنبأته به أنها تنوي زيارة خالة

fb/mashro3pdf

لها في بنها أُصيبت بمرض عضال، وستتغيب عشرين يومًا وحين تعود ستتصل به.

في فجر تلك الليلة، ومع موجات متتالية من نسيم وغبار عصفت بالحي العتيق، وبعد أن ودَّعها شارل بقبلة امتنان ومحبة، هرولت نحو المشربية وتابعت شبح الصعيدي الفرنسي وهو يضمحل في الحارة، فألقت خلفه قبلة في الهواء وهمست: «كم أحبك يا شارل! وكم سأفتقدك!». كانت العربة الكارو بحصانها الأبيض العفي مستعدة أمام وكالة الغوري وقد حُمِّلت بأشيائها الخاصة وثيابها المتنوعة، بعد أن خبأت بين طيات ملابسها صُرَّة كبيرة بها أموال تكفيها لأعوام وتغنيها عن سؤال اللئيم والكريم. صعدت فوق العربة بهمة، وألقت نظرة عامة على الحارة، ثم أمرت السائق بنبرة يختلط فيها الأمل بالخوف: «إلى ميناء بولاق»، وهكذا هجرت مسعدة حجاب الحارة تاركة دارها العامرة في عهدة أم إمام، مصممة على تنفيذ قرارها المزلزل!

* * *

fb/mashro3pdf

العلم العثماني

الحمد لله يا خواجة شارل.. أخيرًا رفرف العلم العثماني مرة أخرى فوق سور القاهرة.

هكذا هتف أيوب السبع متباهيًا وهو يتابع بعينيه السوداوين مداعبات الهواء للبيرق العثماني. كان منتشيًا بفخر استثنائي، فقد شعر أن مشاركته وعصبته بقوة في مقاومة جنود السر عسكر الكبير أمير الجيوش الفرنساوية نابليون بونابرته قد أسهمت بنصيب معتبر في قطف ثمار هذا النصر.

وزع الخواجة شارل نظراته بين أيوب والبيرق المرفرف وقال متحسرًا:

- لا بأس.. لكنني كنت أتمنى أن أرى علمًا مصريًّا يرفرف فوق سور القاهرة.. لا علمًا عثمانيًّا!

قلبت هذه العبارة حياة أيوب السبع رأسًا على عقب، فالشاب الأزهري النابه الذي وُلد في بيت أبيه في حارة المشهد الحسيني لم يكن يرى أي فرق بين مصر والدولة العثمانية مثله مثل جميع سكان المحروسة، فمصر جزء من الأمة الإسلامية، والدين الإسلامي الحنيف هو الذي يجمع كل

fb/mashro3pdf

الشعوب والأمم تحت رايته الشريفة كما يؤمن أيوب، وأن المعركة الكبرى التي خاضها الشعب المصري ضد الفرنسيس كانت لنصرة دين الإسلام، وأن ظلم أمراء المماليك وغطرستهم وسفالتهم محتملة لأنهم مسلمون مثلنا، لكن لا يمكن أن نقبل بأية حال أن يحكمنا رجل يرفع راية الصليب مهما كلفنا الأمر من شهداء كما يقول دومًا شيوخنا الأجلاء وتجارنا الأفاضل.

كانا يجلسان في مقهى مواجه لباب الفتوح من جهة شارع النحاسين. يحتسيان الخروب البارد ويجففان عرقهما بخرق بالية، فقيظ يوليو لا يحتمل هذا النهار، والشمس مصممة على القسوة، والنسيم شحيح ونادر، والمناسبة عزيزة وغالية، فقد انتصر الشعب الأعزل على جيش الشرق ذي العدة والعتاد، وأثبت المصريون أنهم بحق رجال أشداء، والموسيقى التي تصدح بها الحواري والأزقة احتفالًا بالنصر تطرب الأرواح. تلقى أيوب عبارة صديقه الجديد الخواجة شارل بروح لا تريد إفساد فرحتها بما تم إنجازه، فوضع كفه على راحة الرجل الأحمر وقال بنبرة مواسية:

- أعرف أنك حزين يا خواجة شارل؛ لأن بعض أصدقائك من جنود الفرنساوية قد رحلوا مع الراحلين، وأنك قد لا تجد بسهولة مَن يبتاع لوحاتك الجميلة.

fb/mashro3pdf

ثم أردف مسرعًا عندما لمح تقلُّص عضلات وجه الخواجة احتجاجًا:

بالطبع أدرك أنك ضد احتلال بلدك لبلدنا، وأنك قلت هذا في كل مرة تلتقي فيها أحد قادة الفرنساوية.. في الشارع أو في المقهى أو في بيتك ومرسمك، لكنني أعذرك لأنك ستحرم من لقاء أصدقائك الفرنساوية.

ابتسم الخواجة شارل، فبرزت أسنانه الصغيرة الضاربة للصفرة خلف شفتيه الرقيقتين، وضيق عينيه اتقاءً لأثر شدة الشمس، وقال بلهجة مصرية معوجة قليلًا، لكنها مفهومة بسهولة:

- يا أيوب.. يا صديقي الجديد.. أنت تعلم أنني أقيم في مصر منذ خمس سنوات، أي قبل أن يأتي جيش الشرق بعامين. وأنني أحببت هذا البلد الطيب بكل جوارحي، وأن الذعر اعتراني حين وصلت الأخبار المشئومة من الإسكندرية تقول إن جيش الفرنساوية احتل المدينة، وتعلم أيضًا أنني ذهبت إلى السيد عمر مكرم في بيته وأعلنت أمام الشيوخ والعلماء والتجار المجتمعين معه في ذلك الوقت أنني أتبرأ مما تفعله حكومة بلادي، وأنني أتعجب من سلوك حكومتي الجمهورية التي جاءت بعد ثورتنا العظيمة، والتي من المفترض أن تدعو للحرية والإخاء والمساواة، لا أن تخطط وتتآمر لاحتلال البلدان الأخرى، وتعلم كذلك أن..

قاطعه أيوب عندما رآه يلهث وكأنه يدفع تهمة غامضة عن نفسه، وطلب منه بإشارة من يده أن يتريث قليلًا، فالعرق يسيل من جبينه بغزارة،

fb/mashro3pdf

وتنفســه مضطرب، لكن الخواجة شارل الذي تزداد درجة احمرار وجهه مع تفاقم انفعاله ظل يتابع دون أن يأبه لملاحظة صديقه، قائلًا بحماسة

- وتعلـم أنني ذهبتُ إلى الجنرال بونابرت نفســه، والتقيته في مقر قيادته بالأزبكيـة، وقلت له بوضوح إن هذا القصـر الذي اتخذته مقرًّا لك هو قصر الأمير محمد بك الألفي وليس قصرك، ورجوته أن يسحب جيشه ويعـود من حيـث أتى، وفعلتُ ذلك مـع الجنرال كليبر فـي الليلة التي سبقت مصرعه..

توقـف الخواجة شـارل فجأة عن الـكلام حين لاحظ أن سـحابة من حـزن غطـت عيني أيوب، فقـد تذكر صديقه فـي الأزهر خليـل المنوفي ووالدته التي رحلت بعده من فرط الحزن على وحيدها. هممهم الخواجة شـارل لينقـذ صديقـه من فوضـى الخواطر الحزينـة، وتناول مـا بقي من الخروب دفعة واحدة، وعاد بجذعه إلى الخلف وهتف:

- يجـب أن تـدرك أنني ضد احتلال أي بلد لأي بلـد، وأنتم هنا في مصر بلد محتل!

تعجـب أيـوب واعتدل في مجلسـه وتحفـز حتى صار وجهـه مقابلًا تمامًا لوجه صديقه، وسأل مستنكرًا بعد أن أزاح الذكرى الأليمة:

- لسنا محتلين يا خواجة.. هل تقصد المماليك الأوباش؟

ابتسـم الخواجة شارل فتألقت عيناه الزرقاوان اللتان ستسحران ياقوتة الحبشية وقال:

fb/mashro3pdf

للأسـف يـا صديقـي.. بلدكم محتـل منذ قـرون ثلاثة من قبـل الدولة العثمانيـة، وقبلها احتله الرومانيون واليونانيون والعرب.. أنتم يا أيوب وطـن محتـل منذ سـقوط الدولة الفرعونيـة قبل ألفي سـنة وحتى هذه اللحظة!

كأن صاعقـة ضربت رأسـه.. فاجتاحت روحه رياح الأسـئلة القلقة، ونوترت أعصابه.. وتسـاءل خاطره.. ما هذا الـكلام؟ نحن محتلون منذ الفي سـنة! شرد في الأفق.. تفرس في وجه الخواجة شارل دون أن يفتح فمـه، ثم عاد إلى التحديق في الفـراغ قليل الحيلة. فجأة.. انتبه أيوب إلى أصوات الغلمان الذين انبثقوا من العدم أمام المقهى، حيث سحبوا حمارًا وأركبـوا عليـه بالمقلوب زميلًا لهم وقد ألبسـوه ثيابًا تشـبه ثياب الجنود الفرنسـاوية، وظلوا يهتفون ويهللون: «الحمار أهُه»، بينما الغلام الراكب يحاول تقليد حركات «سـاري عـسكر الفرنسيس أبونابارته»، كما يقولون عنه، فيمد ذراعه إلى آخره ويشـير بسـبابته مثله، ويرفع رأسـه بثقة بعد أن وضع فوقه طاقية مهيأة بشكل سيئ لتشبه قلنسوة الجنرال الفرنساوي، ثم يشـد لجام الحمار بقوة كما لـو كان يمتطي حصانًا. ضحك رواد المقهى على المشـهد العفوي، وأسرع الخواجة شارل ليرسـم الغلمان والحمار وراكبـه بقطعـة مـن الفحـم النباتي علـى ورق أصفـر فاتح يحملـه دومًا أينما ذهب.

تأمل أيوب بإعجاب الحركة السـريعة ليد الخواجة شارل وهو يلتقط تفاصيل اللقطة العابرة، ثم قال وهو يعاين اللوحة:

fb/mashro3pdf

- بلدنا ليس محتلًا يا خواجة شارل، فالسلطان العثماني الذي يحكم رجل مسلم يصلي ويصوم مثلنا، والعثمانيون مسلمون مثلنا، وهم يمثلون دولة الخلافة التي أنشئت منذ بعث الله جل شأنه رسوله الكريم محمد عليه أفضل الصلاة والسلام.. والعرب الذين فتحوا مصر أضاءوا قلوبنا بنور الإسلام.. مشكلتك يا مسيو أنك لا تعرف الإسلام.

ضحك الخواجة شارل عندما نطق أيوب بكلمة «مسيو»؛ لأنه يمط آخرها بطريقة ظريفة، وظل قابضًا على الفحم النباتي بيده وشرع يظلل الجانب الأيسر من رأس الحمار فبدا طبيعيًا بصورة لافتة، ثم صاح:

- لا يا أيوب.. أنا أعرف الإسلام جيدًا.. وأعرف أيضًا تاريخ مصر بشكل معقول. لكن يبدو أنك أنت مَن لا يعرفني.. ألم أقل لك في أول لقاء بيننا في بيتي أنني درست دينكم ولغتكم العربية في المعهد القومي الفرنسي للغات والحضارة الشرقية بباريس قبل أن آتي إلى هنا، لكنني أعرف كذلك المعاني النبيلة التي أطلقتها ثورتنا الفرنساوية، وأقصد شعارها: «الحرية/ الإخاء/ المساواة».

قبل أن يرد لمح أيوب الجارية ياقوتة الحبشية مقبلة من جهة النحاسين وتركض نحوهما، فلما اقتربت من الخواجة شارل وصارت قبالته قالت بحسٍّ لاهثٍ:

- لقد بحثت عنك في كل مكان يا خواجة شارل.. ذهبتُ إلى منزلك فلم أجدك، وقد أخبرني الشحاذ المقيم عند جامع الأقمر أنك هنا.. ميدي إيواظ بك يريدك حالًا!

fb/mashro3pdf

عايـن أيـوب السـبع جسـد الجاريـة المختبـئ داخـل جلباب أسـود
، طرات ذكورية ملؤها اشـتهاء، فقد رحلت حسـنات إلى بولاق مع أمها
،، وج والدتهـا وتركته نهبًـا لليالي الحرمان، وهـمَّ بمواصلة حديثه لكنه
ا، ـسـك لسـانه حين رأى الخواجة شـارل يلملـم حاجياته سـريعًا ويقول
لأيوب معتذرًا:

- سنكمل كلامنا عندما تزورني في بيتي الليلة!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

عند الخرابة

في طريقه إلى جامع الحسين ليؤدي صلاة المغرب كالمعتاد، تلقت اذنا أيوب السبع رسالة صوتية تهمس باسمه. توقف.. بحث عن مصدر الصوت وسط زحام ساعة المغربية.. دار حول نفسه، ولما لم يرَ أحدًا واصل طريقه، لكن الصوت الذي يطارده ما زال يتردد، فوقف مرة أخرى أمام دكان حمودة الطرشجي، فخرجت على الفور من الدكان خليلته الغائبة حسنات لتمر أمامه وتهمس دون أن يلحظها أحد:

سأنتظرك بعد صلاة المغرب عند الخرابة.. ضروري يا سي أيوب.

ارتبك للحظة، هزَّ رأسه بالموافقة دون أن يفتح فمه، ثم واصل طريقه باعتداد وهو يرمق العابرين بطرف خفي. لاح أيوب مثل قمر مكتمل.. جبين مشرق ومنبسط.. بشرة خمرية صافية.. عينان سوداوان مترعتان بنضارة الفتوة والشباب يعلوهما حاجبان رقيقان.. شارب صغير مثل خط أسود فاحم وشفتان متوازنتان ولحية مشذبة. يرتدي جلبابًا أبيض ويعتمر عمامة ملونة من قماش هندي. في قدميه نعال من الجلد غالي الثمن حيث تتعرض قدماه لتقرحات إذا وضعهما في نعال من الجلد الرخيص. ورث عن أبيه بيتًا صغيرًا ومكتبة لنسخ الكتب ونحو مائة بورصة (البورصة 25 ألف بارة، والبارة ربع مليم) ومجموعة لا بأس

fb/mashro3pdf

بهـا من القطـع الذهبية والفضيـة. تلقى تعليمـه في الأزهر وحقـق نبوغًا مشـهودًا، لكنه رفـض العمل بالأزهر وآثـر التفرغ لمهنة أبيـه، وقد حقق نجاحًا ملحوظًا في نسـخ الكتب برغم صغر سـنه. له ثلاث شـقيقات قد تزوجـن جميعًا، وشـقيق واحد لقي مصرعـه على يد أحـد مماليك مراد بك، فاغتمَّ أبوه ومات بحسرته قبل أن تطأ قدم بونابرته أرض الإسكندرية بعام واحد فقط.

مع أمه الأرملة الثكلى يقيم، وقد حاولتْ مرارًا أن تدفعه للزواج لكنه يرفض متعللًا بحجج لا تقنع الأمهات القلقات، لدرجة أنها صرخت مرة في وجهه قائلة: «بلغت من عمرك تسـعة عشـر عامًا.. أقرانك سيصيرون أجدادًا في القريب، فمتى تتزوج؟». ومع ذلك فسوف يخفق بالحب قلبه مرة واحدة فقط عندما أطارت لبه العينان الزرقاوان حين وجد نفسه فجأة أمام فرانسوا الجميلة على شاطئ البحر!

عند الباب الرئيسـي لجامع الحسـين لم يتخلص أيـوب من الارتباك الـذي أحدثـه الظهـور المباغت لحسـنات، فصافـح معارفـه وأصدقاءه بحـركات آلية، لكنـه تبادل معهم التهانـي بزوال الغمة الفرنسـاوية. وفي صلاته تعذبت روحه، ووجد نفسـه يحن إلى مذاق الخرابة، حيث تعانق الجسـد والشبق، وحيث سخونة الملمس الناعم، لكنه أكثر من شكر الله لأنـه خلصنا من الجنـرال بونابرته وجنوده الكفار، وحين فرغ من الصلاة وأوشـك على الخروج من الجامع أقبل عليه شـيخ كبير يمسك بيده كتابًا متهالكًا وسأله بعشم:

- كم من الوقت تحتاج يا بني لتنسخ لي هذا الكتاب؟ وكم يكلفني؟

fb/mashro3pdf

تصفح أيوب الكتاب وقال بهدوء:

سأنسخه لك في ثلاثين يومًا.. وأجري سبعون نصف فضة.

لم يتم الاتفاق، فقد اعتبر الرجل أن التكلفة باهظة الثمن، ولم يحزن أيوب على ضياع الصفقة، فسوف ييسر له الله بدلًا منها الكثير، فهو يدري إمكاناته في نسخ الكتب؛ إذ يمتلك مهارة الكتابة بخط النسخ الجميل، كما أنه الوحيد الذي يقوم بالنسخ على الورق الرومي الثقيل، وهو ورق فاخر ومكلف وقادر على مقاومة غدر الزمن ومكائد البيئة، كما أنه من القلائل جدًا الذين يلتزمون بالانتهاء من العمل في الموعد المحدد سلفًا، وقد اكتسب بذلك سمعة ناصعة في مجال نسخ الكتب مثل المرحوم أبيه.

تلقى فور خروجه من جامع الحسين نسمات هواءٍ خجولٍ خففت قليلًا من أثر الحر الشديد الذي اكتوت به القاهرة طوال النهار. عاد من حيث أتى، فلاحت منه التفاتة عفوية نحو دكان حمودة الطرشجي، وتذكر موعد حسنات. تردد.. فقد انتهى أمرها منذ زمن، ورحلت مع أمها وزوجها لتقيما مع خالتها في بولاق، فما الذي جاء بها اليوم؟ تجاوز بيته كالمنوَّم وسار في اتجاه الخرابة مدفوعًا بقوانين الغريزة الجبارة. عند مدخل حارة قصر الشوق انتبه إلى أنه يلبي نداء الغواية، فامتعض باطنه. توقف وقرر للحظة العودة إلى البيت، لكن أوقفه في مكانه نداء صديقه علي أبو حمص الذي تصادف مروره بصحبة زوجته؛ إذ تركها عند الناصية وهرول نحوه صائحًا:

- كفارة يا رجل.. الحمد لله.. طردناهم.

fb/mashro3pdf

وقبل أن يرد حرك علي كتفيه سائلًا باستغراب:

- أين كنت عندما رفعوا علمنا فوق سور القاهرة؟

أربكته كلمة «علمنا»، وكاد يقول له إنه «علم العثمانيين» مثلما سمع اليوم من الخواجة شارل، لكنه تراجع وقال وهو ما زال تحت تأثير الغواية المكتومة:

- كنت مع الخواجة شارل.. شاهدنا رفع العلم ونحن جالسان في مقهى باب الفتوح.

غمغم علي أبو حمص وهتف مسرورًا:

- لقد شاركت مع الجنود العثمانيين في رفع العلم عند باب النصر.

ثم فجأة سأله مستفهمًا:

- إلى أين أنت ذاهب يا أيوب؟

اضطرب للحظة، لكنه أبدى رباطة جأش وقال دون أن ينظر في عيني صديقه:

- سأزور الخواجة شارل في بيته.

لكن علي أبو حمص أصر على المزيد من إرباكه إذ صاح مستنكرًا:

- وما الذي أتى بك من هذه الناحية؟ فبيت الخواجة في مدخل الدرب الأصفر.

fb/mashro3pdf

أنفذتـه المقاديـر من إلحـاح الصديـق الحميم؛ إذ سـمع علي صـوت ، و جتـه تناديـه فاسـتأذن وانصرف. لـم يتحرك أيـوب لثـوانٍ، وقرر طرد ـيطان الشهوة والتوجه نحو بيت الخواجة شارل، وقبل أن يستدير تلقى ا.حزة غير مرئية في ظهره مصحوبة بصوت ناعم:

هيا.. اتبعني نحو الخرابة.

انتصـرت الأنوثـة، وتحرك خلـف حسـنات متجنبًا النظـر إليها حتى لا يلفـت انتبـاه العابريـن والجالسـين أمـام بيوتهم يتسـولون النسـمات المدللـة. وقد محق تـردده وهمـس باطنه: «فلتكن المـرة الأخيرة». الليل سطا واستقر، والنجوم تلمع بخجل من أعشاشها السماوية والظلمة تبدو في نهاية الحارة أشـد كثافة وهذا هو المراد. انعطف يمينًا في حارة ضيقة من باب التمويه قبل أن يصل إلى الخرابة القريبة من الخلاء. وقف صامتًا كتمثال خلف عربة كارو مكسـورة يرقب الرائح والغادي بنفس مضطربة، فلمـا أيقـن من أنـه لا يوجـد عابر سـبيل، خرج مـن مكمنـه وتوجَّه نحو الخرابة، حيث بيت العفاريت، مغمورًا بفراغ معتم مخيف.

لمحـت حسـنات نصـف وجهه في ضـوء نجمة ذابلة وهـو يدلف من باب البيت، فأقبلت عليه واحتضنته بقوة وهمسـت:

- أوحشتني كثيرًا.

وفي لحظات اتقد الفضاء بنيران الانصهار، وتأوهت لهما النجوم من فرط الاندماج وقوته الجنونية.

fb/mashro3pdf

بعد أن تم المراد، ونال نصيبه من البهجة، وقطفت حظها من المسرّة، اكتشفت حسنات أن أيوب عضها في عنقها.. في المكان نفسه الذي عضها فيه من قبل، فسال منه دم غزير، مسحته بطرف جلبابها، وأزالته بماءٍ آسن تبقى في الزلعة، وهي توبخه بغنج واصفة إياه بالوحش الكاسر!

اصطحبها أيوب خارج البيت ليهربا من سخونة جدرانه وهما يجففان عرقًا غزيرًا تدفق من مسام جسديهما. تلقى الاثنان نسمات منعشة، فلم تشأ حسنات أن تواصل السير، واستجابت لخاطر مريح دعاها لأن تتمدد على الأرض وتترك جسمها يفرح بنعومة الرمل. تمدد بجوارها، وألقى بصره نحو القبة المعتمة، فلم يلمح سوى نجيمات قليلة متناثرة وتساءل باطنه متعجبًا: «لماذا نتعذب لدرجة الجنون ما دامت السعادة سهلة وقريبة؟». أما حسنات فهمست بنبرة لاهثة وهي تحك جسدها كله في جسده:

- سي أيوب.. لقد هربتُ من أمي.. وجئتُ إليك لتنقذني من زوجها الخسيس.

* * *

fb/mashro3pdf

ايوب - الخطر يحدق بي

5 نوفمبر 1805

أفزعني علي أبو حمص صباح اليوم حين أخبرني أن البصاصين اقتحموا بيت دياب ضاضو ونزعوه من فراشه قبيل أذان الفجر، وذهبوا به إلى مكان مجهول، وأن زوجته ظلت تصرخ وتولول حتى صفعها أحد البصاصين، فسقطت على الأرض مغشيًا عليها.

هرعنا علي وأنا إلى شيخ الحارة فلم يشفِ غليلنا، وتهرب من الإجابة عن أسئلتنا، وزعم أن الأمر لا يخصه من قريب أو بعيد، كما فعل حين قتلوا فرانسوا الجميلة، لكنه وعد بعرض الحكاية على الكبراء. لم أكن أرتاح لهذا الرجل ولم أحبه يومًا، فله سحنة ثعلب عجوز بنظراته المريبة الشكاكة في الجميع.

حين عدت إلى البيت استقبلتني سعدية بالدموع، فارتجفت وضممتها إلى صدري سائلًا بريبة: «ما الخبر؟»، جففت دموعها، وضمتني بقوة إلى صدرها ورجتني ألا أتركها أبدًا، فقد خشيت أن أضيع مثلما ضاع دياب ضاضو، وأن زوجته زارتها قبل قليل وهي تندب حظ زوجها. ثم سألتني

fb/mashro3pdf

بارتياب: «ماذا يربطك بدياب ضاضو؟ بصراحة أنا لا أحب هذا الشاب، وأشعر أنه شخص غير مريح».

نهرتهـا، فلم تكن بـي أعصاب، وأخبرتها بعنف: «لـولا أنكِ حامل.. لأعدتكِ إلى بيت أبيكِ»، ثم أجلستها على الكنبة برفق وأنا أرفع إصبعي في وجهها محذرًا: «لا دخل لكِ بأصدقائي، ولا تتدخلي فيما لا يعنيكِ». ثـم أضفت بعصبيـة: «لقد فعل البصاصـون ذلك من قبـل، وقبضوا على دياب، ثم أعادوه إلى بيته بعد أيام قليلة دون أن يمسـه سوء، فلا تقلقي!».

بكـت سـعدية، وهي ترمقنـي بنظرات استغراب، كأنهـا تراني للمرة الأولـى، والحـق معهـا فلم يحـدث أن عنفتها بهذه القسـوة منـذ زواجنا حتـى الآن، إلا مرة واحدة فقـط حين رفضت مشـاركتي الفراش وإطفاء لهيبـي بحجة التعب. آنذاك أشـهرت في وجهها سـلاح الغضب والضيق منهـا، فلم تطل الفراق، وألقت بجسـدها كله فـي أحضاني ونمنا هانئين. أمـا اليوم، فقـد ارتفع صوتـي وتناثـرت تحذيراتـي وازدادت تهديداتي، فالقبض على دياب ضاضو أمر ينذر بخطر داهم، ويفتح باب جهنم على مستقبلنا.. وقبل أسـبوع نصحني الخواجة شارل قائلًا: «حذارِ من رجال الشرطة يا أيوب.. فأي حاكم جديد يتربص حتمًا بمعارضيه، ولا يحتمل كلمة واحدة تندد به ولو على استحياء».

fb/mashro3pdf

هـل يعرفون شـيئًا عن عصبتنا؟ هـل بلغهم خبر عـن أصحاب الآراء المناهضـة لتولي محمد علـي حكم مصر؟ هل سـينجحون في الوصول إلينا نحن الذين نحضُّ الناس على المطالبة بأن يحكم مصر رجل مصري

من أهلها، فكفانا غرباء يأتون من المشرق والمغرب يحكموننا وينهبوننا ويذلون شعبنا باسم الدين، ونحن نرضخ لهم لأنهم مسلمون مثلنا؟ لقد أخفق نابليون – وهو مَن هو – في معرفة مَن الذي يقتل جنود الفرنساوية في لحظات السلم، فهل سيفلح رجال الوالي الجديد في التوصل إلينا؟ إن الأمل لم ينطفئ نوره بعد في أن يفهم المصريون ضرورة أن يحكمنا رجل من أهلنا يعرف لغتنا ويقيم العدل بيننا، وكثير من الناس ينصتون إلى ما نقوله باهتمام بالغ، فكيف عرفوا أن دياب ضاضو واحد من العصبة التي تبشر بالأفكار الجديدة؟ ولماذا لا يكون شخصًا آخر؟ ترى.. هل سيعذبونه؟ هل سيتحمل الماء المغلي والجَلْد اليومي؟ هل سيُفشي سر عصبتنا؟ هل سيحدد لهم أعضاءها بالاسم؟ لقد اعتقلوه من قبل وظل متماسكًا شهمًا أصيلًا لم يكشف سرنا ولم يفصح عن شيء، لكن هذه المرة الأمر يختلف، فالحاكم الجديد شرس وداهية، بينما بونابرته كان مرنًا يداهن الشيوخ ويجاملهم إذا قصدوه في أمر أحد، وهو ما حدث حين أمر بالإفراج عن دياب ضاضو في المرة الأولى إرضاءً لتدخل الشيوخ والتجار.

إن الخطر عظيم، وعلي أبو حمص اقترح عليّ قبل ساعة أن نهرب عند أحد أقربائه في إنبابة حتى تزول الغمة وتتضح الرؤية. رفضت بشدة، وقلت له لو هربنا لالتصقت التهمة بنا، هذا إذا ضعف دياب وخارت قدرته عل تحمل التعذيب وأفشى سرنا. ومع ذلك فقد أقنعته بسهولة أن نتوقف تمامًا عن التبشير بآرائنا لحين معرفة مصير دياب، حتى

fb/mashro3pdf

لا نتعرض لمكائد الأرناؤوط وعنفهم، ثم تركته على موعد في الخرابة بعد صلاة المغرب.

لعلي أردت الانفراد بنفسي ومراجعة أفكاري، لكن سعدية أفسدت مزاجي وفجرت السخط داخلي بكلامها السخيف عن دياب، فساعدني يا رب لأضبط أعصابي ولا تنفلت مني كلمة تجرح زوجتي أم ابني الأول.

لم أدرِ أنني أجلس على الأرض وأن العرق يتصبب من جبيني إلا حين جاءتني سعدية بطست الماء والإبريق النحاسي والصابون وجلست بجواري، وهمست وهي تربت فخذي: «ما بك يا أيوب؟ ما كل هذا الشرود؟ هل حدث مكروه لا سمح الله؟ وكيف يتصبب العرق من جبينك بغزارة هكذا ونحن في بابة ولسنا في أبيب؟ لا تغضب مني.. أنا آسفة.. لكن ماذا أفعل.. إني أحبك وأخشى عليك من الهواء الطائر». ثم برقة شديدة: «من فضلك يا أيوب.. اغسل وجهك من العرق والتراب.. وهيا لتتناول غداءك».

غمغمت معتذرًا وأنا أرنو إليها بحنان، وبصعوبة بالغة حبست دموعي في مقلتي، وضممتها في صدري وهمست: «سامحيني يا سعدية.. فأنا مجهد». ثم قلت في خاطري: «مجهد جدًا جدًا جدًا».

* * *

fb/mashro3pdf

شارل - امرأتي الأسطورية

5 نوفمبر 1805

لم أكن أتخيل أن ما تقوله مسعدة حجاب حقيقة مجسدة كالشمس الساطعة، إلا حين رأيته صباح اليوم عند الروضة يلهو ويمرح. لقد أرسلت لي أمس مساءً خادمتها أم إمام، وطلبت مني أن أنتظرها في الصباح عند شاطئ النيل في الروضة بجوار القصر القديم لمراد بك.

كنت أعرف المكان جيدًا، فمنظر النيل وأشجاره ونخيله من هذه الزاوية مثير ومدهش، وكم وقفت هناك أتأمل وأرسم وألوّن تحت الضوء المبهر للشمس. خرجت من منزلي في السابعة صباحًا ممتطيًا حصاني الأبيض الذي اقتنيته قبل أشهر بعد نفوق بغلتي العزيزة. استقبلتني نسمات منعشة وطرية ازداد معدلها كلما اقتربت من شاطئ النيل. بالي مشغول.. وعقلي مضطرب.. هل حقٌّ ما قالته لي هذه المرأة الأسطورية؟ هل لي ابن يكاد يبلغ الرابعة؟ ولماذا لم تكشف عن وجوده من قبل؟ وأين اختفت به كل هذه الأعوام؟ أذكر جيدًا آخر مرة التقيتها.. حدث ذلك قبل رحيل جيشنا عن مصر بنحو شهرين. كانت في بيتها، وزعمت أنها ستزور قريبة لها في بنها على ما أذكر. لم تكن مضطربة أو قلقة أو يبدو عليها أنها اتخذت قرارًا خطيرًا مثل الذي فعلته.

fb/mashro3pdf

مررت بورشة الحاج ما شاء الله شمس الواعظين عند مدخل السكرية، فألقيت عليه التحية والسلام، فردَّ تحيتي بحفاوة. هذا الفارسي الذي هجر بلاده واستقر في القاهرة يتاجر ويربح مالًا وفيرًا فيؤسس ورشة للخشب هنا ووكالة للغلال في بين القصرين ويبني دارًا فسيحة في الأزبكية. حقًّا ليس مثل القاهرة مكان، فالكل يطمع في خيراتها التي بلا حدود، بينما شعبها أسير الفقر والهموم وجبروت حكامه الغرباء، وها هو محمد علي يستولي على السلطة بدهائه وذكائه وبمعاونة حفنة من المصريين السذج وهو لا يعرف ولا ينطق كلمة واحدة باللغة العربية، فأي شعب أنتم أيها المصريون البسطاء؟!

وجَّهت جوادي لنتجاوز باب زويلة حتى ننعطف نحو درب الجماميز. تناهى إلى سمعي تحيات وضحكات وسلامات وأدعية تخرج من الباعة والعابرين والعاطلين. الحياة تدب في القاهرة وأسواقها وأحيائها بسرعة عجيبة. طرقت أذني كلمات فرنسية مثل «بنجور» و«ميرسي» ينطقها سقاء يحمل قربة فارغة فضحكت. عجيب أمر المصريين، يعشقون الحياة حتى في أحلك الظروف، ولا يتوقفون عن اختراع البسمات وصناعة النكات حتى لو انهمرت فوق رؤوسهم أحجار المصائب. إنهم شعب فولاذي.. لكن يا خسارة.. لو يتعلمون القراءة والكتابة ويخوضون في المعارف الحديثة لتفوقوا علينا نحن الفرنسيين بيسر وسهولة. للأسف إنهم أسرى الخزعبلات والخرافات.. ويستسلمون بسذاجة إلى مشايخ لا يقدِّرون قيمة العقل والتفكير العلمي المنطقي السليم. يظنون أنهم

fb/mashro3pdf

..ا. فون بكل شيء وهم أجهل خلق الله. يؤجلون الاستمتاع بحياتهم ..ا، وهم أنهم سيحصدون المتعة بعد الموت في العالم الآخر. لو كان ..دهم أو حتى خمسهم مثل أيوب السبع لقهروا تخلفهم ونافسوا أورُبا .ي التقدم والرقي.

فجأة ارتجف جوادي وحمحم وتوقف وصهل، فعدت من تأملاتي . ستغربًا. لمحت فرسًا تقف أمام دار الأمير طاز ترعى الحشيش وتلتهمه . .عادة غير مبالية بصاحبنا المشتاق، فابتسمت وقلت لنفسي يبدو أن .وادي يحن إلى التزاوج بقوة. بصعوبة وافق الحصان على مواصلة السير وهو يتلفت خلفه مرسلًا إليها أشواقه عبر صهيله الحزين. قررت ان أطفئ نيران شهوته هذا الأسبوع، ولأكلف خادمي سليم بالبحث عن فرس جاهزة للتزاوج.

من بعيد لمحتها.. لمحته.. الشمس تسطع بقوة وتشاكس عينيَّ، لكنني لمحتهما.. والنسيم يهز أوراق الشجر برفق، فتتماوج بحنان.. لكنني رأيتهما. إنها مسعدة حجاب وابنها.. هل أقول ابني كما زعمت؟ كانت تجلس على سجادة خضراء من الحشيش، بينما يلهو الطفل ويمرح حولها، ثم يطارد حمامة بيضاء تلتقط الحب، كلما اقترب منها تطير. لعلها أكثر مرة يضطرب فيها نبض قلبي هكذا. لا ألتفت إلى بائعة الترمس التي تحرضني على الشراء، ولا أبالي ببعض الصبيان الذين يصيحون ويدورون حول بعضهم ربما في لعبة لا أعرفها.

fb/mashro3pdf

إنها مسعدة حجاب بكامل أنوثتها وسحرها. ترجلت من فوق جوادي وأنا لا أرفع نظري عنها، وربطته في أقرب شجرة. نهضت بحيوية وصافحتني يدًا بيدٍ وهي ترمقني كأنها تريد أن تحتضنني في فؤادها. جمالها ساحر كما هو، وعيناها الواسعتان ترسلان وعودًا وحنينًا، وبصوتٍ يصدر من عمق الروح همست: «كيف حالك يا شارل؟»، وقبل أن أجيب صاحت: «تعالَ يا محمد»، ثم قالت بنبرة يختلط فيها الامتنان بالمعجزة وهي تشير بإصبعها نحو الطفل: «محمد.. ابنك يا شارل»!

* * *

fb/mashro3pdf

القسم الثاني

القاهرة

يوليو 1801/ نوفمبر 1805

الأزهر

11 نوفمبر/ إلى 16 نوفمبر 1805

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

في جامع الأزهر

- قليلًا من الصمت يا إخوان حتى ننصت إلى فضيلة شيخ الأزهر.

هكذا صاح السيد محمد أبو أنور السادات بنبرة حاسمة غاضبة لا تخلو من عجرفة محاولًا السيطرة على الحشود التي لبّت الدعوة إلى اللقاء في جامع الأزهر عقب صلاة الجمعة لمناقشة الأوضاع بعد رحيل الجنود الفرنساوية. في الصفوف الأولى جلس كبار العلماء والتجار وشيوخ الجامع العتيق بوجوههم المورَّدة وملابسهم الفاخرة يتوسطهم نقيب الأشراف السيد عمر مكرم الذي عاد للتو من بلاد الشام بعد أن ابتعد عن مطاردة جنود الفرنساوية، وفي الصفوف الأخيرة تكوَّم الحرفيون والصنايعية والباعة والعاطلون بأسمالهم البالية ووجوههم المنهكة. أما في الصفوف الوسطى فقد جلس صغار التجار وطلاب الأزهر يتوسطهم أيوب السبع وعن يمينه علي أبو حمص وبجانبه شلضم السقاء ودياب ضاضو بائع البطاطا.

في البداية صعد إلى المنبر شيخ الأزهر الشيخ عبد الله الشرقاوي بسمته الهادئ وعمامته المكببة المهولة وقسماته المريحة المعززة بلحية بيضاء تصل إلى صدره. وبعد أن صلى وسلم على أشرف المرسلين

fb/mashro3pdf

شكر الله عز وجلّ لأنه أنقذ البلاد والعباد من الفرنساوية الكفار وغدرهم وخستهم، وأعز الإسلام ودار الخلافة العثمانية بانتصاره عليهم، ومنح شعب مصر رعايا السلطان حريته وكرامته بعد أن أذلها بونابرته وجنوده. ثم ذكّر الحاضرين بالجريمة الشنيعة التي اقترفها السر عسكر أمير الجيوش الفرنساوية حين اقتحم بخيوله هذا الجامع ودنَّس الأزهر الشريف، فتناثرت من أفواه الحضور الشتائم على الفرنساوية الصليبيين الكفار حتى التصقت اللعنات بالجدران والثريات والسجاجيد. بعد ذلك فتح شيخ الأزهر الباب للحوار فيما سوف نصنعه حتى لا يتجرأ أحد على غزونا مرة أخرى.

ثار لغط وارتفعت أصوات واقترحت أفكار، وهبَّ شاب متوتر يلعن الكفار ويشكو الفقر وقلة الحيلة وظلم المماليك، فنهره الكبار ونصحوه بالجلوس فامتثل. فلما وقف السيد عمر مكرم نقيب الأشراف وصعد المنبر ساد صمت واشرأبت أعناق، وانتبه الجالسون، فللرجل حظوته نظرًا لدوره الجليل في قيادة الشعب وتأليبه ضد المحتل الفرنسي، وها هو اليوم يعود من الشام ويدخل القاهرة برفقة الجيش العثماني بعد محق الفرنساوية.

لاح السيد عمر مكرم متشيًا بالنصر، وقد تفنن في تأنقه كالعادة قبل الخروج إلى صلاة الجمعة، فعمامته الخضراء الكبيرة نظيفة وزاهية وجلبابه الأخضر مفرود كأنه خرج من تحت المكواة توًا، وشاله الأصفر الذي انسدل على كتفيه دليل ثراء وأبهة. بشرته تميل إلى الخمري الغامق وعيناه بنيتان عميقتان، وقد وضح للجميع عنايته الفائقة بتهذيب وتشذيب شاربه ولحيته السوداء. من جسده يفوح عطر أخاذ ومريح. بصوت رخيم

fb/mashro3pdf

ممتلئ بثقة المنتصرين تحدث السيد عمر مكرم عن ضرورة العودة السريعة إلى حضن الأستانة، فدار الخلافة هناك، والسلطان العثماني هو خليفة المسلمين، وله علينا حق الطاعة، فعلت أصوات وارتفعت هتافات تؤيد وتحيي السيد الواقف على المنبر، وتنافس المؤتمرون في كيل المديح للسلطان العثماني، لكن علي أبو حمص المنفعل دومًا لم يتمالك نفسه ونهض وزعق بصوته الجهوري حتى قهر جميع الأصوات وصاح كما لو كان يخطب من فوق منبر:

- يا سيد عمر مكرم.. يا شيخ الأزهر.. يا علماءنا وتجارنا الأفاضل.. اكتبوا للسلطان أن يأمر باشا مصر بأن يخفف عنا الضرائب، فالغلاء استعر والرغيف تدلل، والفقر نما، والهم استطال، والأحزان تمددت في البيوت والحواري.

على الفور ردد الفقراء المكومون في الصفوف الأخيرة عبارات التأييد والتأكيد لما قاله علي، وتجاسر بعضهم ووثب أكثر من واحد منهم مخترقًا الصفوف ليصل إلى المقدمة ويلقي شكايته على الملأ المضيء في الصف الأول.

انفضَّ الجمع بوعد قدمه المشايخ والتجار الكبار والعلماء ببذل كل جهد لدى خسرو باشا والي مصر الجديد لكي يخفف الأعباء عن الشعب بعد التضحيات الغالية التي قدمها الناس في محاربة جيش الصليبيين الجدد. وأقسم المشايخ بأغلظ الأيمانات بأنهم لن يسمحوا بتكرار المآسي التي كان يرتكبها أمراء المماليك وبكواتهم بحق أهل

fb/mashro3pdf

المحروسة مرة أخرى، وزادوا بأنهم سيصرون على ضرورة مراجعة الوالي والدفتردار والخازندار عند اقتراح أية ضريبة قبل أن يفرضوها على الناس.

على باب الجامع العتيق وقف الأصدقاء الأربعة أيوب وعلي وشلضم السقاء ودياب ضاضو يتداولون التعليق حول ما جرى، وقد بدا واضحًا أن علي أبو حمص لا يأمل خيرًا مما قيل واصفًا إياها بالوعود الكاذبة حيث هتف: «كم مرة ألقوا في آذاننا وعودًا مثل هذه، ولا ينفذونها». لقد كان علي أكثرهم فقرًا، وقد اضطر أن يترك دراسته في الأزهر ليعول أشقاءه وأمه بعد أن لقي أبوه مصرعه إثر حريق اندلع في الفرن الذي يعمل به. ومن عجب أن علي أبو حمص امتهن مهنة أبيه، فصار من أمهر الخبازين في الجمالية والنحاسين وقصر الشوق، وسرعان ما عطف عليه صاحب الفرن وزوّجه ابنته الوسطى. لم تكن جميلة، لكن تحت ضغط الحاجة وعذابات الجسد العفي هرع علي نحو العروس بروح هائمة تبحث عن استقرار مفقود. وعلى الفور أنجب علي طفلين في زمن قياسي، الفارق بينهما عشرة أشهر فقط، وكان يتأملهما ويتحسر على ما سيلقيانه من صعوبات الحياة وشظف العيش في المستقبل.

اقترح أيوب السبع على أصدقائه أن يتوجهوا نحو مقهى الفيشاوي ليشاهدوا التوسعات التي أحدثها الحاج فهمي علي الفيشاوي صاحب المقهى، وقال شلضم السقاء:

- والله هذا رجل ذكي.. ففي أربعة أعوام فقط تحول المكان الصغير لتقديم المشروبات إلى مقهى كبير يضم ثلاث حجرات.

fb/mashro3pdf

لقد تزامل الأربعة فترة في الأزهر قبل أن يهجره دياب ضاضو ليساعد أباه في بيع البطاطا، وقد امتلأت أزقة وحواري الحي بضحكاتهم وشقاوتهم وهم أطفال، ثم تبادلوا الحيرة ومطاردة الصبايا في خيالهم وهم صبية تقرع أجسادهم النضرة مطارق الجنس العنيف، ولما جرح جنود بونابرته عفة بلدهم، ورأوا الملازم فرتراي يجوب هادئ البال حي الحسين أقسموا على تشكيل عصبة سرية تستهدف الفرنساوية، لكنهم أخفوا هذا السر أمام أهل الحي، واكتفوا بأن أعلنوا أنهم قد انضموا إلى المقاومة.

لقد دفعهم أيوب إلى اصطياد الجنود الفرنساوية، خاصة السكارى منهم، والاعتداء عليهم، فكانوا يلبدون في العتمة عند بركة الأزبكية في انتظار خروج الجنود من خمارة «الإيجبسيانة» التي افتتحها المسيو شامير بعد احتلال القاهرة بأسبوع واحد فقط. حينئذ يقبض علي أبو حمص ذو البنيان العملاق على الجندي المخمور ثم يوسعونه ضربًا وطعنًا حتى يفارق الحياة، ثم يفرون هاربين مع أول ظهور لجنود الحراسة والدورية التي نشرها أمير الجيوش الفرنساوية في أرجاء العاصمة!

عند وصولهم إلى مقهى الفيشاوي استقبلهم الحاج فهمي الفيشاوي بترحاب وحفاوة قائلًا:

- أخيرًا.. شرفتم مقهاي يا أبطال!

ثم وجَّه أوامره إلى أقرب نادل صائحًا:

- خروب بارد على حسابي لشباب المقاومة.

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

إيواظ بك

قصير القامة.. متين البنية.. عديم الرقبة.. كرش عظيم.. له وجه أحمر منتفخ تتوسطه عينان عسليتان جاحظتان محمرتان على الدوام، فوقهما حاجبان كثيفان ملتصقان. شارب كث مبروم طرفاه إلى أعلى، ولحية مصبوغة بالحنة الحمراء. عمامة ضخمة مزركشة وثياب مبهرجة. قدم مفلطحة وأصابع منتفخة. هذا هو إيواظ بك الذي يضطجع على وسادة من ريش النعام ابتاعها من تاجر أرمني مرَّ بسوق الخيامية لمدة يومين قبل أن يختفي. يدخن الشيشة بنهم. وقد رُصَّت أمامه أباريق المياه الباردة وصواني الفواكه المتنوعة، فيزدرد ما شاء بشهية مفتوحة على الدوام. فجأة صرخ بحس خشن ولغة عربية مضعضعة:

يا مرجان.. بدِّل الجمرات.

في الحال انشقت الأرض وظهر مرجان من خلف الستارة. شاب نوبي ضعيف البنيان.. سيلازمه إلى آخر الفضيحة.. بشرته ذات لون بني غامق وعيناه تقطران همًّا دائمًا.. ذو لحية خفيفة. كان الوحيد الذي حافظ على ولائه لسيده عندما وقعت الواقعة؛ إذ كاد يفقد حياته في يوم خريفي ممطر. بنفسية عبد ذليل انحنى مرجان فوق المجمرة، وأخذ يقلب جمراتها وانتقى أكثرها توهجًا ووضعها فوق الشيشة.

fb/mashro3pdf

في تلك اللحظة أقبل خادم آخر يعلن عن قدوم الخواجة شارل اعتدل إيواظ بك قليلًا في مضجعه ورمق مدخل القاعة، فظهر شبح الخواجة شارل من خلال كثافة الدخان الذي يعبق به المكان كأنه يسير بين السحاب. ضحك إيواظ بك وهو يرحب بالضيف الفرنساوي صائحًا:

- ليتك عثرت على ما أريد يا خواجة.

كان شارل قد زاره في الظهيرة بعد أن أرسل في طلبه الجارية ياقوته الحبشية، علمًا بأن هذه ثاني أو ثالث مرة يدخل فيها الرسام الفرنسي دار إيواظ بك الفسيحة والقريبة من حمّام السلطان. وفي كل مرة يتعجب من حجم الثراء المبثوث في أرجاء الدار.. تحف.. رياش.. ثريات تتدلى.. سجاد عجمي.. أرائك فخمة.. وسائد مريحة.. ستائر حريرية.. مرايا لامعة بأطر مذهبة.. أباريق فضة.. سيوف وبنادق وخناجر معلقة على الجدران.. ثعابين تتلوى في صناديق زجاجية.. طيور ملونة في أقفاص مذهبة تغرد فقط في ساعات القيلولة وقبل الفجر.. خدم سود وبيض وشقر.. جوارٍ ممتلئات وغانيات.. مائدة عامرة بأطايب الطعام. وكم ود لو يسأله كيف تقبل الإقامة في هذا النعيم بينما أكوام القمامة وجيوش الذباب تبعد عن هذا الفردوس أقل من عشرة أمتار؟ لكن الفرنساوي المهذب يشكم مشاعره حتى لا يثير حفيظة صاحب الدار المعروف بغلظة المعاملة وتهور السلوك.

fb/mashro3pdf

في الظهيرة دعاه ليجلس بجواره، وعرض عليه أن يدخن الشيشة معه، فاعتذر الرسام بأدب، فمال نحوه وجذب نفسًا عميقًا قبل أن يصيح:

«يا خواجة شارل.. علمت أن خسرو باشا والي مصر الجديد دعا القنصل الإنجليزي على العشاء مساء الغد في القلعة»، ثم تنحنح وقال بنبرة فخر قصد بها أن تنغرز في أذن سامعه: «وأنا من المدعوين.. لذا أريد أن أهدي سعادة القنصل صورة من الصور التي ترسمها، وأنت تعرف أن علاقتنا بالإنجليز طيبة للغاية». ثم عقب مسرعًا وبسعادة: «لقد علمت من بعض الأصدقاء أن القنصل يحب اقتناء الصور، خاصة إذا أتقن تصويرها رسامون متميزون مثلك»، ثم أضاف مفتعلًا ابتسامة: «إن شاء الله ستروج بضاعتك أكثر مما كان جيش الفرنساوية هنا».

هكذا إذن عاد الخواجة شارل عقب أذان المغرب حاملًا معه ثلاث لوحات مرسومة بألوان الزيت تصور مشاهد مختلفة من القاهرة.. الأولى تجسد لقطة لحشد من البشر يتبادلون الأحاديث أمام جامع الأزهر بعد صلاة الجمعة، والثانية لجارية حبشية تدلك قدمي سيدتها الشركسية، وقد حاول التاجر الفرنسي شامير أن يبتاعها بثمن زهيد فرفض شارل موبخًا وساخرًا: «دعك من الفن.. أنت مجرد تاجر فقط»، أما اللوحة الثالثة ففي سوق الخيامية، حيث يعرض بائع سجاد بضاعته على أحد الزبائن!

تأمل إيواظ بك الصور الثلاث بتمهل كي يبدو أنه عليم بهذا الفن، على الرغم من كونه محرومًا من تذوق الفنون، بعكس زوجته المهووسة باقتناء التحف والصور. سأله عن سعر كل واحدة، ثم أمر أن تُحمل الصور الثلاث إلى الحرملك لتختار زوجته أشرف هانم الأفضل بينها؛ إذ لا يستطيع اتخاذ قرار حاسم دون العودة إليها، فقد اشتراه أبوها من سوق

fb/mashro3pdf

العبيد وهو صبي وزوَّجها له بعد أن أعتقه. وقد ظل إيواظ بك محتفظًا بالجميل خاصة عندما ساعده حموه في الانضمام إلى مماليك مراد بك قبل خمسة وعشرين عامًا. كان والد أشرف هانم من المماليك المقربين إلى محمد بك أبو الدهب، وقد وعده بمنصب كاشف الجيزة، لكن أبا الدهب قضى نحبه قبل أن يفي بالوعد، فتأثر الأب واجتاحته أمراض كثيرة، معظمها مجهول، أتعبت الحكماء والعطارين والدجالين، فتهدم بنيان الرجل والتصق بفراش المرض حقبة طويلة. وبعد خمسة أعوام من انتصار الشلل النصفي، وذات مساء بارد رحل الوالد تاركًا لابنته الوحيدة ثروة طائلة ودارًا فسيحة!

حظيت أشرف هانم بشخصية قوية وعنيدة، لا تهاب الخطوب ولا تذعن للملمات. يحترمها الجميع بقدر خوفهم منها حتى وقعت الفضيحة، فتبدلت الأحوال، ولما حرمتها المقادير من الإنجاب لعنت الزمن واستهانت بالغريزة، فازدادت شراسة وانكبت على جمع المال. وفي الليلة التي مات فيها أبوها لم تبكِ ولم تنفعل، بل دخلت غرفته على الفور.. عاينت جسده الميت بقلبٍ باردٍ وروح نهمة، فأمرت الجواري ألا يدخل عليها أحد. أغلقت الغرفة جيدًا، وتوجهت نحو تجويف سرِّي في الجدار مواجه لسرير الميت ومغطى بستار من القماش الثقيل أزاحته، وأخرجت من التجويف صندوقًا خشبيًا احتفظ فيه أبوها بكنزه الثمين، حملت الصندوق بصعوبة فسقط منها على الأرض، فأحدث ارتطامًا مدويًا فزعت له الجواري وأتين يقرعن الباب بهلع. صرخت فيهن وأمرتهن بالعودة من حيث جئن. بعد أن استردت أنفاسها، شرعت

fb/mashro3pdf

سعد البورصات والقطع الذهبية والفضية وتطالع صكوك الأملاك وحجج الأطيان حتى فجر اليوم التالي حين طرقت الباب إحدى الجواري تطلب السماح للمُغسّل بالدخول ليُغسّل الجثمان!

في الوقت الذي دخلت فيه الجواري إلى مخدعها يحملن لوحات الرسام الفرنسي، كانت أشرف هانم تتزين أمام المرآة كعادتها كلما انتابتها نوبة قلق. مشطت شعرها أكثر من مرة بمعاونة جارية شركسية ـصاء، ووضعت الكحل بتمهل فتوهجت عيناها السوداوان بالأنوثة. ، فقت قليلًا ودارت حول نفسها وهي تعاين جسدها، فارتاحت إلى ..انته، ثم تحسست نهديها فأعجبها امتلاؤهما، لكن تدحرجت منها ـظرة حسرة على جمالها المهجور. أمرت الجواري بوضع اللوحات ـبعيدًا عن بعضها حتى لا تتعرض لتشويش بصري عند الاختيار. تأملتها بإعجاب، ولم تقاوم رغبة في لمسها كلها بأناملها المكتظة، فمررت راحتها اليمنى عليها برفق، ثم غمغمت بعبارة لم تفهمها الجارية، لكنها أمرتها باستدعاء البك فورًا.

أشرف هانم تريدك يا سيدي.

قالت إحدى الجواري وهي منكسة الرأس أمام إيواظ بك، فقام واقفًا بصعوبة صاحب كتلة اللحم المكتنزة. اتكأ على كتف الخواجة شارل حتى كاد يحطمه، ولهث كمَن يركض طوال ساعة وحشر قدميه في النعال بصعوبة، وتوجّه نحو الحرملك مسرعًا فتحركت ألياته بصورة استدعت الابتسامة على شفتي الرسام اللماح، ففكر للحظة أن يرسمه، لكنه اختزن المشهد في ذاكرته ليسكبه على الورق فيما بعد!

fb/mashro3pdf

كأنها تنتظر الفرصة، فما إن اختفى إيواظ بك في الممر المؤدي نحو الحرملك حتى ألقت ياقوتة الحبشية بجسدها اللدن فوق الخواجه مدعية التعثر في آنية الفواكه. الحركة مفتعلة.. والرغبة جامحة.. ولمس صاحب البشرة البيضاء والعينين الزرقاوين حلم وأمل. والجارية السوداء نهازة فرص ولا تنقصها الجرأة. وقد رأته للمرة الأولى قبل أشهر وهو يرسم جامع قلاوون فجن جنونها من ألق العينين والبشرة المضيئة للحظة ارتبك الخواجة شارل حين هوي في حجره كوم اللحم الأسود، لكنه انتبه إلى حيلة الأنثى عندما مسته نيران جسدها، فحاول مساعدتها على النهوض وهو مضطرب المشاعر، لكنها عمدت إلى الاحتكاك بأكبر مساحة ممكنة من جسده وبث أنفاسها اللاهبة في وجهه وهي تفوح بغنج لا مثيل له:

- سيدي الخواجة.. ارسمني عارية.

مثلما ظهرت فجأة اختفت فجأة مع اقتراب السعال القادم من جهة الممر، فإيواظ بك دائم السعال إذا تحرك، ومرتفع الشخير إذا نام، وكثير الصياح إذا صادف ذبابة شاردة في داره الضخمة، وعالي الصراخ إذا تأخر العبيد عن إعداد الطعام ولو لدقيقة واحدة، وخطر الهياج إذا ثمل وشرب، ومعتاد الشجار إذا جاعت الطيور، ومحترف التوسل لزوجته إذا رغب في طلب شيء لا يرضيها، ودائم العبث بشاربه إذا ارتبك.

- خواجة شارل.. حرمُنا أشرف هانم تقول إننا سنشتري صورة جامع الأزهر بنصف الثمن.

هكذا صاح إيواظ بك وهو يعبث بشاربه بعد أن أطلق بسمة بلهاء!

* * *

fb/mashro3pdf

الخواجة شامير

للحظات ظن الخواجة شارل أنه يستمتع بلذة النوم في سريره بباريس، و أن صاحبة هذه الطرقات الخفيفة التي تقرع أذنه هي روز الجميلة، ففتح عينيه سريعًا متلهفًا على لقاء وأحضان وقبلات، فاصطدم بعتمة قاهرة بادئ الأمر، لكن مع توالي الطرق أيقن أن روز ماتت، وأن مسعدة ذابت، وأنه ما زال نائمًا في سريره في حارة الدرب الأصفر بالقاهرة. نهض متكاسلٍ محاولًا التخلص من الألم المدبب الذي يخترق فؤاده كلما استيقظ على خيال روز. أضاء الشمعدان الكائن بجوار سريره، وسأل بصوت مغزول من خيوط النوم والأسى:

مَن الطارق؟

تلقت أذناه نبرة يعرفها جيدًا، فافتر ثغره عن بسمة شاحبة، وهتف:

انتظر قليلًا يا مسيو شامير.

بصخبه الدائم دلف شامير من الباب حاملًا في جعبته أشياء متنوعة.. زجاجة نبيذ فرنسي فاخر.. أنابيب من ألوان الزيت.. عددًا من فُرَش الرسم.. أوراقًا صفراء وبيضاء خاصة للرسم والتلوين.. علبة ألوان مائية.. ثوبًا من قماش أبيض تمت معالجته كيميائيًا ليصبح معدًّا للرسم..

fb/mashro3pdf

صحفًا فرنسية صادرة الشهر الماضي.. كتابًا عن تاريخ مصر. وبحر .. مسرحية وضع شامير الأشياء كلها على المنضدة الكبيرة التي تتوسط الصالة الرئيسية في بيت الخواجة شارل، وقال وهو يلتقط أنفاسه:

- هنيئًا لك يا صديقي.. كل ما طلبته مني قد وصل اليوم إلى ميناء بولاق في السفينة القادمة من مرسيليا.

ثم بحسٍّ حاول أن يبدو متحرجًا:

- لن آخذ منك سوى نصف ثمن زجاجة النبيذ لأننا سنتجرعها معًا.. إنها معتقة منذ سبعين عامًا.

ثم همس بصوت ملوث بالمكر وهو منكس الرأس:

- أما الألوان والأدوات وخلافه فأنت ستدفع سعرها كلها الآن كالعادة

لاح المسيو شامير رجلًا على مشارف عامه الخامس والأربعين متوسط الطول.. له ظهر منحنٍ قليلًا.. بشرة بيضاء خالطتها درجات من الأحمر الأوربي.. عينان بنيتان غائرتان لا توحيان بالاطمئنان.. أنف طويل نسبيًّا.. لحية قصيرة يختلط فيها الشعر الأبيض بالشعر الأسود بنسب تكاد تكون متساوية، ويضع على رأسه قلنسوة سوداء في إشارة إلى أنه رجل متدين. ملابسه في الغالب رثة، ولا يعرف كلمة «لا» أبدًا، فطوال الوقت يردد: «نعم.. حاضر.. تحت أمرك». يزعم أنه من ضواحي باريس، لكن لا شيء يؤكد ذلك. جاء إلى القاهرة في عام 1780 بحثًا عن ثراء الشرق. لا يؤمن إلا بالمال، ويعتقد أن الأديان من الأمور المهمة في

fb/mashro3pdf

الحياة لكفّ غضب الفقراء على الأثرياء، لكنه يواظب على زيارة المعبد اليهودي، ويحرص على تبادل التهاني في الأعياد اليهودية. فور وصوله إلى القاهرة قدَّم نفسه للحاخام الأكبر في مصر باعتباره يهوديًا متعصبًا وّد أن يعيش في الأرض التي عاش فيها النبي موسى ليرى عن قرب البلد الذي كابد فيه أجداده من بني إسرائيل عذابات لا حصر لها على يد فرعون وجنوده كما زعم.

بعد قرابة عامين على استقراره بالقاهرة تزوج من ابنة يهودي إيطالي متخصص في توريد الأثاث الفاخر من نابولي لأمراء المماليك، وأقام في بيت صغير بدرب محمود قريبًا من معبد موسى بن ميمون في حارة اليهود بالموسكي. وبعد ثلاثة أعوام امتلك من المهارات اللغوية ما يجعله يتجاسر على إلقاء نكات جنسية فاحشة باللهجة المصرية أمام إبواظ بك، فيقهقه الرجل الدنيء حتى تطفر منه الدموع. حاول مرارًا التقرب إلى اليهود المصريين، لكنهم تعاملوا معه بارتياب وحذر باستثناء حزقيال أفندي صاحب أصغر محل ذهب في الصاغة، حيث اتفقا على المشاركة في افتتاح حانة في الأزبكية يتولى إدارتها شمعون بن حزقيال أفندي.

في الليلة التي زار فيها الخواجة شارل تعجب المسيو شامير حين شاهد النعاس يخايل ابن بلده كما يطلق عليه باستمرار، فسأله ساخرًا:

يا شارل.. هل يوجد فرنسي ينام في العاشرة مساءً.. فمتى سيشرب إذن؟

fb/mashro3pdf

لم يعلق شارل إذ كان مشغولًا بتفحُّص الجرائد التي أحضرها شامير هذه الليلة، فلما لم يتلقَّ إجابة قام المسيو شامير ودخل المطبخ وعاد بقدحين وصبَّ فيهما النبيذ، وقال متهكمًا:

- ألا يوجد طعام في هذا البيت؟ أين خادمك سليم؟

جلس شارل على الأريكة الكبيرة في الصالة ومدَّ رجليه بتكاسل، وقال بعد أن تناول أول رشفة من النبيذ مشيرًا إلى الزاوية:

- هناك.. خلف هذا الحامل ستجد مشنة بها قطع من الخبز وبعض الطماطم والخيار والخس، أما سليم فقد غادرني أمس ليزور والده في الجيزة وسيعود بعد أسبوع.

بهمة توجَّه المسيو شامير نحو الزاوية المعنية، فوقعت عيناه على لوحة شبه مكتملة يرسمها شارل لصديقه أيوب السبع.. اللوحة التي سيعطيها لسعدية في ليلة مشؤومة. تأملها قليلًا، وعاد حاملًا مشنة الطعام، وسأل بعد أن جلس على مقعد خشبي مواجه للأريكة:

- مَنْ صاحب هذا الوجه يا شارل؟

تناول شارل خيارة من المشنة وقضم منها قطعة أعقبها برشفة من النبيذ فتحرك لسانه تلذذًا وقال بصوت محايد:

- إنه أيوب.. شاب مصري تعرفت عليه حديثًا.

على الفور انطبعت في وجه شامير آيات امتعاض، وعاد بجسده النحيل إلى الخلف، ورمق اللوحة بنظرات قرف، وقال ساخرًا:

- هل جننت.. أترسم مصريًا؟

fb/mashro3pdf

لم يشأ شارل الدخول في مناقشة عقيم يعرف نتيجتها مسبقًا، فهمس ..برة خافتة:

إنه صديق جديد.. له ملامح مختلفة تستفز ملكة الفنان الموهوب.

كأن شارل اقترف جُرمًا بهذه العبارة؛ إذ نهض الخواجة شامير ورفع حاجبيه اشمئزازًا وصاح:

تقول.. إنه صديقك.. كيف يا شارل تصادق مصريًّا؟

حدجه صاحب البيت بنظرة غيظ، وراوده خاطر منفلت.. من أي نبع أسود يتجرع هذا الرجل كل هذا الحقد؟ كاد يمسك عن الإجابة، لكن النبيذ المعتق حرك الدماء الباردة في جسد الرسام الفرنسي، فقال بنبرة لا تخلو من تحدٍّ:

ما لهم المصريون يا مسيو شامير؟ ألا تقيم بينهم منذ سنوات طويلة.. ألا تربح الألوف من البورصات والبارات والدراهم بسبب تجارتك الرائجة هنا في مصر؟ ألم تكنز من الذهب والفضة الكثير والكثير؟

ارتفع حائط الصد وتجلت فنون التراجع ورسم شامير على وجهه بسمة صفراء كأنه يعتذر عما بدر منه، فنهض من مقعده واقترب من الرسام في حركة مرتبكة غير مبررة، ثم عاد وجلس وقرر أن الصمت أفضل، لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التصريح بلهجة متخمة باشمئزاز:

- حبيبي شارل.. ألا ترى المصريين كيف يعيشون؟ كيف يأكلون؟ كيف يعملون؟ كيف ينامون؟

fb/mashro3pdf

تلقى شارل عبارة مسيو شامير بأسى، فوضع في جوفه آخر ما تبقى من نبيذ في قدحه، وغمغم بهدوء محاولًا تبرير أحوال المصريين البائسة قائلًا:

- إنهم مساكين.. فقراء.. محرومون من التعليم.. ينهبهم المماليك والتجار الجشعون.. فماذا تنتظر من شعب مقهور؟ ألا تتذكر أحوالنا في فرنسا في عهد لويس السادس عشر قبل الثورة؟

شجعت النبرة الهادئة مسيو شامير على مواصلة حديثه المسمم، فنهض من مقعده وجلس على الأريكة بجوار صاحب البيت ادعاءً للتقرب إليه، وسكب بعض النبيذ في القدحين، وقال وهو يرمق شارل بطرف عينه:

- معك حق يا صديقي.. لذا فالمصريون الآن عبارة عن مجموعات من الحشرات القذرة!

حدجه شارل بنظرة غضب، وتذكر كابتن مواريه وعباراته القاسية عن المصريين، فنهض بصورة مفاجئة، وتوجَّه نحو باب البيت وصاح بصوتٍ حادٍّ دون أن ينظر إليه:

- خواجة شامير.. من فضلك.. اذهب فورًا.

ثم بنبرةٍ أهدأ قليلًا حتى لا يبدو الأمر بمثابة طرد صريح ومباشر وفج:

- أريد أن أنام!

* * *

fb/mashro3pdf

نفيسة البيضا

جذبت الجلبة المتزايدة في الحارة اهتمام أيوب السيع، فتوقف عن الكتابة وترك البوصة جانبًا، وتوجه مسرعًا نحو باب الدكان ليستطلع الأخبار. رآها مقبلة من ناحية قصر الشوق توزع قطع الحلوى على الأطفال المتحلقين حول عربتها التي يجرها حصان مطهم. لقد صارت تلك العربة محط إعجاب أهل الحسين منذ أهداها إليها بونابرته. يحف بالعربة أربعة من عبيدها السود ذوي بأس وقوة يفسحون لها الطريق بأصواتهم العالية وسحنهم القاسية. من موقعه أمام الدكان تأمل أيوب ملامحها بإعجاب كما يفعل كل مرة، فالبشرة بيضاء مترعة بالشباب رغم كونها هجرت تلك الفترة العمرية منذ فترة طويلة. والجسد ممتلئ لكن هناك رشاقة محببة في الالتفاتة والإيماءة والبسمة. النعمة والثراء والترف تشع كلها من ملابسها ووسوسة الذهب في ذراعيها وصدرها تلفت أسماع الحاسدين. تمتم أيوب: «لن تعدم السيدة نفيسة البيضا الحيلة لاستدرار مشاعر المصريين»، ثم عاد إلى مجلسه ليواصل نسخ كتاب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» لمحمد بن إياس الحنفي المصري. شرع في استكمال كتابة سيرة الملك العادل، لكن الذكرى الجنونية خايلته، فأمسك عن النسخ، واتخذ موقعه أمام الدكان مرة أخرى يتأمل

fb/mashro3pdf

السيدة وعربتها وعبيدها الذين توقفوا عند الساحة أمام جامع الحسين، وتعجب كيف تقود الرعونة المرء إلى حتفه؟ وكيف يؤدي التخطيط غير السليم إلى كوارث لا نهائية؟ لقد كاد يودي بحياته وحياة أصدقائه عندما اقترح عليه شلضم السقاء وعلي أبو حمص اغتيال نفيسة البيضا ونابليون بونابرته في لحظة واحدة وبسكين واحد!

تذكر أيوب كيف تلقى خبر الدعوة التي وجهتها نفيسة البيضا إلى بونابرته لتناول العشاء في قصرها الباذخ بالأزبكية. نقله إليه علي أبو حمص بامتعاض في صبيحة ذلك اليوم عن طريق عبد أسود يعمل سائسًا في إسطبلاتها. لحظتها توقف أيوب عن العمل، وتأمل مليًا قسمات صديقه وقال: «أرى شرًا يتطاير من عينيك»، أزاح علي الأوراق والمحبرة من فوق الكنبة وجلس لصقه وصحح: «بل قل ترى حقًا يريد أن ينتصر». واصل أيوب عمله دون اكتراث، لكن علي صاحب الجسد العملاق هبَّ واقفًا وهتف: «ألست القائل: لو عثرنا على أية فرصة لقتل الفرنساوية فيجب أن نقتنصها على الفور؟». فأجاب أيوب: «لكن ثمة امرأة.. فهل خلق الله الرجال ليقتلوا النساء؟!».

بعد ساعة التقت العصبة في الصحراء على حافة الخلاء بعيدًا عن عيون البصاصين كما يفعلون عادة منذ أقسموا على المصحف الشريف أن يعتصموا بحبل الله لمواجهة الفرنساوية الصليبيين. أكثرهم حماسة لتنفيذ عملية اغتيال بونابرته الليلة كان علي أبو حمص، وأكثرهم حذرًا وانزعاجًا من الفكرة أيوب، في حين أصر شلضم السقاء على قتل نفيسة البيضا أيضًا وقال بحدة: «إنها زوجة مراد بك الذي استبد وطغى وأنهكنا

fb/mashro3pdf

الصرائب وكل همها الدفاع عن نساء المماليك وحمايتهن من بطش الم نساوية لأنهن مثلها شركسيات في الأغلب، بينما لا تقول كلمة دفاع ا احدة عنا نحن المصريين»، ودافع عنها دياب ضاضو قائلًا: «صحيح أبها شركسية، لكنها مسلمة مثلنا، ويكفي أنها شيدت سبيلًا وكُتّابًا خلف باب زويلة، وأن وكالتها وأسطولها في النيل يعمل بهما عشرات المصريين، ولا تنسوا أن الناس قد أطلقوا عليها اسم أم المماليك تبجيلًا لها». فاحتجَّ شلضم وصاح: «ولكنها تعطيهم بارات قليلة وملاليم أقل الغاية لا تكاد تكفي قوت يومهم، في حين تكنز هي الأموال وتراكم الثروات.. بصراحة.. قتلها حلال»!

انتصر التهور، ووُضعت خطة على عجل لتنفيذ عملية اغتيال بونابرته ، كل مَن برفقته في اللحظة التي يصل فيها إلى مدخل قصر نفيسة البيضا ،الأزبكية، لكن أيوب لم يرتح للخطة، وأجهضت حماسة علي وشلضم دل محاولاته لرفض العملية أو تأجيلها، رغم أنه المحرك الأول للعصبة، فرضخ وانصاع.

مع أول خيوط الليل توجهت العصبة نحو الأزبكية سالكة طريق المقابر من خلف سور القاهرة، ثم انعطف الأصدقاء من عند الحسينية فباب الشعرية قاصدين القصر الموعود من المدخل الخلفي غير المطروق. ساروا متباعدين متقاربين، في المقدمة علي أبو حمص يرصد ويستكشف وقد أخفى البندقية التي سلبها من جندي فرنسي قتله قبل ثلاثة أيام في طيات جلبابه، ثم تبعه دياب وشلضم وكل منهما يمسك بسكين حاد، وفي المؤخرة أيوب الذي يتحرك بعينين متربصتين وقلب

fb/mashro3pdf

يخفق بقوة. احتموا بالظلمة وكتل الأشجار وفروعها المتراصة بامتداد الطريق. طاردهم نقيق الضفادع المتصاعد من ترعة صغيرة تخترق الحقول الشاسعة الممتدة خلف قصور وبيوت أثرياء الأزبكية. توقفوا عند شجرة جميز مُعمرة ذات أغصان متشابكة. «لآخر مرة.. تفكروا جيدًا.. لا داعي للمغامرة المجنونة»، هكذا حذرهم أيوب تحت أضواء النجوم الساهرة، لكن علي أعلن بأداء حازم: «لا فرصة للتراجع.. إن قصر نفيسة البيضا على بعد مائة وعشرين ذراعًا فقط»، وقال شلضم: «إذا قضينا على بونابرته الليلة.. فسينتصر الإسلام إلى الأبد».

وما إن راح أيوب يراجع معهم تفاصيل عملية الانقضاض على نابليون وسيدة القصر وما يصاحبها من كرٍّ وفرٍّ حتى ترامى إلى آذانهم صوت عدة عربات تجرها خيول مصحوبة بضجيج فرنسي، فهمس علي: «لقد وصل المجرم بونابرته.. استعدوا!»، لكن همهمات غامضة بدأ صوتها يعلو بلغات مختلفة أوقفتهم، ثم سُمع نباح كلاب يعلو ويرتفع ويهتك حرمة الليل ويقرع آذانهم بشدة، وسرعان ما لاحظوا حركة عسكرية تقترب، فقال أيوب بتوجس: «إنهم جنود الحراسة الفرنساوية.. اختبئوا.. هيا بنا.. أسرعوا.. لقد أفلت بونابرته الليلة»، وفي لمح البصر ركضوا من حيث أتوا خائبين وملتحفين بالعتمة، مسوقين بغريزة البقاء وحب الحياة!

أجل.. تذكر أيوب كل ذلك وهو يتابع ذوبان عربة نفيسة البيضا في الميدان، وشكر الرحمن لأنهم لم يُقدِموا على اغتيال امرأة حتى لو كانت تستغل الفقراء، وما إن عاد إلى متابعة العمل حتى اقتحم الدكان الخواجه

fb/mashro3pdf

شارل ببسمته الرائقة، حاملًا بين يديه لوحة لم تكتمل يصوِّر فيها نفيسة البيضا في عربتها وقال قبل أن يجلس:

هل تعشق المغامرة يا أيوب؟ ولا تنسَ أنها ملح الحياة!

قبل أن يجيب هتف أيوب وهو يتفحص اللوحة المنقوصة:

يا سبحان الله.. إنها تكاد تنطق.. العربة.. ملامح نفيسة البيضا.. العبيد.. الأطفال.. كل شيء.. كل شيء.. والله يا خواجة شارل أنت رسام ماهر جدًّا.

ثم قال وهو يقدم له بعض الموز:

طبعًا أعشق المغامرة.. ولكن إذا لم تكن ضارة بأحد.

التهم شارل الموز بشراهة، وأوضح بعد أن تجرع الماء البارد من القُلة:

- سنبحر إلى الإسكندرية بعد عشرة أيام لنستقبل أختي فرانسوا؛ إذ ستأتي من باريس!

حين غادر الخواجة شارل الدكان تلقى مفاجأتين: الأولى نسمات هواء عليلة منعشة، رغم أننا في مطلع يونيو والشمس في كبد السماء لم تغب بعد، والثانية ياقوتة الحبشية التي تجرأت أكثر من اللازم فأوقفته عند أول حارة خان جعفر وهمست في أذنه بغنج فألهبتها: «انتظرني في دارك الليلة بعد المغرب»! وتركته غارقًا في أحلام ساخنة!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

أقسم إن إيواظ بك لا يقرب أشرف هانم منذ زمن بعيد!

هكذا قالت ياقوتة الحبشية ساخرة وهي مستلقية على الأريكة في نبات كما طلب منها الخواجة شارل حتى يتمكن من اقتناص ملامحها على القماش، وقد نزعت ملابسها كلها، لكن الرسام أخفى مناطق العفة بقطعة من ستار أبيض، فبرزت مفاتنها السمراء أكثر تألقًا. ولما لم تتلقَّ ردًّا من شارل المنهمك في الرسم أضافت متهكمة:

- يبدو أنه غير قادر على ممارسة مهامه الزوجية منذ زمن، وإلا ما الداعي لأن يقرع باب دارنا عم هريدي العطار كل ليلة حاملًا نباتات وتوابل وتعاويذ، ثم يخرج مقطبًا ومتمتمًا ويائسًا، بينما سيدي إيواظ بك يلعن ويسب ويخانق ذباب وجهه!

ثم أضافت بتهكم ينطوي على غيظ شديد:

- هذا أكبر عقاب تناله أشرف هانم.. هذه المرأة المتغطرسة التي لا تتوقف عن كيل السباب لنا نحن الجاريات المسكينات!

fb/mashro3pdf

ثم بغنج مقرون بضحكة فاجرة:

- وهل المرأة تساوي شيئًا بدون حضن الرجل، حتى لو امتلكت مال قارون؟

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي تدخل فيها ياقوتة بيت الرسام الفرنساوي، بل الثانية، فبعد أن أوقفته عند أول حارة خان جعفر الأسبوع الماضي وطلبت منه أن ينتظرها في بيته بعد المغرب، نفذت وعدها بتصميم امرأة هائجة، وذهبت إليه متشحة بالظلمة يحرقها شوق طاغ يذيب أنوثتها الساخنة. وجدته ينتظر بشغف مفعم باضطراب كبير، فهذه أول مرة يقترب فيها أكثر مما ينبغي من امرأة سوداء، كما أنها جارية لإيواظ بك وهو مملوك ذو سمعة وحضور في البلد خصوصًا بعد أن تمكن من اتقاء شر بونابرت، فكيف يتجرأ على مضاجعة إحدى جواريه؟ كان شارل يدرك تمامًا أن ياقوتة مفتونة به، وأنها أطاحت بحياء الأنثى، واستجابت لنداء الشهوة، وحين ألقت بنفسها في حجره وهو في زيارة إيواظ بك أيقن أنه مرصود لإسعاد هذه الجارية، فارتبك باطنه لأنه لم يتخيل نفسه لحظة في حضن امرأة سوداء.

لم يكن الرسام الفرنسي الأبيض يعادي أو يتأفف من اللون الزنجي للبشر، إذ إن كتابات جان جاك روسو وفولتير ومنتسكيو التي آمن بها تؤكد كلها أن البشر سواسية، وأن اللون لا ينبغي أن يتحكم في مشاعرنا تجاه الآخرين، لكن إيمانه النظري هذا لم يُختبر في الواقع، فطوال حياته لم تحرك مشاعره امرأة سوداء، وروز الراحلة كانت مستودع الأنوثة البيضاء

fb/mashro3pdf

المشربة بحمرة خفيفة في الخدين، ومسعدة حجاب كانت بيضاء بمسحة مصرية محببة، وسرعان ما استراح للونها وملمسها وعطاياها السخية في الفراش. أما الجارية السوداء، فلا يدري ماذا سيفعل معها حين تطرق بابه بعد قليل!

دلفت ياقوتة باب بيت الخواجة شارل في المرة الأولى تسبقها شهوتها؛ إذ نزعت جلبابها الأسود فورًا، فارتجف شارل لأنها تمتلك من الجرأة والجسارة، وربما الوقاحة، ما جعلها لا ترتدي أي شيء تحته. ثم سددت بصرها نحو عينيه وتأوهت وهي ترتمي في حضنه صارخة: «ارحمني يا خواجة وأطفئ لهيبي».

مذ هجرته مسعدة حجاب قبل عام، لم يمارس شارل الجنس مع أية امرأة، وقنع من اللذة بممارسة العادة السرية، فلما استوت ياقوتة عارية ناعمة يبعث جسدها الأسود ومضات براقة في التضاريس والمرتفعات والمنحنيات، نزع ملابسه بسرعة لا تتواءم مع إيقاعه الهادئ، فتنفس رحيقها وهي تتلوى بين يديه من فرط الرغبة، ثم غمرها بقبلات جائعة، حتى تخفف من عذابات الجسد المحروم، وفجأة داهمه خاطر يقول: «إننا نحن مَن نخترع السعادة التي نبتغيها، وما روز ومسعدة وياقوتة إلا نساء يملكن السحر الأسر الشافي من الهواجس، الملطف للجنون، لكن ستظل لكل واحدة منهن نكهتها الخاصة وطعمها المميز، فروز رفيقة الكفاح وأنيسة الروح وصاحبة الفضل في التعرف إلى جسدي وعقلي وروحي، ومسعدة جوهرة عجيبة أُلقيت أمامي فجأة في الطريق

fb/mashro3pdf

العام لتبدل وحشة مساءاتي في القاهرة إلى جنة مزدهرة بأريجها الأنثوي الأخاذ وشهوتها الطازجة الملتهبة، أما ياقوتة فسمرتها العميقة جديرة بالاكتشاف، ومثيرة للفنان داخلي، ولكن ماذا تخبئين لي يا جارية إيواظ بك؟ على أية حال هنيئًا لك يا شارل وجودك بالقاهرة!».

في هذه المرة جاءته ياقوتة تمشي على استحياء بعد انقطاع استمر أربعة أيام، فقد هزمها المرض وباتت الحمى في عظامها، فألزمتها الفراش، حتى عادها العطار ونباتاته، وتولت أقدم الجاريات في دار إيواظ بك مهمة القيام برقيها فشفيت بعد فترة، وما إن استردت صحتها حتى هرعت نحو الدرب الأصفر حيث منابع اللذة والسحر والجنون.

تلقى شارل ملاحظة الجارية عن العطب الذي اعترى المملوك السمين، وتساءل متحيرًا بصدق، وهو يضع لمسة من اللون البني المعتم في وجنة الوجه:

- ما علاقة هريدي العطار بمشكلة سيدك؟

قهقهت الجارية بصوت تفوح منه رائحة فحش، وصاحت:

- العطار في بلادنا حكيم، فهو الذي يعالج أمراض الحب، وسيدي إيواظ بك محروم من نعمة الحب!

ثم اقتربت من الرسام حتى التصقت به، فلم يستطع مقاومة سعير الشبق أكثر من ذلك، فترك الفرشاة جانبًا، وبسرعة شديدة خطفا لحظة جنونية من التلاحم والارتجاج والحبور.

fb/mashro3pdf

بهمة ونشاط استعادت ياقوتة حالة الجارية، فقامت بتنظيف السرير من اثار الغرام، وتوجهت نحو المطبخ وعادت ببقايا دجاج وخيار وجرجير وفواكه، ووضعتها أمام الرسام الذي استسلم لغفوة سريعة، لكنه شعر بحركتها فنهض وهو يتأمل جسدها العاري الطافح بسواد عميق، وأخذ يقارنها بمسعدة حجاب ويغمغم قائلًا: «لا طعم للحياة بلا نساء، واللون ليس مشكلة على الإطلاق، المهم الحيوية والحماسة والعنفوان».

قضمت ياقوتة قطعة دجاج وهي ترمقه بعينين بهيجتين وتساءلت:

- ماذا قلت منذ قليل؟

وقبل أن يرد أضافت:

- إن عبدك سليم طباخ ماهر، فالدجاج لذيذ بحق، لكن كيف تستطيع أن تجعله يغادر البيت كلما أخبرتك أني قادمة إليك؟

قهقه شارل كما لم يقهقه من قبل، ومدَّ يده وتناول إصبع موز، وقال:

- أبدًا.. أطلب منه أن يتركني بمفردي هذه الليلة، فينفذ على الفور، ويذهب لينام في جامع الحسين.

ثم سألها وهو يرتدي سرواله قبل أن يعاود الجلوس على السرير:

- أين ولدتِ يا ياقوتة؟ إنك تتحدثين اللهجة المصرية ببراعة مثل أهل البلاد.

- هنا.. في دار إيواظ بك وأشرف هانم، فقد اشترى البك أبي من سوق العبيد في الدراسة، وهو صبي قادم ضمن مجموعة من عبيد الحبشة،

fb/mashro3pdf

وقد تعلم اللغة العربية سريعًا، وأسلم على يد شيخ أزهري مقابل وعد من البك بتزويجه، وبالفعل بعد فترة وجيزة جاءه التاجر بأمي بناءً على طلبه، وزوجهما، وولدت لأجد نفسي ضمن قبيلة الجواري التي تخدم البك وزوجته.

أنصت شارل باهتمام بالغ إلى حكاية الجارية، وراح يتناول قطعة من الدجاج، وسألها:

- أين والداكِ؟

أطرقت قليلًا وقالت بحزن انتابها للمرة الأولى:

- ماتا قبل عامين.. أصيبت أمي أولًا بحمى شديدة، وبعد شهرين لحق بها أبي، وليس لي أشقاء.

ثم ضحكت فجأة:

- كفى.. هذه حكايتي!

fb/mashro3pdf

اقترب منها شارل وضمها في صدره، ولثم خدها برفق وقرر أن يسألها عما يجيش بصدره منذ أول لقاء بينهما، ولكن عدل عن رأيه، ثم طلب منها أن ترتدي ملابسها لتنصرف.

حدجته بنظرة استغراب، وشرعت تلف الملاءة السوداء على جسدها بعد أن حشرت نفسها في جلباب أسود، وهمت بالمغادرة، لكنه أوقفها بحركة من يده وسألها متغلبًا على الإحراج:

- إنكِ لست عذراء.. مَنْ فضَّ بكارتك؟

ضحكت بغنج، ونزعت الملاءة والجلباب وألقت بهما على الأريكة الجانبية، فبدا جسمها العاري كتمثال من الجرانيت الأسود وصاحت:

سليم!

اندهش الخواجة وصرخ مشيرًا نحو المطبخ مذهولًا:

سليم؟!

تمادت في الضحك وهتفت:

لا.. لا.. ليس خادمك سليم، وإنما سليم العبد الحبشي الذي تملكه ست نفيسة البيضا.

ثم دنت منه حتى التصقت به ودفعته برفق ليجلس على الأريكة الخشبية وأطرقت قليلًا قبل أن تواصل:

- كان فحلًا.. طويلًا.. ابتسامته ساحرة.. وأسنانه ناصعة البياض.. يكبرني ربما بسنتين، وكنت في الخامسة عشر من عمري، أي قبل ثلاث سنوات، وقد رأيته للمرة الأولى في عرس أحد عبيد نفيسة البيضا الذي أقيم في دار قريبة من جامع المؤيد شيخ عند السكرية. كنت برفقة أمي وأبي، وكان كل المدعوين من العبيد السود تقريبًا.. حين بدأت الطبول تُقرع.. افتتح سليم مهرجان الرقص، ثم جذبني لأشاركه جنون الجسد.. وفي لحظات انهمك الجميع بمَن فيهم العروسان وأمي وأبي في طقوس الرقص المذهلة. وسرعان ما أخذ الكل يتجرع البوظة حين يتوقف لحظة عن الرقص، أما سليم.. هذا

fb/mashro3pdf

الفتى الأسطوري فلا أعرف كيف سحبني إلى خارج الدار، كانت الظلمة بالغة السواد في هذه الليلة، وبجوار الجدار الجانبي لجامع المؤيد قبلني بعنف، ونال ما يشتهي، وفرحت كما لم أفرح من قبل ومن بعد. ثم عدنا إلى الدار، فوجدت أمي وصديقاتها يحاولن إسناد أبي الذي سقط على الأرض وأخذ يتقيأ سائلًا أصفر ذا رائحة مقززة من فرط ما تجرع من بوظة.

ثم سكتت فجأة، فاتقد فضول الرسام وسألها:

- ألا تخشين من الحبل؟

ضحكت وقالت وهي تحك جسدها العاري في جسد شارل:

- لقد احتضنت خمسة رجال، ولم أحبل، لكن لا يوجد مثل سليم إلا أنت يا حبيبي. ليتني أصبح أمًّا بسببك!

قالت ذلك ثم طبعت فوق شفتيه قبلة، فلم يستجب إذ انشغل للحظة بفكرة أن يكون له ابن أسود، وفجأة هبَّ واقفًا وتوجَّه نحو الكوميدينو في آخر الغرفة، وأخرج زجاجة نبيذ وصبَّ منها في قدحه الفخاري، ليتجرعه في هدوء، ثم قال:

- سأغادر إلى الإسكندرية بعد غدٍ لأستقبل شقيقتي فرانسوا قادمة من باريس!

ضربت كفها على صدرها، وصاحت مذعورة:

- ألن نتمكن من اللقاء هنا مرة أخرى؟!

fb/mashro3pdf

لم يرد، كأنه لم يسمع سؤالها المؤلم، وظل يتحرك في الغرفة حائرًا، ثم جلس على الأريكة. تابعت حركته دون أن تفتح فمها، لكن فكرة أن يولد لها طفل من شارل استولت عليها في تلك اللحظة، فدفعتها غريزة الأمومة المعطلة للاقتراب منه، فابتسم لها، فافتر ثغرها عن ابتسامة أظهرت أسنانها البيضاء، وقال شارل مداعبًا وهي ترتمي في حضنه:

- ألا تشبعين؟

نفت بإشارة من رأسها، فيما يدعو خاطرها أن يتخلق الطفل هذه المرة!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

ايوب - هل يخذلني الناس؟

11 نوفمبر 1805

قالت سعدية بأسى: إن ثمة امرأة تشغلني؟ وإنها سبب شرودي الدائم، ، بـرَّرت قولها بأنني لا أتناول إلا أقـل الطعام، ولا أقربها في الفراش منذ أسبوع بعكس ما اعتدت أن أفعل بشكل يومي تقريبًا.

كنت أجلس على الأرض فوق سطح بيتي أتأمل السحب السائرة مع غياب الشمس بذهن شارد وقلب مشتت، تتنقل عيناي دون اهتمام بين البط والدجاج والحمام، التي تربيها سعدية، وبين السحب المتعجلة، بينما وجه دياب ضاضو يلح على خاطري بقوة، لقد مرَّ أسبوع على اختطافه من قبل البصاصين، ولا خبر. ترى.. هل قتلوه؟ هل عذبوه حتى اعترف وأرشدهم علينا؟ لكن ما من أحد اقترب مني أو من علي أو من المجموعة الجديدة التي انضمت إلينا؟

آنذاك - وأنا أسير هواجسي - وصلت سعدية حاملة صينية فوقها طعام الطيور وقدح من القرفة التي أحب تناولها في هذا الوقت، فلم أنتبه لوجودها، عندئذ لكزتني برفق في كتفي وجلست بجواري على الأرض، ثم اتهمتني بأنني منشغل بامرأة أخرى. تفحصتها مليًا بغيظ شديد ولولا

fb/mashro3pdf

أنها حامل لكنت صفعتها؛ لأن الرعب اعتراني حين لكزتني، فقد تخيلت أن البصاصين قد انقضوا ليقبضوا عليَّ!

أحطتها بذراعي، وأخبرتها أنني حزين على دياب ضاضو، فهزَّت رأسها بالإيجاب كأنها توافقني، لكن عينيها تنطقان بأن حالي البائس مرتبط بامرأة، وبدون سابق إنذار همست سعدية والدموع تهطل من عينيها: «لو أنك تحبها إلى هذه الدرجة.. اذهب إليها وتزوجها.. لكن لا تتذرع بالقبض على دياب، ولا تتركني أنا وابني الذي في بطني.. فنحن نحتاج إليك، وأنا أحبك يا أيوب».

هذه أول مرة أضحك فيها منذ خطفوا دياب، بل انطلقت ضحكاتي في الفضاء حتى جفلت منها طيور السطح وسمعتها مآذن مساجد عبد الرحمن كتخدا والناصر محمد بن قلاوون والأقمر في شارع بين القصرين. رمقتني سعدية بنظرات غريبة، ربما همس خاطرها أنني مجنون، لكنها نظرات آمنة، فضحكاتي بثَّت في روحها قدرًا من الاطمئنان، بأن لا امرأة هنالك ولا يحزنون.

fb/mashro3pdf

تناولت القرفة وذراعي الأيمن يحيط بخصر سعدية، بينما أخذت تنثر الطعام ناحية الطيور، فتجمَّع الدجاج والحمام والبط وأحدثوا جلبة عنيفة حول الطعام. نهضت مع انسحاب آخر نقطة ضوء واصطحبت سعدية لنهبط سلم الدار برفق. أحاطت خصري بذراعها طوال رحلة الهبوط، فاتقدت رغبتي فيها، فتوجهت بها نحو غرفتنا، وقد أدركت على

الأمور هدفي، فأمرت الخادمة أن تصعد إلى السطح لتحبس الطيور في أقفاصها؛ لأننا سننام.

بعد أن ارتوى جسدانا وانشرح خاطرانا، أخبرتها أنني سأخرج للجلوس في المقهى مع علي أبو حمص، لوت شفتيها استياءً للحظة، ثم عاد لملامحها الإشراق، فقد كانت سابحة في نهر النشوة، لكنها رجتني أن أتناول شيئًا من الطعام قبل الخروج.

لم أذهب إلى علي، وإنما قررت التوجه نحو الخواجة شارل لأطرح عليه حكاية دياب ضاضو. نسمات متزايدة تلفح وجهي ونباح كلاب يتزايد من بعيد. المشاعل تتناثر بامتداد طريق النحاسين والمقاهي تمتلئ بالضحكات. أوقفني الحاج ما شاء الله شمس الواعظين بصوته الجهوري؛ إذ كان يدخن الشيشة أمام وكالته، فتوجهت نحوه مشمولًا بانزعاج شديد، فلست في حالٍ تسمح لي بالتحدث مع أحد. طلب مني الحاج أن أنسخ له أبياتًا من قصيدة البردة ليزين بها داره الجديدة التي ابتاعها في الأزبكية، وأخرج صُرة دراهم من سرواله ليعطيها لي كعربون، لكني رفضت، وقلت له عندما تشرفني في دكاني نعقد الاتفاق، ثم شكرته ووعدته خيرًا وانصرفت بعد أن حدجني بنظرة غريبة أربكتني.

للحظة ارتجفت حين طرقت أذني خطوات جواد يجري بسرعة اعتلى صهوته بصاص أرناؤوطي من أتباع محمد علي.. مخيف الهيئة.. غليظ القسمات، فالتصقت بجدار مسجد المنصور قلاوون لأحتمي به بشكل تلقائي، فتجاوزني ولم يلتفت إليَّ وواصل ركضه المرعب،

fb/mashro3pdf

فتنهدت وفكرت أن أعود إلى البيت طلبًا للأمان، لكن الرغبة في البوح عن مأساة دياب ضاضو تحرق جوفي، فتابعت المسير بهمة نحو الدرب الأصفر، وأنا أتساءل بقلق.. هل أستطيع حشد الشعب ضد محمد علي؟ هل سيقتنع الناس بأن الضابط الأرناؤوطي ليس منّا ولا يعرف لغتنا؟ أم سيخذلني الناس؟

تلقاني الخواجة شارل بابتسامة طيبة وعبارة منذرة: «حذارِ من رجال الشرطة يا أيوب.. فكل حاكم جديد يتربص حتمًا بمعارضيه، ولا يتحمل كلمة نقد واحدة تتردد ولو على استحياء»!

* * *

fb/mashro3pdf

شارل - ابني.. محمد شارل!

11 نوفمبر 1805

لن أتوقف عن وصفها بالأسطورة، فمسعدة حجاب جوهرة تكتنز المفاجآت السارة وتفجرها على الدوام، وليلة أمس قضيتها في بيتها الجديد بحي الإفرنج بالأزبكية؛ إذ قالت لي بدلال: «حتى نلتقي بعيدًا عن أعين الفضوليين في الغورية». ثم أضافت: «إن الإفرنج لا يتدخلون في شئون غيرهم، ولن يسألنا أحد مَن نحن؟!». لقد ابتاعت مسعدة بيتًا صغيرًا على أطراف الأزبكية من ناحية النيل محاطًا بحقول الذرة والبرسيم وعلى بعد تلوح أشرعة المراكب في ميناء بولاق.. ابتاعته من تاجر يوناني بثمن كبير كما أخبرتني.

ليلة أمس كانت المرة الأولى التي ينتابني فيها شعور بأني رب أسرة بحق يحوز زوجة جميلة ويتمتع بصحبة ابن رقيق. ذهبت إليها ليلًا متخفيًا في زي الرجل الصعيدي كما كنت أفعل في الأيام الخوالي. استقبلتني بقبلتين وهي تهمس: «محمد ابننا نائم»، لم أكن قد رأيتها منذ لقائنا في الروضة، وقد أرسلت لي في الصباح عنوان بيتها الجديد مع خادمتها أم إمام.

fb/mashro3pdf

حيـن تعـرت أمامي لاحظـت أنها امتـلأت إلى حـدٍّ مـا، خاصة عند الردفيـن، لكنهـا ظلت محتفظـة بحرارتها ودفئها وسـخائها في الفراش. وبعد أن أزهرت حواسنا بوردة التلاحم، وأضاءت أجسادنا بنور الغريزة، حملـت مسـعدة ابننا محمد الهائم فـي مملكة النوم ووسـدته بيني وبينها علـى السـرير، ثـم همسـت: «فلننـم هـذه الليلة في سرير واحد كأسـرة واحدة.. رجل وزوجته وابنهما».

عاينت محمد بقلب رؤوف وتيقن لي أنه ابني لا شك في ذلك، فعيناه زرقاوان مثلي، وشعره أصفر ناعم مثل أمي وشقيقتي الراحلة فرانسوا، أما لون بشرته الخمري فقد اكتسبه من والدته، وكذلك شفتاه المكتنزتان.

أجـل.. أحببـت محمـد كثيـرًا، وفتنتنـي شـقاوته وتعبيراتـه وحروفه المتكسـرة، لكني حزنـت لأن أمه لم تجرؤ على أن تنسبه لي، وقالت لمن يسـألها إن أبـاه يُدعى عبـد الله تزوجت به في بنها، وقـد مات تحت تأثير مرض مفاجئ هدَّ منه الجسم وسلب منه الروح!

«مـاذا كان عسـاي أن أفعل؟ نحـن في مصر.. أي أننـي لا أجرؤ على قـول الحقيقة وهـي أن محمد ابنك.. لأننا لم نتـزوج، كما أنك نصراني ودينـي يمنعنـي من الزواج بك يا شـارل، ومع ذلك فأنـا أحبك بجنون» هكذا بررت الخدعة لتتقي شـرور المتطفليـن، لكنني كنت حزينًا، أعاني من شـعور مفاجئ بالعجز، فلن أسـتطيع إشهار إسـلامي كما طلبت مني لنتمكن من الزواج كما فعل الجنرال مينو، حتى لا يسخر مني الفرنساوية، ومهمـا حاولـت فلن تقبل مسـعدة الخـروج من دينها كمـا تجرأت زليمة

fb/mashro3pdf

ووعدت الكابتن مواريه، كما أنني شغوف بأن يرى أبواي ابني؛ لذا قررت أن أصطحب مسعدة ومحمد في أول سفر لي إلى باريس.

عندما غادرت بيت مسعدة في الأزبكية مع أول شعاع نور ينبعث من السماء ليذوب في الأرض، وقبل أن يستيقظ محمد، تلقيت نسمات باردة تهب من النيل فانتعش صدري ووجدتني أمتطي جوادي برشاقة عائدًا إلى بيتي في الدرب الأصفر. لمحت من بعيد قصر محمد بك الألفي مجردًا من الحراس بعد أن غادره قادة الحملة قبل أربع سنوات، فتردد في خاطري سؤال عجيب: «أين بونابرت الآن؟ وهل كنت تعتقد يا فنان للحظة أنك ستبيت على مقربة من قصره في حضن امرأة مصرية؟ وكليبر الذي أخذوا جثمانه معهم وهم راحلون.. هل تخيل لحظة أنه سيقضي نحبه في بلد غريب لايعرفه؟ حقًا ما أغرب الأيام».

في طريق عودتي لاحظت وجود عدد كبير من رجال الشرطة الأرناؤوط ينتشرون في منطقة الأزبكية بملامحهم الغليظة وأسلحتهم المشهورة ولباسهم المعروف، حيث قصر الوالي الجديد محمد علي، فتمتمت: «يبدو أن الرجل قد تمكن من السلطة تمامًا بمكره وألاعيبه وسذاجة المشايخ والتجار المصريين»، ثم أردفت بأسى: «مهمتك بالغة الصعوبة يا أيوب»!

عند مروري بجامع البنات تذكرت ملامح ابني محمد، فانشرح صدري واستسلمت لخاطر طيب، فمضيت أردد بلهجة مصرية وبصوتٍ عالٍ اسم ابني ثلاثيًا: «محمد شارل فلوبير». قلتها مرات عديدة بنشوة

fb/mashro3pdf

عجيبة لدرجة أن أحد السقائين الذين مررت بهم وأنا ممتطٍ جوادي أوقفني متسائلًا عمّا إذا كنت أبحث عن أحد أو أطلب شيئًا، عندما وصله صوتي.

في تلك الليلة، بينما أنا منهمك في رسم صورة من الذاكرة لمحمد ابني فوجئت بأيوب يطرق بابي. كان شاحبًا ومتعبًا وخائفًا بشكل لا يصدق. بثّ لي هواجسه وذعره من حكاية القبض على صديقه دياب ضاضو. حاولت طمأنته، وألححت عليه بضرورة الأخذ بالأحوط، وأن يتوقف تمامًا عن أي كلام يدين الوالي الجديد محمد علي باشا، منبهًا إلى أن الآستانة أرسلت فرمانًا بموافقتها على تعيينه حاكمًا جديدًا لمصر مثلما طلب التجار والعلماء والمشايخ المصريون، وبالتالي ليس من الحصافة الآن الوقوف ضد قرار الدولة العثمانية. قلت له ذلك وصورة الحراس الذين انتشروا في الأزبكية صباح اليوم تنذر بالشر فوق أفق خيالي.

يبدو أنه استراح إلى حدٍّ ما من تطميناتي، وغمغم بحزن: «لقد توقفنا بالفعل عن الكلام مع أحد ضد الباشا الأرناؤوطي»، ثم اقترب مني وهو يتلفّت حوله قبل أن يهمس بصوتٍ موجوع: «إن العسس عندنا لا يرحمون، وقد يفصلون رأس الرجل عن جسده ويلقونه في النيل». ربّتّ ظهرَه وأنا أدعوه للجلوس لتناول قدح من القهوة، لكنه تابع بقلق: «لست خائفًا على نفسي، لكن دياب يحمل على كاهله عبء زوجة وأبناء»، وفي حركة متوترة قرر المغادرة قبل أن يمكث معي عشر دقائق، لكن عند انصرافه لاحت منه نظرة عابرة على الصورة التي رسمتها له،

fb/mashro3pdf

فابتسم وسألني: «متى أستطيع أن أحتفظ بها؟»، ضحكت وقلت مجاملًا: «لن تأخذها.. إنها تزين داري». غمغم شاكرًا، وفجأة التفت إلى اللوحة الجديدة التي أرسمها، فسألني بشغف: «مَنْ هذا الطفل الجميل؟».

على الفور قلت له: «محمد شـا..»، وأمسكت لساني قبل أن أكمل، بينما رغبة جارفة تدفعني دفعًا لأن أخبره أنه ابني!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

فولتير في النيل

يا نور النبي.. ما كل هذا الجمال؟! إنها حورية من الجنة!

هكذا هتف أيوب السبع عندما رأى فرانسوا للمرة الأولى تغادر السفينة القادمة من مارسيليا بعد أن رست في ميناء رشيد. نسي عذابات الترحال وحرارة الطقس وملوحة العرق وتأملها بقلبٍ شغوفٍ. لوَّحت بدها من بعيد وهرعت نحو شقيقها شارل وارتمت في حضنه على الشاطئ، ومضت تُقبّله بشوق حقيقي يليق بفراق ستة أعوام، بينما أيوب تسمَّر في مكانه كأن على رأسه الطير، يجيل فيها النظر مسلوب الإرادة، فقد اتسمت الفتاة بجمالٍ خارقٍ للعادة.. عينان زرقاوان واسعتان.. بشرة بيضاء لامعة.. أنف دقيق.. جبين عريض.. قوام متناسق.. شَعر أشقر ناعم يتهدل على كتفيها، لفتات رشيقة، أما فستانها الأخضر فيصل حتى القدمين. بدت لأيوب كأنها خارجة من لوحة جميلة من تلك التي يرسمها أخوها ويعلقها على جدران بيته، وعلى الفور عقد خياله مقارنة بينها وبين حسنات، فأيقن أن صاحبته المصرية خسرت المنافسة في سوق الحُسن والجمال.

fb/mashro3pdf

لقد ذهب إلى رشيد بصحبة صديقه الرسام قبل خمسة أيام. صعد إلى المركب من ميناء بولاق في يوم صيفي رائق. تلقى نسائم يونيو فور صعوده على سطح المركب الذي مضى يشق طريقه وسط رياح مواتية. في البداية ظن أيوب أن الأيام التي قضاها فوق المركب هي أمتع أيام حياته بسبب المناقشات الساخنة التي طُرحت في عرض النيل، تحدَّثا عن مصر وفرنسا، والأسباب التي جعلت مصر في عداد البلدان المتخلفة، وما الدوافع التي قفزت بفرنسا إلى مصاف القوى الكبرى، حتى طمعت في احتلال القاهرة لتقطع الطريق على تجارة إنجلترا مع الهند. أخبره شارل أن مصر مطمع لكل القوى الكبرى نظرًا لعوامل عدة مثل الموقع الجغرافي وخيراتها الكثيرة، وأحزنه بقوله: «لا تظن أن المصريين فقط هم الذين طردوا جيش الفرنساوية بمقاومتهم وبسالتهم، ومع كامل احترامي لجهودكم، وإنما التحالف بين الإنجليز والعثمانيين كان بمثابة السيف البتار الذي قصم ظهر جيش بونابرت وأجبره على مغادرة بلدكم، فمصر قلب الدولة العثمانية ولا يمكن أن تجعل أية دولة صغرى أو كبرى تخطف هذا القلب، والاتفاقيات والمعاهدات كلها التي قضت بانسحاب جيشنا تمت بين الفرنساوية والعثمانيين برعاية بريطانيا، ولم يوقِّع عليها رجل مصري واحد من الحكام أو المحكومين أو الثوريين».

fb/mashro3pdf

تلقى أيوب هذه المعلومات بقلبٍ منكسرٍ، لكنه لم يعلِّق وأشار بعينه طالبًا المزيد، فشرح له شارل كيف شارك في الثورة الفرنسية في القرن الماضي، وكيف أن الشعب كله ينبغي أن يخرج ضد الحاكم الظالم

، بطرده من عرين السلطة، حتى لو كان هذا الحاكم يعتنق الدين نفسه الذي يؤمن به غالبية الشعب. تحدث معه عن «أن الدين أمر خاص بين المرء وربه، فلا يجب أن يستثمره أحد لصالحه كما كان يفعل الرهبان والقساوسة عندنا في أوروبا، وكان الواحد منهم يتعامل مع البسطاء باعتباره المتحدث الرسمي باسم السماء، فاكتشفنا خداعهم وانتزعنا حقوقنا»، واستطرد شارل قائلًا: «إن البشر سواسية لا يفرق بينهم دين أو جنس أو لون، فلا يصح أن يكون هناك عبيد وجوار، ولا يجوز أن يلقى الأقباط واليهود هنا في مصر معاملة سيئة من قبل بعض المسلمين المتعصبين بسبب دينهم كما يحدث أحيانًا». ولما سأله أيوب كيف استطاع الفرنساوية أن يفهموا ذلك؟ أجاب شارل: «إن أفكار جان جاك روسو ومُنتسكيو وفولتير ألهمت الملايين من الشباب الفرنسي لبنوحَّد ويواجه حكم الملك لويس السادس عشر الذي تعامل معنا نحن الفرنساوية أبناء جلدته كعبيد».

أضاف شارل: «إن زمن الولايات والممالك والأبعديات والإقطاعيات والرهبان والأحبار قد انتهى، والشعوب دخلت عصر الجمهوريات.. عصر الدولة الوطنية ذات الحدود المعروفة.. عصر السياسيين.. لا عصر رجال الدين»، فتعجب أيوب وتساءل متحيرًا: «ماذا تعني؟». كان المركب قد توقف في ذلك الوقت عند بنها ليتزود الركاب بالمياه والطعام، فابتاع الصديقان قدرًا من الطماطم والخيار والجبن القريش والفطير والفول الحراتي والفجل والبطيخ. وعندما واصل المركب طريقه في عمق النيل تحدَّث شارل بهدوءٍ وهو يرسم اسكتشًا سريعًا يصوِّر منظرًا عامًّا لقرية

fb/mashro3pdf

مصرية مرُّوا بها وتقبع في حضن الشـاطئ، قال: «يا أيوب.. إن لكل زمن قوانينه وأفكاره التي تستهدف مصالح الناس في المقام الأول حتى تصبح حياتهم أكثر يُسرًا وعدلًا وجمالًا، وبالتالـي فالعصر الحالي ازدادت فيه المعارف والعلوم والاختراعات بصورةٍ مذهلةٍ على يد عباقرة أفاضل من فرنسا وإنجلترا وغيرهما، وتطورت الأفكار والقوانين والفنون.. كل ذلك مـن أجل خدمة الناس ليس فـي أوربا فقط، بل فـي كل بقعة في العالم»، ثم قال له إن البشـر اكتشـفوا أنهم يستطيعون تنظيم أنفسهم بأنفسهم دون حاجـة إلـى وصايـة أحد باسـم الدين، وتوصلـوا إلى أنهم قـادرون على اختيار مجموعة منهم تدير شئون الدولة بالقانون والعدل دون الانصياع إلى مَن يخدعهم باسـم السـماء. فتفكَّر أيوب مليًا وتسـاءل بعد أن قضم قطعة خيار: «ومَن الذي سيختار المجموعة التي ستدير الدولة؟».

ضحك شـارل وهتف: «برافو أيوب.. يوجد مجلس اسـمه المجلس الوطنـي.. يضـم مجموعة مـن الرجال الأكفـاء الذين يختارهم الشعب عن طريـق الانتخابات الحرة النزيهة، هؤلاء هـم الذين يضعون القوانين ويختـارون الحكومـة، وإذا أخفقـوا يتم اسـتبدال غيرهم بهـم من خلال انتخابات جديدة كل فترة وهكذا». سرح أيوب في الأفق الممتد وهمس: «تقصد اختيارًا عن طريق القرعة كما فعل بونابرته عند اختيار رئيس ديوان القاهرة». غمغم شـارل محركًا رأسه بالتأييد. وبعد أن فرغ من الاسكتش أعلن بلهجة مسـرحية إلى حدٍّ كبير: «الجمهورية هي أفضل نظام توصل إليه الإنسـان حتى الآن».

fb/mashro3pdf

زلزلت آراء الخواجة الفرنساوي كل قناعات أيوب الفكرية، فمضى يقلِّب في رأسه فكرة الوطن وكيف يمكن لها أن تتوافق مع فكرة الأمة الإسلامية، وتساءل باطنه هل يمكن أن يأتي يوم تصبح فيه مصر وطنًا مستقلًا غير تابع لأحد حتى الآستانة، ويحكمها رجل مصري لا واحد من باشوات العثمانيين، أو بكوات المماليك؟ ومشايخ الأزهر أين سيذهبون وماذا سيفعلون؟ في تلك الليلة كابد أيوب أرقًا موجعًا وسهرًا مؤلمًا، فالأفكار كالأمواج تتلاطم في رأسه والحر خانق في «الخن»، والفكرة تتولد منها فكرة فتصطدم بفكرة ثالثة، وقد تصطدم جميعًا بالأفكار الإسلامية الشائعة، وبقي على هذه الحال حتى الهزيع الأخير من الليل، ومع أذان الفجر نهض وتوجَّه صاعدًا نحو سطح المركب بحثًا عن دفقة نسيم، فإذا به يلمح الخواجة شارل يجلس في الطرف الآخر من المركب يمسك بيده كتابًا، ويرنو نحو النيل. تقدم نحوه ببطءٍ ثم تردد للحظة، ثم واصل طريقه.

مع ظلمة الفجر الناعمة، وعلى مسمع من خرير المياه المنسابة في النيل تلقى أيوب آراءً إضافية من صديقه الفرنساوي. قال شارل إن القراءة بشكل يومي هي التي تعينه على فهم العالم وتهبه فرصة الحياة الجديدة مع كل كتاب، وقال إن التأمل نعمة أدرك ضرورتها وحلاوتها على يد كتابات فولتير، فأصبح ينتهز أية فرصة ليمعن النظر فيما حوله، يتأمل البشر والحجر والشجر والسماء والأرض، وليس أروع من أن يرى الإنسان اللحظة الفارقة بين الظلام والنور، تلك المعركة اليومية

fb/mashro3pdf

الأبدية التي يتمسك فيها كل طرف بقوانينه ويشحذ أسلحته للمر، الأخيرة، فالظلام يخفي الأسرار وينتج الخرافات ويعزز الخيال ويشبع الخوف في النفوس، والنور يمحو العتمة ويضيء القلب ويغري بالعمل والنشاط. وبلهجة حكيم شرقي هتف شارل مادًّا يده نحو الفضاء: «يا أيوب.. تأملْ.. تسعدْ».

استقبل أيوب هذه الآراء بروح وثابة وعقل متوقد، فلما هبطا من المركب في رشيد ظن أن الأيام التي قضاها فوقه هي أسعد أيام حياته؛ لأنها أنعشت العقل وزودته بالأفكار الجريئة والجديدة، لكن الحورية التي خرجت من البحر في ميناء رشيد أثبتت له أن النساء أجمل من الأفكار، وأن نظرة من عيني فرانسوا أكثر إمتاعًا مما قاله جان جاك روسو وفولتير ومنتسكيو، وهكذا غرقت دروس السياسة وتلاشت مواعظ التأمل في بحر العينين الزرقاوين، فلم يتنبه أيوب إلى أن رشيد مدينة تضج برجال جاءوا من اليونان وصقلية وروما ومالطة وفرنسا ومدريد، استطونوا فيها ليتاجروا ويبيعوا ويعملوا.. لم يتنبه إلا حين لفت نظره الخواجة شارل إلى الفارق بين القاهرة ورشيد عندما تجولوا فيها عدة ساعات قبل العودة إلى الميناء ليستقلوا المركب المتوجه إلى القاهرة.

في طريق العودة، وبين النسمات الشحيحة التي تهب على سطح المركب، ظل شارل يشرح لشقيقته ولرفيقه طبيعة رشيد التي مكث فيها عدة أيام عندما جاء إلى مصر قبل ستة أعوام. أوضح لهما أنها أشبه بنموذج مختصر للعالم المحيط بالبحر الأبيض، وأفاض في الحديث عن

fb/mashro3pdf

خصال المدن الساحلية، ودعا أيوب إلى تأمل ملامح الأجانب المنتشرين في شوارعها وحواريها، لكن أيوب لم يتعظ ولم يتأمل، فقد استحوذت فرانسوا على عقل الشاب وروحه، وقد بذل المستحيل ليتفاهم معها طوال الرحلة النهرية، وتولى شارل مهمة الترجمة، فلما ضجر منها، لم ييأس أيوب، ولم تنزعج الفتاة، ومكثا يتواصلان بالإشارة حينًا ونظرات العيون أحيانًا، فلما دخلوا القاهرة أيقن أيوب أن مستقبله كله طوع يد القادمة من فرنسا، وستحقق فرانسوا الأمل والوعد، وسينتشي بها أيوب كل لحظة، لكنه لم يكن يخطر له أبدًا على بالٍ أنها ستهجره إلى ما لا نهاية، تاركة دمها الحار ذكرى مؤلمة فوق جلبابه!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

المهمة الجديدة

لم يضيع أيوب الفرصة، فالعقل نشط والأفكار تتدفق والحماسة تشتعل في صدره، فبعد أن استردَّ وعيه المسلوب وروحه الهائمة في فلك فرانسوا، وبعد يومين من عودته من الإسكندرية دعا عصبته إلى اجتماع عاجل، وتولى بنفسه المرور عليهم فردًا فردًا مستعملًا وسيلة التواصل السرية من خلال الطرقات إياها على الباب. وتحت شجرة الجميز المعمرة عند مشارف صحراء الدراسة التقى الجميع بعد حلول المغرب.

ما معنى أن تصير مصر دولة بمفردها لا تتبع أحدًا؟ ألسنا مسلمين مثل السلطان العثماني، والمسلمون كما أمر ديننا يجب أن يتبعوا ولي الأمر ويدينوا له بالطاعة والولاء؟

هكذا افتتح علي أبو حمص الجلسة بنبرةٍ حادةٍ وهو يفترش الأرض مادًّا ساقيه الطويلتين عن آخرهما. بحركة من رأسه أعلن دياب ضاضو موافقته على كلام علي، بينما انتظر شلضم السقاء ما سيسفر عنه النقاش الغريب. أما أيوب فقد تمعن في وجوههم قبل أن يوضح العبارة التي باح بها وأربكت عقول أصدقائه قبل أن تتلقاهم أرض الصحراء؛ إذ قال بهدوء:

fb/mashro3pdf

- إن مصر يا إخواني نسكنها نحن المصريين ومعظمنا مسلمون، وكلنا نتحدث اللغة العربية، حتى الأقباط واليهود الذين يعيشون بيننا يتحدثون لغتنا، ويفصلنا عن أورُبا بحر عظيم، ويحجبنا عن آسيا بحر كبير آخر، وكل مَن هو خارج هذه الحدود لا يتحدث لغتنا، وبالتالي لا يحق له أن يحكمنا أو يتحكم فينا، ثم إن..

قاطعه دياب صائحًا:

- لكن المسلمين في بلاد الشام يتحدثون العربية، وهل نسيت سليمان الحلبي الذي قتل المجرم كليبر.. إنه من حلب وكان يتعلم في الأزهر ويقرأ القرآن في المآتم والمناسبات والليالي الدينية!

همهمات وأصوات تأييد اختلطت بنسمات أول الليل مع يوليو، فعقب أيوب:

- معك حق، لكن بلاد الشام يجب أن تكون دولة لها أرض وحدود معروفة وحاكمها ومساعدوه من أهلها؛ لأن لهم عادات تختلف عن عاداتنا، أما مَن يأتون إلى بلادنا منهم، فأهلًا ومرحبًا بهم في مصر الدولة والأرض التي يجب أن تكون لها حدود معينة وعسكر يحمي هذه الحدود لا يدخلها أحد دون إذن، وأن يتولى شئون مصر حاكم مصري معروف بالنزاهة والفطنة يختاره الأهالي بأنفسهم، كذلك معاونوه ومساعدوه مصريون ثقات، أكفاء، وإذا أخفق هذا الحاكم في تحقيق العدل والأمن أزاحه الشعب من دار الرئاسة مثلما يحدث في فرنسا!

fb/mashro3pdf

على الفور انطلق دياب ضاضو ساخرًا:

أه.. بركات الخواجة شارل هلّت بعد عودتكما من الإسكندرية!

كظم أيـوب غيظه لكنه حدج دياب بنظرة عتـاب عنيفة، حتى اضطره إلى أن يغض بصره في الأرض ويعبث بيده في الرمل محاولًا الهرب من نظراته الحادة:

يـا إخوانـي.. ما لها فرنسـا؟ لقـد تطور أهلهـا وعرفوا العلـوم الحديثة وابتكروا أشياء لم تخطر على بال أحد من المسـلمين هنا، ولو تذكرنا كيـف دحروا المماليك في سـويعات قليلة لأدركنـا كم هم متطورون، وكم هم..

- ولكنهم كفار اعتدوا على ديار المسلمين!

- معك حق يا علي في أنهم اعتدوا على ديارنا، وهذا أمر مرفوض تمامًا، وقـد قاومناهم بكل ما أوتينا من قـوة حتى طردناهم العام الماضي، أما دينهـم، فاللـه هو الذي سيحاسـبهم وليس نحن، ولنتذكـر جميعًا قول الرحمن عز وجل: «لكم دينكم ولي دين»، ثم إن..

- لكن ربنا يقول: «إن الدين عند الله الإسلام»، وهم غير مسـلمين!

بصوتٍ عالٍ ونبرةٍ محتدةٍ هتف أيوب:

- الديـن عند الله يا علـي.. عند الله، وليس عندنا نحن، فما نحن سـوى عباد الرحمن لا نملك سـلطة على أحد، فلنوسـع صدورنا لاسـتيعاب الآخرين، ولا تنسـوا قـول العزيز الحكيم: «ولو شـاء الله لجعلكم أمة

fb/mashro3pdf

واحدة»، وأنتم كلكم تعلمون كيف أنقذت حياتي أسرة مسيحية قبطية في حارة الروم في ثورة القاهرة الأولى!

تسرَّب الصمت بين الأصدقاء للحظات استثمرها أيوب في معاينة وجوههم تحت أنوار النجوم الساهرة، وتأكد أنهم متفقون معه أو بالأدق لن يعارضوه إلا قليلًا، فقرر أن يعلن آراءه أمامهم قائلًا بنبرة أهدأ:

- الآن وبعد أن رحل جيش الفرنساوية احتلَّ السلطان العثماني مصر مرة أخرى كما تعرفون، حيث أصبح حكم مصر - أي القاهرة - من نصيب خسرو باشا، أما الإسكندرية فقد آل حكمها إلى خورشيد باشا كما أمر بذلك السلطان.. أليس كذلك؟

تبرع شلضم بالإجابة دون حماسة كبيرة:

- كلنا نعرف ذلك يا أيوب.. فما الجديد؟

فأكمل علي بيأس:

- للأسف يا أيوب، فمع أنهم حكام مسلمون فإن الغلاء في ازدياد والناس ضجَّت من ارتفاع الأسعار واختفاء السلع خاصة الزيت والغلال، فقد انخفض ما نخبزه في الفرن إلى النصف!

fb/mashro3pdf

التقط أيوب الغضب المكتوم في صدري صاحبيه وفجَّره قائلًا:

- إن البلد صار مرتعًا للأجانب، فالإنجليز ينشرون جيشهم المكون من الهنود والأفارقة بالآلاف في الإسكندرية ورشيد والجيزة، ويشعرون أن من حقهم أن يفرضوا شروطهم علينا، خاصة وأنهم ساعدونا

على طرد الفرنساوية، وكذلك العثمانيون يحلمون باستعادة هيبتهم، ليضمنوا فرض سيطرتهم على البلد بعد أن أهانهم المماليك في العقود الأخيرة، والمماليك أنفسهم يحلمون باسترداد مجدهم الذي ضيعه بونابرته، وها هو عثمان البرديسي نائب المرحوم مراد بك يحوم ورجاله ليقتنص مساحة من السلطة، أما الجنود الأرناؤوط الذين أرسلهم السلطان العثماني ليحاربوا الفرنساوية فلا يريدون العودة إلى ديارهم، وهم أشدَّاء مسلحون ولا يحترمون أحدًا إلا قائدهم طاهر باشا الذي يكره العثمانيين، أي أننا في بلد ممزق، كل غريب يتحايل ليقضم من خيراته قطعة؛ لذا..

قاطعه دياب بملل:

- ماذا تقول.. إنجليز.. هنود.. عثمانيون.. مماليك.. أرناؤوط.. كيف نخلط بين المسلمين والكفار؟

بنظرة حادة أجاب أيوب:

- صحيح أن العثمانيين والمماليك والأرناؤوط مسلمون مثلنا، لكنهم ليسوا مصريين، وبالتالي لا يحق لأي واحد منهم أن يحكمنا، أما الإنجليز، فهم مسيحيون، وليسوا كفارًا يا دياب، والله أعلم بإيمانهم، وهو جلَّ شأنه مَن سيحاسبنا ويحاسبهم، وليس نحن!

بضيقٍ تساءل شلضم السقاء:

- ماذا تريد منا يا أيوب؟ ألم نتعاهد على قتال الفرنساوية قبل سنوات، والحمد لله نجحنا وطردناهم العام الماضي، ماذا تريد يا أيوب؟

fb/mashro3pdf

تنهد الزعيم ورفع يده في الهواء كمَن يطرد خاطرًا محزنًا؛ إذ تذكر كلام شارل عن أن الإنجليز والعثمانيين هم الذين أجبروا الفرنساوية على الرحيل، وليس كفاح المصريين فقط وقال:

- أريد أن نشرح للناس بالصبر ضرورة أن يحكم مصر رجل مصري، لا مملوكي ولا عثمانلي ولا أرناؤوطي ولا فرنساوي ولا إنجليزي!

- هذا هراء.. لا يهمنا موطنه، وإنما يهمنا دينه، فالإسلام هو ما يجمع المؤمنين بالله الواحد الأحد، والإسلام هو الذي يُلزمنا بطاعة ولي الأمر ما دام مسلمًا مثلنا، والإسلام هو الذي..

قاطعه أيوب بإشارة من يده وقال بهدوء:

- معك حق في كل ما قلته، لكن ما المانع من أن يحكم مصر رجل مسلم لكنه مصري، وليس أجنبيًّا، رجل من أهالينا يعرف لغتنا ومشكلاتنا وعاداتنا وأحوالنا.. رجل يرق قلبه لضعفائنا ويشكم أثرياءنا، أم يرضيكم خسرو باشا الذي يحكمنا الآن وهو عبد قادم من جورجيا لا يتقن العربية، ولا يهمه سوى السلطة وجمع المال ولو على جماجمنا!

fb/mashro3pdf

ابتسم شلضم السقاء وقال محيًا صديقه:

- الحق معك يا أيوب، فخسرو باشا داهية من دواهي الزمن.. ألم تروه؟ إنه أعرج وقصير وبدين من فرط ما ملأ معدته بأموالنا، فهم يأكلون على حسابنا، ثم يتساءلون بوقاحة أنى لنا أن نأتيكم بالطعام؟!

اضطجع علي أبو حمص على جانبه واستند على عضده وهتف:

يا ساتر.. طربوشه أحمر صارخ، وحاجباه أبيضان وعيناه ساهيتان غائرتان تطفحان بالخبث ولحيته البيضاء تتدلى حتى بطنه لتزيد وجهه دمامة وقبحًا!

ابتهج صدر أيوب حين تلقى من أصدقائه كل هذا الامتعاض من خسرو باشا؛ إذ قال لنفسه: «ها هم قد اقتنعوا بكلامي أو كادوا»، ثم أكمل:

هذه ملامح رجل ليس مصريًا.. رجل أجنبي، فكيف قبلنا بأن يحكمنا؟ وما الفرق بينه وبين بونابرته أو كليبر أو مينو؟ هل يكفي أنه مسلم؟ ما أتعس حظوظ المصريين!

ساد الصمت مرة أخرى، وبلفتات ذكية ماكرة رصد أيوب أثر كلامه في وجوه أصحابه الذين ألجمتهم حجة زعيمهم، فآثروا التريث ولاذوا بالسكون حتى شقَّ الصمت بصوته الجهوري علي أبو حمص سائلًا بحيرة:

- حسنًا.. خسرو باشا أجنبي.. خورشيد باشا أجنبي.. البرديسي أجنبي.. ماذا نستطيع أن نفعل يا أيوب؟

استقبل أيوب استفسار صديقه بقلبٍ هادئ وعقلٍ متزنٍ وقال:

- لا شيء.. سوى أن نشرح لأصدقائنا وجيراننا وأحبائنا أهمية أن يحكم مصر رجل مصري لا عثمانلي ولا مملوكي!

- ثم ماذا؟

fb/mashro3pdf

هكذا سأل دياب، فارتبك أيوب؛ إذ إنه لم يفكر في الخطوة التالية، ومع ذلك تأمل وجه صديقه للحظات قبل أن يبتكر إجابة ترضيه وتقنع صاحب السؤال في الوقت نفسه:

- حين يكثر عدد المؤمنين بقضيتنا ندعو إلى اجتماع كبير في الأزهر، ونعلن على الملأ أننا نعزل الوالي خسرو باشا لأنه غير مصري، وأننا لا نرضى بأن يحكمنا إلا رجل مصري مثلنا!

عاد الصمت ليفرض حضوره، ومرت نسمات سريعة منعشة، وتعجب شلضم متسائلًا:

- وهل سيتركنا رجال خسرو باشا نطعن في أحقيته بالحكم؟

- بل قل هل سيتركنا بكوات المماليك نلعن وجودهم ونفضح طمعهم ونؤلب الشعب عليهم؟

على الفور أجاب أيوب مطمئنًا شباب عصبته:

- السرية التامة يا أصدقاء هي سلاحنا، لقد أثبت هذا السلاح كفاءته عندما احتل الفرنساوية وطننا وتسكعوا في أحيائنا وحوارينا، وبالتالي ليس أمامنا سوى أن نشرح للناس سرًّا ضرورة أن يحكمنا رجل مصري، ونؤكد لهم مصيبة أن يتولى أمرنا رجل مملوكي أو عثمانلي!

عند تفرُّق أفراد العصبة، تأبط شلضم ذراع دياب وسارعا الخطوات حتى غابا عن عيون صديقيهما في عتمة الليل، ثم همس في أذنه مستفهمًا:

- هل أنت متفائل بما يقوله أيوب؟

fb/mashro3pdf

مطَّ دياب شفتيه استخفافًا ونبس بصوتٍ خفيضٍ:

لا أظن أن الناس ستقتنع بما يقول!

فـي تلك اللحظة مـرق أيوب وعلي من باب النصر، وكل منهما يتأبط ذراع صاحبه، بينما واصل دياب وشلضم سيرهما نحو باب الفتوح. فجأة توقف علي أمام مقهى المعلم حنظل واقترح أن يتناولا قدحًا من الخروب البارد، فوافق أيوب مبتسمًا وهو يعلن أنه سيتولى دفع الحساب.

انتبـذ الصديقان ركنًا قصيًّـا في الطريق بعيدًا عـن الزحام والصخب، وأخـرج أيـوب من سـيالة جلبابه منديلًا جفـف به عرقـه الغزير، وغمغم لصاحبه ضاحكًا:

- ما كل هذا الزحام؟ يبدو أن أهل مصر كلهم في هذا المقهى!

مع أول رشـفة من الخروب، أجال علي بصره في الجالسـين وسـأل رفيقه بقلق:

- هل سيكون النجاح حليفنا في مهمتنا الجديدة؟

بصوتٍ مترعٍ بالثقة أجاب أيوب:

- بعد شـهور قليلة يا علي سيجلس على كرسـي العرش في القلعة رجل مصري ابن مصري!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

المقدّس حنًّا.. وحسنات

تأخرت حسنات أكثر من اللازم.. أخبرته أمس أنها ستأتي اليوم من بولاق بعد العصر، فالأمر جد خطير، وزوج أمها بلغت به الوقاحة حد التحرش بها في الذهاب وفي الإياب، بينما والدتها طريحة الفراش لا تدري شيئًا عن نزوات زوجها وطيشه. وقبل عام هربت من أمها وزوجها واستنجدت به طالبة منه بشكل غير مباشر الاقتران بها، لكنه لم يكن على استعداد للزواج من امرأة ساقطة كما قال لنفسه، فحاول تهدئتها وأقنعها بالعودة إلى بيت أمها وصد أية نزوات طائشة لزوج الأم بحزم، وإن اضطرت إلى فضحه على الملأ.

أما اليوم فقد استعد أيوب لملاقاتها ببنيان مترع بشهوة مزلزلة مقررًا أنها المرة الأخيرة التي سيستنشق فيها رحيق جسدها الساخن، وبعدها سيتفرغ تمامًا لبنت باريس، وأمس سأل نفسه: «هل أطمع في أن تشهر فرانسوا إسلامها؟ وهل يمكن أن تقبلني زوجًا لها؟ إن شقيقها شارل يحترمني ومعجب بي ويردد كلامًا مدهشًا عن المساواة؛ لذا أظنه لن يرفض اقترانها بي إذا شاءت ذلك، ولكن.. آه.. إنها تتلطف معي وتأمن لي، ولا تمانع أن أمسك يدها لأساعدها على امتطاء بغلتي أو حصان أخيها»!

fb/mashro3pdf

قبل أذان العصر أغلق أيوب دكانه، وذهب إلى بيته ليرتدي جلبابًا نظيفًا يليق باللقاء الأخير مع حسنات، ثم حبك عمامته فوق رأسه وارتاح لملامحه في المرآة، ثم تطيب وخرج لملاقاة حسنات، ومع رفع الأذان دلف إلى مسجد الحسين وأدى صلاة العصر مستغفرًا الرحمن مقدمًا على المعصية التي سيرتكبها بعد قليل مغمغمًا في سريرته: «ارحمني يا رب.. فنار الرغبة لا تنطفئ أبدًا ولو صليت ألف عام».

انتظرها طويلًا في الساحة الممتدة أمام المسجد، اتكأ بجذعه على شجرة معمرة يتلقى نسمات أكتوبر بصدرٍ عفي، فلما لم تظهر صاحبة الجسد الشهي قادته الشهوة القلقة إلى السير نحو سكة بولاق عسى أن يلتقيها مقبلة. لمحه يقف وحيدًا عند وكالة الغوري، يتلفت يمينًا ويسارًا كأنه ينتظر أحدًا. جسده انكمش بصورة لافتة وملامحه تغيب تدريجيًا مع اضمحلال النور، فالشمس أقرّت بهزيمتها أمام أمواج الظلام المقبلة بقوة، ولم يبقَ منها سوى آخر شعاع ضوء. اقترب منه أيوب وهو ما زال يرنو نحو سكة بولاق وسأل بأدب:

- ألست المقدّس حنًا رمسيس القاطن في حارة الروم؟

التفت الرجل الكهل نحو الشاب، وأبدى حرجًا قبل أن يجيب:

- بلى يا بني!

«لا يتذكرني.. رغم أن أسرته أنقذت حياتي»، فأوضح:

- أنا أيوب السبع الذي اختبأ في داركم أيام ثورة القاهرة الأولى قبل أربعة أعوام!

fb/mashro3pdf

حرَّك الرجل رأسه متذكرًا، وتهلل وجهه صائحًا:

- أهلًا يا ولدي.. سامحني فقد هدَّني المرض وذاكرتي أصابها العطب.. أذكرك طبعًا، فأنت الشاب الشجاع الذي جئتنا هاربًا من الجنود الفرنساوية حاملًا فوق كتفك طفلًا صغيرًا رائعًا.. كيف أحوالك الآن؟

لم يشأ أيوب أن يبقى طويلًا، فطيف حسنات قد يلوح فجأة؛ لذا لم يستمر اللقاء العابر سوى دقائق معدودات عرف خلالها أيوب أن المقدس ذهب بالطفل إلى شيوخ الحارات حتى عثروا على أبيه وأعادوه إليه، لكن والدة الطفل وأشقاءه قضوا نحبهم في أثناء القصف الفرنساوي للغورية، كما علم منه أن زوجة المقدس قد تنيَّحت قبل عامين، فاشتد حزنه عليها حتى تمكنت منه الأمراض وضعضعت جسده، ثم بنبرة مفعمة بأسى شديد قال الرجل:

- هكذا تراني يا بني.. لا أقوى على حمل جسدي، ولولا أنني كنت أنتظر تاجرًا من القليوبية، ما خرجت من داري، والرب يحفظ ابني ميخائيل الذي يدير وكالة الصابون بالدرب الأحمر، فأنا لا أقدر على الذهاب إليها إلا مرة كل شهر.

تلقى أيوب هذه المعلومات بحزن، ثم صافح الرجل مودعًا وشاكرًا بسرعة، لكن ما إن تحرك عدة خطوات في اتجاه مسجد الحسين حتى طرقت أذنيه صرخات شديدة واستغاثة: «الحقني يا أيوب.. أنقذني يا بني.. لصوص». التفت خلفه كمَن مسَّته عقرب، فرأى اثنين من اللصوص ينقضَّان على المقدس حنًّا، وأسقطاه على الأرض ومضيا يوسعانه ضربًا

fb/mashro3pdf

محاولين سلب كيس نقوده، والرجل يقبض عليه بكل طاقته الواهية. بسرعة خاطفة انقضَّ أيوب على اللصين وكال لهما لكمات سريعة وقوية في الوجه والبطن، ثم تلقَّى لكمة في رأسه فسقط على الأرض وطارت عمامته، وفي لحظة هبَّ واقفًا وخلع جلبابه وألقى بجسده على اللصين فأطاحهما أرضًا، وقد امتلك من الخفة ما جعله يواجه النذلين بجسارة شجَّعت أحد المارة الذين تجمعوا على المشاركة في العراك الطارئ ومساندة أيوب حتى تراجع اللصان ولاذا بالفرار في اتجاه الأزبكية متلفحين بالظلام الدامس دون أن يظفرا بشيء.

تفرق الجمع اليسير الذي شاهد المعركة السريعة بعد أن أثنى أكثر من واحد على شجاعة أيوب، وتبرع آخر وأقسم أنه يعرف اللصين، وسوف يبلغ عنهما شيخ البلد، أما أيوب فقد ارتدى جلبابه وناوله أحد المارة عمامته فاعتمرها، ثم مضى نحو المقدس حنَّا الذي افترش الأرض مسندًا ظهره إلى جدار وكالة الغوري غارقًا في ارتعاشة اعترت جسده كله بينما يقبض على كيس نقوده بكلتا يديه. برفق شديد أخذ أيوب يمسح الدم النازف من أنف المقدس وفمه الذي ظل يردد كلمات غامضة غير مفهومة، ثم همس لاهثًا:

- أشكرك يا بني.. بارك الرب في صحتك وأيدك بالروح القدس.. يبدو أن هذين اللصين تربصا بي عندما شاهدا التاجر يعطيني ما تبقى لي من حساب عنده.

ثم دخل في نوبة سعال زلزلت جسده الواهن، فلم يجد أيوب بدًّا من حمل المقدس على ظهره ليوصله حتى باب بيته بحارة الروم، لكن ما إن

fb/mashro3pdf

سـار عدة خطوات حتى فوجئ بحسنات تعترض طريقه، فأشار لها بعينيه أن تنتظره أمام مسجد الحسين.

رفـض أيوب أن يجلس فـي بيت المقدس حتًّا أكثر مـن دقيقة واحدة حتى اطمأن على سـلامة الرجل، وعاد مسـرعًا إلى حسـنات، لكن حين صافـح أهل البيت مودعًا، جال في باله خاطر ابتسـم لـه فتمتم: «يبدو أنه مقـدور عليَّ ألا أدخل حارة الروم إلا وأنا أحمل على كتفي كائنًا بشـريًّا، فمرة طفل واليوم كهل».

بسـرعة البرق وصل أيوب إلى ساحة مسجد الحسين، مخترقًا الظلام بإلهـام الشـبق، ولولا الأنـوار المنبعثة من المشـاعل المتناثـرة من بعض الحوانيت حول المسجد ما عثر على حسنات في هذه الظلمة الحالكة؛ إذ لاذت بجدار بيت عتيق مواجه لمدخل المسجد لتتقي لسعات البرد التي بدأت تنهمر من الجهات الأربع. سبقها نحو مأوى العفاريت، لكن ما إن تجاوزا باب النصر حتى ركضت لتلحق به. أحاطها بذراعه، فالتصقت به حتى بلغا البيت المهجور. لم يعد قادرًا على الاحتمال أكثر من ذلك، فلم يشغل نفسه بإضاءة شمعة، واكتفى بالأشعة الشحيحة المنبعثة من النجوم المتيقظة المتسللة إلى الداخل عبر فراغات الجدران.

fb/mashro3pdf

استعر الكون وارتج الجسـدان وهمدا في دقائق معدودات، وفي ذروة الالتحام والانفجار عضها أيوب في عنقها، في الوريد نفسـه الذي عضها فيـه مـن قبل، فصرخت مـن الألم واللـذة، وبعد أن أزالت الـدم النازف، قالت حسنات بحنان وهي تتحسس شعر صدره النابت:

- لا حلَّ لي مع زوج أمي سوى أن أخبرها بنذالته وليكن ما يكون!

لم يرد، فقد كان مشغولًا بسؤال حيوي يعبث بخياله: «هل سيأتي يوم وأحتوي فرانسوا في صدري؟ وما لون جسمها حين أنزع عنها ملابسها كاملة؟ وما طعم شفتيها؟ وهل ستصرخ بجنون كما تصرخ حسنات حين أمتصها في جسدي؟».

لكزته بغنج وعاتبته متسائلة:

- أين أنت؟ لماذا لا تجيبني؟

ابتسم وضمها في صدره، وقال وهو لا يزال غارقًا في نار المقارنة بين المرأتين:

- حسنات.. لا حلَّ لكِ مع زوج أمكِ إلا بالزواج، فابحثي عن زوج مناسب وطيب!

لم يرَ أيوب آيات الأسى التي غمرت وجهها في لحظة، لكنها ابتعدت عنه بشكل لا إرادي، ونهضت وارتدت ملابسها، وهتفت بحدة:

- هيا نعد إلى الحسين.

بعد أسبوع واحد فقط زُفَّت حسنات إلى بائع فول من بولاق من دون رغبة كبيرة، وفي ليلة الزفاف أخطأت من فرط الحنين ونطقت باسم أيوب بينما زوجها يعضها في عنقها، فما كان منه إلا أن استلَّ سكينًا وطعنها عدة طعنات وهو يصرخ: «الفاجرة.. الفاجرة.. عشيقة أيوب.. قتلتها»!

* * *

fb/mashro3pdf

غرام في الهرم

لـم يعـرف أيـوب بما حـدث لحسـنات إلا بعـد يومين مـن الجريمة الشـنيعة؛ إذ همـس دياب ضاضـو في أذنـه ذات صباح سـائلًا بمكر غير بريء: «هل تذكر حسـنات بائعة الشـاي؟». بصعوبة دارى أيوب ارتباكه، وهـمَّ بفتح الدكان وطلب من صديقه، بشـكلٍ حـاول أن يبدو طبيعيًا، أن يعاونه على رفع اليد الحديدية الثقيلة التي يغلق بها ضلفتي الباب، وقال: «أذكرهـا.. مـا لها؟»، ثم أشـار برأسـه مسـتخفًا إلى المـكان الذي كانت تمارس فيه عملها عند ناصية خان جعفر.

قال دياب وعيناه تحاولان رصد التعبيرات الكامنة في وجه صديقه:

- لقـد طعنهـا زوجهـا قبل يومين فـي ليلـة زفافهما وخرج يصـرخ رافعًا سـكينًا يقطر دمًا، ويصيح وسط أهل بولاق: الفاجرة.. عشيقة أيوب.. آثار أسنانه ظاهرة في رقبتها!

أنقذته فرانسـوا مـن ورطته؛ إذ اقتحمت الدكان فجـأة بعطرها ورقتها وصخبها المحبب وهتفت بلهجة مصرية مضحكة:

- هيا يا أيوب.. أسرئ.. سنذهب إلى الأهرام هالًا!

fb/mashro3pdf

ابتسم أيوب على طريقتها في الكلام، ودار حول نفسه بارتباكٍ كأنه يبحث عن شيءٍ بينما ضربات قلبه تتواتر بسرعة كبيرة، واقترب من فرانسوا حتى كاد يلمسها وهمس:

- حالًا.. ألم نتفق على الذهاب غدًا؟

قطبت جبينها وصاحت:

- هيّا.. الجو جميل وشارل متحمس جدًّا لرسم الأهرام.

- حاضر.. سأغلق المحل.. لكن أين شارل؟

- أنا موجود!

اقتحم الرسام الدكان حاملًا أدواته وأضاف:

- هيّا..

مال أيوب نحو دياب وسأله، وقلبه يرتجف:

- هل ماتت حسنات؟

- أجل.. وقبضوا على زوجها بائع الفول وحبسوه!

- هل عرفوا مَن أيوب؟

ابتسم دياب وقال:

- يوجد أكثر من ستة شبان اسمهم أيوب في بولاق يعرفهم زوجها.

fb/mashro3pdf

ثم أضاف باسمًا:

- اطمئن.. اذهب مع صديقتك الفرنساوية واستمتع، لكني أقسم إنك المقصود وإنك مَن عضها في عنقها!

جذبته فرانسوا من يده.. ودفعت صديقه خارج الدكان بحركات مسرحية مرحة وهي تصيح ضاحكة:

- هيا.. هيا.. قبل أن ترحَل الأهرام!

امتطى شارل حصانه الأبيض وجلست خلفه شقيقته، في حين اعتلى أيوب بغلته الجديدة حاملًا أمتعة الطعام والشراب وبعض حاجيات الرسام. اخترقوا الحسين في اتجاه السكرية حتى وصلوا إلى باب زويلة، فانعطفوا يمينًا نحو درب الجماميز وواصلوا المسير حتى الروضة، وهناك استقلوا معدية عبرت بهم نهر النيل، ثم أكملوا في اتجاه سكة الهرم. طوال الرحلة تلقى الركب نسمات منعشة من الحقول الممتدة إلى ما لانهاية، واستمتعوا بشذا الخضراوات الطازجة المنبعث في الفضاء، وهللت فرانسوا لموكب أشجار الجازورينا الضخمة المنزرعة على حافة الترعة التي يسيرون بمحاذاتها، وصاحت فرحة بأسراب الحمام في السماء وجماعات أبو قردان البيض في الأرض، وألقت أسئلة كثيرة كلما شاهدت البيوت الطينية أو بعض الحيوانات ترعى أو فلاحي الحقول.. باندهاش تسأل: «مَنْ هؤلاء؟ وماذا يفعلون؟ ولماذا لا يستحمون؟ وكيف يتركون أطفالهم هكذا شبه عرايا وحفاة؟».

fb/mashro3pdf

مع كل إجابة حاول أيوب أن يقاوم شبح حسنات الذي يقتحم دواخله كإعصارٍ عاتٍ، لكن لحظات الصمت التي تفرض وجودها أحيانًا كانت تؤذي روحه بشكلٍ لا يصدق، ويغمغم بصوتٍ لا يُسمع: «حسنات قُتلت.. لا حول ولا قوة إلا بالله»، لدرجة أنه لم يستطع منع دموعه من التحرر من مقلتيه، فلما لاحظت الفتاة الفرنسية عبراته قال لها كاذبًا:

- لقد رحل أمس أحد شيوخنا الكبار في بولاق وصديق المرحوم والدي كما أخبرني صديقي دياب قبل قليل.

عند سفح الهرم نصب شارل أدواته بمساعدة أيوب، واختار جلسته بما لا تضايقه أشعة الشمس، ومضى يرسم المقبرة الأعظم في العالم مستخدمًا ألوان الزيت، ومن حسن الحظ أن أشعة الشمس كانت لينة في هذا الوقت، فلم تزعج الرسام ولا أخته التي تأملت المكان بذهولٍ وانبهارٍ شديدين، وأخذت تركض وتقفز كطفلة مستهدفة مداعبة أيوب، فتختفي حول حجر ضخم وتناديه، أو تختبئ خلف جملٍ باركٍ يحتمي بظل نخلة عتيقة، ثم تقذفه بحجارة صغيرة دون أن يراها، فيتعب في البحث عنها، ولما يجدها يطاردها بحماسة ناسيًا مصرع حسنات، فتدخل الكهوف الفرعونية المتناثرة حول الهرم، أو تصعد حفنة أحجار فوق خوفو وتبسط يديها كمسيحٍ مصلوب، أو تختبئ خلف أبي الهول وتشرع في الغناء بصوتٍ عالٍ، وفي إحدى هذه المناوشات البريئة، هبطت فرانسوا داخل غرفة أثرية قديمة تقع في السفح الممتد أمام هرم خفرع، فلمحها أيوب، وتسلل وراءها دون أن تلاحظه، حتى اختبأ خلف

fb/mashro3pdf

بقايا جدار قريب بحيث يستطيع رؤيتها دون أن تراه، ثم التزم الصمت التام لبرهة. قلقت فرانسوا، وأطلت برأسها بحذرٍ لتستكشف وجوده، هنا بالضبط ظهر من خلف الجدار وأطلق صرخة بهدف ترويعها ومشاكستها، فأفزعتها وأضحكتها، فارتمت في حضنه طالبة الحماية، فتلقاها بقلبٍ يخفق وجسدٍ ملهوف، وأمسك وجهها براحتيه وتلقى شفتيها في قبلة عميقة زلزلت جسديهما معًا.

في مساء تلك الليلة لبّى أيوب نداءً غامضًا قويًّا بضرورة الذهاب إلى مأوى العفاريت، حيث غنج حسنات والملمس الشهي والرعشة الأسطورية. جلس أمام مدخل البيت وحيدًا تحت أنوار قمر شاحب لا يستطيع مقاومة السحب الداكنة المتسارعة. كان ممتلئًا بأنفاس فرانسوا ورائحة الرمل، لكن طيف حسنات ظل يطارده طوال النهار حتى أجهش أيوب بالبكاء مرتين.. الأولى لمصرع حسنات، وشعوره بالذنب لأنه مَن اقترح عليها ضرورة الزواج سريعًا للتخلص من زوج الأم النذل، والمرة الثانية بكى من أجل الغرام الجديد الساحر الذي تلقى مكافأته السخية نهار اليوم في سفح الهرم!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

الفضيحة

استيقظ أهالي النحاسين ذات صباح صيفي على فضيحة مدوية. أشرف هانم زوجة إيواظ بك ذات الحسب والنسب، والمرأة التي يهابها الكبير والصغير، لم تتحمَّل لوعة العشق فهربت في الليل مع شاب فقير من عمر أبنائها اسمه شلضم يعمل سقاءً مثل المرحوم والده.

ياقوتة الحبشية أول مَن أفشت الخبر بشماتة؛ لأنها الوحيدة التي شهدت عملية الهروب السرية من مشربية الحرملك في الثالثة فجرًا؛ إذ بات قصر إيواظ بك غارقًا في سُبات آخر الليل، إلا ياقوتة التي كابدت أرقًا مفاجئًا؛ إذ التقت الخواجة شارل عصر اليوم عند الغورية بصحبة شقيقته، فأقبلت عليه منشرحة الصدر مترعة بشهوة حارة، وقد طمعت في قضاء ليلة ساخنة، لكن وجود أخته فرانسوا أعاق تحقيق حلم التلاحم اللذيذ، فقررت أن توفر مأوى خاصًا في أقرب فرصة وبأية وسيلة، وهكذا باتت ليلتها أسيرة التفكير والقلق، حتى سمعت حركة خفيفة قادمة من الحارة.

نظرت من خصاص المشربية لتستكشف الأمر، فإذا بها ترى شلضم السقاء يحمل صندوقًا خشبيًا كبيرًا ويضعه على عربة كارو، للحظة ظنَّت أنه اقتحم القصر بهدف السرقة، وهمَّت بالركض والصراخ، لكن ظهور

fb/mashro3pdf

أشرف هانم حاملة الصندوق الخشبي الصغير الذي تضع فيه مجوهراتها عطّل همتها وأثار الشك في صدرها فظلت تراقب المشهد بقلب مضطرب يخفق بشدة خشية أن يقع نظر الهانم على الجارية.

شهقت حين رأت شلضم يعاون سيدة الدار في الصعود إلى العربة وتمتمت: «يا للفضيحة!». لاحظت خفته في القفز وحفز البغلة للتحرك بسرعة. تابعت بصدر مرتجف انطفاء صوت العربة في حارة بين القصرين حتى ذبل تمامًا. انتابها شعور بالشماتة لأن أشرف هانم صارت عاشقة مفضوحة هاربة من بيت الزوجية. لثانية فكرت أن تذهب إلى الخواجة شارل لتقصَّ عليه ما رأت، ثم تراجعت لأن الليل ما زال جاثمًا، ولأن شقيقته معه. فكرت أن تخبر إيواظ بك بفضيحة آخر الليل لكنها خشيت من غضبه، فظلت متيقظة تطل على الطريق حتى اخترق أذنيها صوتُ أذان الفجر مختلطًا بأصوات الديكة، فأدركت أن النهار سينتصر على الليل حالًا، فسارعت تقصُّ ما رأت على زميلاتها من الجواري وزملائها من العبيد، بينما تتهلل جوانحها حين ترى الفرح المعجون بالشماتة يتدفق من عيونهم!

مع أول همسة نور صبتها شمس مايو من عام 1803 في أذن النهار غدا خبر هروب أشرف هانم مع شلضم السقاء مضغة الأفواه في الحسين. لقد تولت ياقوتة إذاعة الخبر بوصفها مهمة مقدسة، فصدرها ينطوي على غيظٍ شديدٍ نحو سيدتها التي أهانتها كثيرًا كما قالت للخواجة شارل.

تلقى أيوب نبأ الفضيحة من علي أبو حمص في التاسعة من صباح يوم الهروب؛ إذ اقتحم علي دكان أيوب صارخًا: «هرب شلضم مع أشرف

fb/mashro3pdf

هانم». اضطرب أيوب وهو يستنشق رائحة مصيبة تفوح في المكان، فألقى البوصة بعصبية وانتفض متسائلًا: «ماذا تقول؟».

فوجئ علي بأن صديقه لم يعلم بعد بكارثة العشق التي وقعت في الثالثة صباحًا أمام قصر إيواظ بك في طريق بين القصرين، لكنه أثار حفيظته حين قال بجدية: «يبدو أن أشرف هانم أغوته عن طريق السحر». هنا انفعل أيوب وصاح في وجه علي: «أي سحرٍ يا رجل؟ إن هروب رجل وامرأة معًا لا يحتاج إلى سحر».

تعجب علي من غضب صديقه، فلم يعلِّق واكتفى بنظرة عتاب أطلقها تجاهه، أما أيوب فانحنى ليلتقط البوصة من على الأرض وربَّت كتف صديقه العملاق هامسًا: «هوِّن عليك أخي الكريم.. لقد أفزعتني»، ثم صاح كمَن تذكر شيئًا خطيرًا: «وأمه وأشقاؤه؟».

تحدث علي باستفاضة وقال إن الناس تتداول كلامًا غريبًا عمَّا فعله شلضم قبل عملية الهروب بساعات، فمنهم مَن يزعم أنه اصطحب أسرته معه لأن لا أثر لهم في الكوخ الذي يؤويهم عند القبو، ومنهم مَن يؤكد أنه شاهد أمه وأشقاءه قبل يومين يحملون أمتعتهم عند الفجر قاصدين إنبابة، وهناك مَن ادعى أن أم شلضم حين علمت من ابنها أنه ينوي الهروب مع زوجة إيواظ بك لعنته وطردته وخشيت على أبنائها من غضب البك المملوكي فاصطحبتهم وفرَّت هاربة إلى المجهول.

أطرق أيوب قليلًا بعد أن أنصت إلى حزمة الشائعات التي أعقبت أخطر هروب غرامي شهده الحي في السنوات العشرين الأخيرة، وتذكر

fb/mashro3pdf

الليلة التي جاء فيها شلضم طالبًا بإلحاح قتل نفيسة البيضا عند زيارتها لدار أشرف هانم، وإصراره على أنها من الأعداء التي تعاون الفرنساوية، وردد باطنه: «يقترح قتل النساء.. وفي آخر الأمر يهرب مع امرأة في عمر والدته.. حقًا ما أغرب الإنسان!».

عاد أيوب إلى مجلسه، وتساءل بقلق كمَن يحدث نفسه: «ترى هل سيفشي شلضم أمر مجموعتنا للهانم؟». ابتسم علي وجلس بجواره وهتف متهكمًا: «لا أظن.. فالذي يهرب مع امرأة لا يهمه مَن يحكم البلد.. مملوكي أو عثمانلي أو فرنساوي». ثم أضاف بنبرة كلها حيرة «العجيب أنه لم تظهر أية إشارة توضح مآرب شلضم أو خباياه؟».

تناول أيوب كتاب الطبري الذي يقوم بنسخه وتصفحه بنصف اهتمام، وقال بحسم: «حقًّا.. لله في خلقه شئون، ومَن يهجر بلده من أجل امرأة لا أمان له، فلنحذر جيدًا.. فقد يفشي شلضم بما نفعله لأحد خاصة تلك المرأة التي هربت معه». ثم بحكمة زائدة: «البلد على كف عفريت، فقد هرب الوالي خسرو باشا إلى دمياط قبل شهرين بعد أن تمرد على سلطته الجنود الأرناؤوط لأنه لم يدفع رواتبهم منذ خمسة أشهر، وفرض قائدهم طاهر باشا نفسه حاكمًا على مصر، وللأسف الشديد فقد وافق السلطان العثمانلي في إسطنبول على ذلك».

fb/mashro3pdf

غمغم علي متأسيًا: «وهل نسيت جنون خسرو هذا في فرض المزيد من الضرائب علينا نحن الفقراء؟». ضحك أيوب ساخرًا: «هرب الجبان بعد أن حكمنا خمسة عشر شهرًا أسود، وبعد أن جمع أمواله ونساءه،

،اركًا النيران تلتهم البلد بسبب الصراع على السلطة بينه وبين طاهر باشا قائد الأرناؤوط». هنا وقف علي صائحًا: «طاهر هذا مجرم يستحق ما جرى له.. لقد ملأ سجون القلعة بالناس من كل ملة ودين وعذبهم أشد التعذيب، وفرض علينا ضرائب باهظة لا تُطاق.. لقد كادوا يغلقون الفرن الذي أعمل به لأنه لم يسدد كل ما طلبوه من ضرائب وأمهلوا صاحب الفرن يومين، لكن ربنا ستر، فقد تمرد على هذا النجس، وليس الطاهر، جنود الإنكشارية وحاصروه وذبحوه وقذفوا برأسه من النافذة الأسبوع الماضي رغم أنه لم يمكث في الحكم سوى أسابيع قليلة.. يا ساتر.. مي ألف داهية».

أيد أيوب كلامه بحركة من رأسه قائلًا بحسرة: «حقًا ما أبشع حكامنا الأجانب! إنهم يتعاملون مع مصر بوصفها عزبة آبائهم، وها هو عثمان البرديسي ربيب المرحوم مراد بك يجلس في القلعة يأمر ويهدد». ثم أضاف محذرًا بنبرة حازمة: «اسمع يا علي.. البلد مستباح تمامًا، ويغلي فوق صفيح ساخن، فالمماليك والعثمانلية والإنجليز والأرناؤوط كلهم ينهشون لحمه وعظامه، والبرديسي هذا لن يهنأ بمنصبه فالكل يغلي، أما مشايخنا وتجارنا فلا يشغلهم سوى حصد المزيد من الأرباح وتكديس الأموال في جيوبهم ناسين الشعب وفقراءه»، وعليه يجب أن ننتبه من المكائد وينبغي أن نزيد من دعواتنا حتى يقتنع الناس بضرورة أن يحكم مصر رجل مصري شريف وعادل من أهلها». ثم أضاف ناصحًا: «انتبه جيدًا يا علي فأنا أخشى من شلضم، فالذي يهرب مع امرأة عجوز لا يتورع عن فعل أي شيء»، فحذار».

fb/mashro3pdf

بعد خمسة أشهر فقط من هذه الواقعة، وفي يوم خريفي ممطر فو جئ أهالي الحسين بإيواظ بك يخرج من داره الفسيحة للمرة الأولى بعد الفضيحة محشورًا في ملابس قذرة، حافي القدمين، بلا عمامة، أشعث الشعر، تفوح منه رائحة مقززة. كانت الشائعات تفسر احتجابه عن الناس طوال هذه الشهور بسبب حزنه وخجله من مواجهتهم، وتطوع بعضهم وأكدوا أنه آثر الاعتكاف في داره الفخمة هربًا من نظرات الشامتين، وحين حاول شيخ الحارة وبعض التجار من بني جلدته زيارته لمواساته رفض مقابلتهم، كما قال خادمه الوفي مرجان النوبي الوحيد الذي ظل مرافقًا له بعد أن هجرته قبيلة الجواري والعبيد الذين كانوا يخدمونه.

سار البك المنكوب في اتجاه باب الفتوح بجسد متهدم، ويدين ترتعشان، وكرش متهدل.. زائغ البصر، تاركًا قدميه تغوصان في الوحل المتراكم طوال الطريق، يهذي بكلام غير مفهوم، بينما مرجان يحاول إيقافه وإعادته إلى الدار دون جدوى.

لم يستغرق الشحاذون والبلطجية وجنود المماليك كثيرًا حتى أيقنوا أن الجنون نهش عقل إيواظ بك، وأنه صار إلى المجاذيب أقرب، وذلك حين تجرأ صبي مشاكس وجذبه من سرواله فلم يعترض ولم ينهره، وواصل سيره الوئيد خافض الرأس مثل بهيمة ضالة، فالتفَّ حوله الصبية وصرخوا هاتفين: «العبيط أهه.. العبيط أهه».

حاول مرجان حماية سيده وإبعاد الصبية بلا فائدة، وتلقى إيواظ بك سيلًا من السخرية والشتائم طوال الطريق من قبل بعض السابلة فلم يتنبه

fb/mashro3pdf

، لم يرد وظل يتمتم بصوت خفيض بكلام غير مفهموم. دافع عنه خادمه ..وسلًا الرحمة بسيده، مؤكدًا أن كل مَن بالدار هجروه وتركوه وحيدًا.
عند سور القاهرة قريبًا من باب النصر شعر البك المغموم بالإنهاك الشديد، فافترش الأرض الموحلة ساندًا ظهره إلى جدار السور العتيد، بينما لعابه يسيل من فمه بصورة مقرفة، ورأسه يتدلى فوق صدره، فتتراكم تل اللحم حول عنقه القصير، ويتصارع الذباب في عينيه. تجمهر حوله بعض الرجال، وكثير من الصبية، يتفرسون في ملامحه وحاله المهترئ بتشفٍّ مخلوطٍ بإشفاق، وأُطلقت عبارات تلعن النساء مستعيدة الأمثال التي تؤكد غدر المرأة وخستها منذ أمنا حواء، وأخرى تشتم البك المكوَّم على الأرض لأنه تراخى في تأديب زوجته ولم يعرف كيف يشكمها!

فجأة صرخ أحدهم: «هيا إلى دار إيواظ بك.. فكلها خيرات»، فهرع مرجان نحو الدار تاركًا سيده يغط في هذيانه وتمتماته، لكنه تلقى عند مدخل الدار لكمة من قبضة قوية عندما أمسك بأحد اللصوص هاربًا بشمعدان فضي. سقط مرجان على الأرض أمام الدار شبه مغشي عليه، وفي المسافة الفارقة بين اليقظة والغيبوبة شاهد عشرات الأشباح يستولون على التحف واللوحات والسجاجيد والثريات والسيوف والخناجر وينقلونها خارج الدار، كما رأى عراكًا قصيرًا سريعًا بين اثنين من جنود عثمان البرديسي باشا حول أحقية كل منهما في الاستحواذ على صندوق الثعابين الزجاجي، انتهى بأن صفع الجندي الأطول زميله صفعة مدوية واستولى على الصندوق.

fb/mashro3pdf

لكـن في خضـم الفوضـى ارتطم لـص يحمل سـجادة فارسـية على كتفه بالجندي الطويل فسـقط الصندوق الزجاجي على الأرض وتهشم، فانطلقت الثعابين في كل اتجاه سعيدة بتحررها، فقذفت الرعب في قلوب المقتحمين واللصـوص والجنود، واشـتعلت الـدار والحـارة بالصراخ والعويل، وفرَّ مَن اسـتطاع تاركًا ما سرقه كيفما اتفق، وفجأة انقضَّ ثعبان ضخم على مرجان الملقى على الأرض فلدغه، ثم طال ثعبان آخر سـاق الجندي الطويل وعضها، وبعد أقل من ساعة بلغ عدد الموتى بالسم أكثر من عشرة، منهم طفلان وصبي وامرأة!

فـي اليـوم التالي لقتلى السـم، ووسـط غمامة من حـزن خيمت فوق الحي العتيد، توجَّه أيوب وعلي نحو الخمارة ليتناولا قرعتين من البوظة للتخفُّـف من وطأة الحـزن، لم يكن بالخمارة إلا حفنـة قليلة من الرواد. اختـارا ركنًـا قصيًّـا، وطلبا من النادل أن يسـرع بالمعلوم. وقـال علي أبو حمـص لأيـوب بأسـى: «إن جنون إيواظ بـك ونهب داره وقتلـى ثعابينه أنسـى الناس حكاية شلضـم وأشـرف هانم». فقال أيوب: «وأنسـتهم أيضًا ضرائب البرديسـي»، فابتسـم علي وهتف ساخرًا بعد أن تجرع كل ما بقي مـن بوظة فـي قرعته: «أبشـر.. إن فقدان إيواظ بك لرشـده يؤكد انضمام مجذوب جديد إلى قبيلة المجانين في حينا».

هزَّ أيوب رأسـه موافقًا وغمغم: «وهل مصـر في حاجة إلى مجاذيب جدد؟!».

* * *

fb/mashro3pdf

أيوب - عودة المخطوف

15 نوفمبر 1805

- كيف أحوالك يا صديقي؟

قفزت فرحًا حتى كدت ألمس سقف دكاني حين سمعت هذه العبارة، وهتفت صارخًا: «دياب.. حمدًا لله على السلامة.. متى خرجت؟»، ثم ألقيت بجسدي كله في حضنه وغمرته بقبلاتي.

حكى لي دياب من دون غضب أنهم حبسوه في القلعة وسألوه عن رجل شركسي يبتاع منه البطاطا كل عصر عند وكالة الغوري حيث يقف دياب دومًا بعربته. ثم أضاف أنه لم يكن يعرف عن هذا الشركسي شيئًا سوى أنه أحد الزبائن الدائمين، وأنه كان يستفسر منه عن أمور كثيرة وكان يجيبه بحسن نية، لكن رجال الشرطة في القلعة أخبروه أن هذا الرجل يتاجر سرًّا في الذهب، وأنهم ظنوا أن دياب يساعده في عملياته التهريبية!

تعجبت من هذه التهمة، لكني غمغمت: «الحمد لله على سلامتك يا دياب»، ثم سألته بقلق وصوت خفيض: «هل يعلمون شيئًا عن عصبتنا؟ وهل بلغهم من أمرها شيء؟». نفى دياب بشدة علمهم بأي

fb/mashro3pdf

شـيء، فاطمأن قلبي، ودعوته للجلـوس، فمضى يتفحص كتاب الأغاني للأصفهاني الذي شـرعت في نسخه قبل أيام لأحد الزبائن، ثم دار بعينه في المكان لائذًا بالصمت.

ناديت بائع المشـروبات الذي احتل الموقع القديم لحسنات وطلبت منه قدحي قهوة. لم يستطع دياب الجلوس ونهض متوجهًا خارج الدكان يتأمل الرائح والغادي حينًا، ويطل على مئذنة الحسين حينًا آخر. الشمس لطيفـة ونسـمات نوفمبـر تتوالـى محملـة بروائـح ذرة مشـوية مقبلة من قريب. وقفت بجواره ساكنًا. فجأة سألني: «أما زالت دعوتنا تلقى التأييد والترحيب؟».

بثقـة أخبرته وأنا أتابع حركة المارة الذيـن يتزايدون كل لحظة: «بكل تأكيد.. لقد أصبح لدينا شـباب كثير مؤمن بضرورة أن يتولى شئون مصر رجل مصري شـريف وعادل، فهل يعقل أن يحكم بلد واحد سـتة حكام أجانب في ظرف أربع سنوات فقط منذ خرج جيش الفرنساوية؟»، ابتسم ديـاب وقال لـي: «ولا تنسَ أن اثنيـن منهم قد قُتلا.. طاهر باشـا ومحمد الجزائري باشـا». حركت رأسـي موافقًا وأضفـت مباهيًا: «الآن الموقف مختلف، وأظن أن محمد علي باشا لن يستمر في السلطة طويلًا، فقد انضم إلينـا أنـاس من بولاق وإنبابـة والروضة والجيزة، وكلنـا نتحدث في هذا الشأن بحرص حتى لا ينتبه رجال الباشا الأرناؤوطي المقيم بالأزبكية».

كأني شـعرت به لا يرغب في الكلام؛ إذ سألني بشيء من اللا مبالاة: «وما أخبار زوجتك وحملها؟». في هذه اللحظة مرَّ بجوارنا الحاج ما شاء

fb/mashro3pdf

الله شمس الواعظين ممتطيًا حصانه الأشهب، فألقى علينا التحية، ولما غاب عن أعيننا قلت لدياب وأنا أعاود الدخول إلى دكاني: «إنها بخير.. مجرد متاعب الحمل الأول المعتادة»، ثم ضحكت هاتفًا: «الداية تؤكد أن الجنين سيكون ولدًا بإذن الله لأن صعوبة الحمل ومشاقه مرتبطة بالجنين الذكر».

فجأة صافحني دياب يدًا بيد، وهمس: «أراك فيما بعد»، لكنني جذبته برفق من جلبابه متسائلًا: «ألن تحضر اجتماعنا المقبل؟». سألني بلهفة أسعدتني: «متى؟»، أخبرته وأنا أقف قبالته عند مدخل الباب: «سأمر على الأصدقاء اليوم، وليكن موعدنا غدًا في مكاننا المعتاد عند شجرة الجميز بعد أذان المغرب».

تركني دياب بينما مشاعر طيبة تغمرني، فقد أزحت عن كاهلي جبالًا من الرعب والتوجُّس، فشكرت الرحمن، وقررت أن أصلي ركعتين شكرًا لله على نعمائه بصيانة حركتنا وحفظها وإخفائها عن عيون اللئام. بعد أن أنهيت صلاتي فوجئت بدياب يعاود زيارتي متسائلًا: «هل لقاؤنا اليوم أم غدًا؟».

عدت إلى كتاب الأغاني، لكنني بادرت إلى إخراج أوراقي الخاصة وبدأت أدوِّن مغتبطًا ما جرى اليوم مع دياب، كما نبهني مسيو شارل موضحًا: «يا أيوب.. اكتب أهم الأحداث التي تمر بك حتى تتذكرها وتوثقها، فتتعلم وتستفيد، فلا تكرر خطأ». ثم قررت أن أزور مسيو شارل اليوم مساءً لأخبره أن العسس أفرجوا عن دياب ضاضو!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

شارل - شامير وأيوب

15 نوفمبر 1805

ارتبك أيوب حين فوجئ بوجود مسيو شامير في داري، لم يكن قد رآه من قبل، لكن شرارة نفور متبادل انبعثت من عيونهما فور لقائهما؛ لذا لم يطل المقام، وهمس في أذني عند خروجه ورائحة فرح تفوح من جسده: «لقد أفرجوا عن دياب ضاضو أمس وزارني في دكاني صباح اليوم»، ثم استطرد بقلب آمن: «الحمد لله يا مسيو شارل.. لا أحد يعرف شيئًا عن رغبتنا وإصرارنا بأن يتولى حكمنا رجل مصري».

وقفت في مكاني لحظة شارد البال بعد انصراف أيوب، يعتريني قلق ما لا أعرف مصدره، فلما صاح مسيو شامير مناديًا إياي تذكرت أنه بالداخل، وعدت إلى القاعة الرئيسية في داري. تلقاني بابتسامة خبيثة مستفسرًا عن سرّ زيارة هذا الشاب المصري. لم أُجب واكتفيت بإشارة من فمي وكتفي تعني ألا شيء.

أظن أن شامير لم يصدقني؛ إذ حدجني بنظرة غير مريحة، ثم عاين صورة أيوب على الجدار بنظرات ممتعضة، وتمتم بعبارة لم أسمعها. لم تكن بي رغبة لأي حوار أو معاندة، فجلست في مقعدي ساكنًا. اقترب

fb/mashro3pdf

مني شامير وقال مشيرًا إلى الأشياء التي أحضرها لي: «حسابنا يا صديقي مائة وخمسون درهمًا وسبع وستون بارة». أعطيته ما أراد ودعوته للبقاء لتناول قدحين من النبيذ، فاعتذر لارتباطه بأمر مهم، وقبل أن ينصرف توقف برهة أمام صورة ابني محمد وسألني عمّن يكون دون أن يهتم بالاستماع إلى الإجابة.

عاينت الألوان والفرش والقماش الذي جاءني بها شامير وغمغمت «لا بأس.. أظن أنها تكفيني شهرين آخرين». ثم طالعت الرسالة التي بعثها الكابتن مواريه، لم يكن بها جديد سوى إعلانه المزيد من الإعجاب بنابليون وتحريضه لي بأن أترك مصر وأعود فورًا إلى فرنسا مؤكدًا: «كيف تعيش في بلد يحكمه ستة أجانب في أربعة أعوام فقط، ويجهل أكثر من 95٪ من سكانه القراءة والكتابة.. أنت فنان يا شارل، والفنان في حاجة دومًا إلى أناس متعلمة تفهمه وتتذوق فنه»، وقد أنهى الرسالة بمعلومة غريبة تنضح بسخريته المعتادة: «لا أعرف شيئًا عن صديقنا فرتراي سوى أنهم يقولون إنه اعتزل الحياة العسكرية وغادر باريس مهاجرًا إلى الريف ليزرع ويحصد ويربي البهائم». ثم ختم الرسالة بهذه الجملة: «تقبل مودتي وتحيات فناننا العظيم مسيو دينون».

fb/mashro3pdf

رنَّ في خاطري تساؤل عابث: «هل أخبر مواريه بحكاية مسعدة حجاب وابني محمد؟ فقد سقط هو الآخر في هوى زليمة المسلمة». ابتسمت، وناديت سليم ليعد لي بعض المقبلات ويأتيني بالنبيذ. تعجب حين لاحظ أنني أضحك منفردًا وغمغم: «بسم الله الرحمن الرحيم..

اللهم اجعله خيرًا». بعد أول كأس انتابني شعور طاغ يدفعني لرؤية مسعدة وابني محمد، فقررت الذهاب إليهما في الأزبكية. راقت لي الفكرة وهممت بارتداء ملابسي بالفعل، لكني تراجعت وردد باطني: «إنها فكرة مجنونة؛ فالساعة تجاوزت الثامنة مساءً، وقد تكون نائمة والطريق غير آمن بما يكفي»، وهكذا عدلت عن الفكرة، وظللت قابعًا في مكاني أتلذذ بالنبيذ وتعبث في جسدي شهوة حارقة حتى سمعت طرقًا سريعًا قويًّا على الباب.

دلفت ياقوتة الحبشية إلى الداخل صارخة وهي تنهر سليم لأنه يحاول منعها بالقوة. أصابني ذعر، فقد كانت تنزف من أنفها دمًا طازجًا.. سألتها: «ماذا حدث؟»، ثم أمرت سليم أن يأتي بالماء وقطعة قماش نظيفة سريعًا ومطهر من الأجزاخانة، وبسرعة تمكنت من إيقاف النزيف، وسط حالة من ذهول شملت خادمي سليم. ثم طلبت منه أن يغادر الدار ليبيت في جامع الحسين هذه الليلة.

ابتسم سليم ورمقني بنظرة ملؤها خبث واستغراب، وهمهم خارجًا: «لم أكن أعرف أن سيدي يستدعي الجواري إلى بيته.. والله أنا رجل مغفل». كتمت بسمة وحدجته بنظرة عتاب، فانحنى معتذرًا وانصرف. أفصحت ياقوتة عن سر النزيف فقالت بعد أن افترشت الأرض ونزعت عن جسدها الملاءة اللف: «اثنان من الجنود الأرناؤوطية تهجّما عليَّ عند جامع الأقمر، وحاولا خطفي والاعتداء عليَّ في حارة جانبية، فلما قاومتهما.. ضرباني، فعضضت الأول في خده وركلت الآخر في محاشمه وركضت مسرعة لأجد نفسي هنا».

fb/mashro3pdf

لـم تكن بـي أعصاب لأتأكـد من صـدق روايتها، ولم تكـن بي رغبة كذلـك، فقلت وأنا أداعب نهدها الأيسر: «لا بأس عليك.. أنت أجمل هدية اليـوم.. حقًا.. لقد أوحشـتني كثيرًا يا ياقوتة». ثـم ناولتها قدح نبيذ وسـألتها: «أيـن تعمليـن الآن؟». ضحكت وصاحـت: «عند تاجر شـامي يمتلـك دارًا فسـيحة خلف جامـع الأزهر»، ثـم بقهقهة فاجـرة: «لكن يا سيدي الخواجة ادعُ ربك ألا يصاب بالجنون مثل إيواظ بك وتتشرد نحن الجواري». ضحكت على ملاحظتها، وغمغمت مجاملًا: «بالتوفيق دومًا يا ياقوتة». ثم أشـرت لها أن ترشـف النبيذ، فلما تجرعته هتفت متنشية: «ما أتعس ليل القاهرة بدون امرأة!». فغرت فاها، وتسـاءلت بغنج: «ماذا تعني؟». أمسـكت يديها وسـاعدتها على الوقوف، فتبدى قوامها كتمثال إفريقـي منمـق ومثير. ضممتها في صدري بقوة، فشـعرت بنيـران الرغبة توقد خلايـاي، فصاحت وهي تتعلق بعنقي وتغمرني بقبلاتها السـاخنة: «وأنـت أيضًـا أوحشـتني سـيدي شـارل»، وبسـرعة البرق حطمنـا غربة جسدينا في جسد واحد!

* * *

fb/mashro3pdf

قدح قهوة من فضلك

- بكم أوقية الطماطم؟

توقف أيوب فجأة عندما استنشق عطر صوت فرانسوا الجميلة. التفت يمينًا. رآها تبتاع الخضراوات من امرأة عجوز تعرض بضاعتها في السوق الصغير عند مدخل حارة برجوان. ارتجف قلبه لرؤيتها وانشرح صدره لرنة الصوت الحنون. كان عائدًا من المقابر، حيث حافظ على زيارة قبر أمه كل جمعة منذ توفيت قبل شهرين. عاين العاشق الجديد فرانسوا عن بعد بقلب يخفق بحبها، وهمَّ بالحديث معها، لكنه تراجع استجابة لخاطر عابث وقرر مراقبتها ليعرف كيف تحولت ابنة باريس في ظرف عام إلى فتاة ماهرة تمشي في الأسواق تنتقي وتشتري وتفاصل.

- لا.. أنت تغالطين.. كيف تكون أوقية الطماطم بثلاث بارات.. وأول أمس اشتريتها ببارتين فقط؟

ارتفع صوت فرانسوا احتجاجًا بلكنة مصرية مكسرة، فردت البائعة بغضب شديد، برغم ابتسامة شاحبة لونت بشرتها النحاسية المجعدة:

- لست المسئولة.. إنها ضرائب الوالي الجديد البرديسي باشا التي فرضها على التجار فرفعوا أسعار كل شيء.. من أين جاءنا هذا البرديسي؟ لعنهم الله جميعًا!

fb/mashro3pdf

ومـا إن انتهـت البائعة من جملتها حتى سُـمع دوي هتافات وحشـ ومظاهرات ونداءات وشـعارات وتنديدات بالحكومة والحكام، والناس يرفعون بعض الشـباب على الأكتـاف يهتفون ويـرددون وراءهم: «إيش تاخد من تفليسـي يا برديسـي». تابعت فرانسـوا المظاهرات بعينيها حتى تلاشت الأصوات.

بدت فرانسـوا في هذا الصباح أكثر حضورًا وتألقًا، فشـعرها منساب على كتفيهـا يسـتمتع بمداعبات نسـيم سـبتمبر الصباحي، وقـد ارتدت فسـتانًا فضفاضًا أزرق اللـون وانتعلت حذاءً جلديًّا بسـيور رفيعة ربطتها على شـكل وردة بأربع وريقـات. تابع أيـوب عملية الفصـال بينها وبين البائعـة بروح مرحة، واختبأ خلف جدار بيـت عتيق مقابل للحارة يراقب تصرفاتها ويبتهج بلفتاتها.

تابعهـا وهـي تـرصُّ بنظـام ثمـرات الخيـار والفلفـل والبقدونـس والجرجير والبامية والتين في سـبت من الخوص، وشـاهد جديتها وهي تسـتخرج النقود مـن حافظة جلدية صغيـرة وضعتها في جيب فسـتانها. فلمـا أنهـت عمليـات التسـوق، ظهـر أيـوب من خلـف الجـدار بحركة رشـيقة ووقف قبالتها فجأة مفصحًا عن ابتسـامة عريضة أظهرت أسـنانه البيضـاء المنتظمة، فشـهقت فرحًا. صافحته بمـودة، فحمل عنها الحقيبة وتوجَّهـا نحو البيت متعانقـي الأيدي كطائرين صديقيـن، بعد أن أخبرته أنها رفضت أن يصطحبها سـليم، وأصرت أن تبتاع الخضراوات بنفسها، فرضخ شارل وامتثل!

fb/mashro3pdf

لم تكن تلك هي المرة الأولى التي تستكين فيها يد فرانسوا في راحة أيوب طلبًا للأمان والحنان والسعادة، فقد باح بعشقه لها في اليوم التالي لقُبلة الهرم، وقد أخبرت أخاها عن علاقتها الجديدة بأيوب بعد تردد وبنبرة خجلى، فتأملها مليًا، وتفكر برهة، وسمع صوتًا داخليًا يطالبه برفض هذه العلاقة وبترها فورًا، لكنه رمق الفرحة في عيني شقيقته، وتذكر روزا، فاستسلم للحظة أسى، واحتضن أخته وتمنى لها السعادة قائلًا: «اعشقي وأحبي كما يحلو لك.. ولكن لا تنسي أننا في مصر.. وأنهم هنا يتعاملون مع النساء بطريقة لا تليق أحيانًا.. فانتبهي»، ثم أردف ليطمئنها: «لكن أيوب شاب مختلف ومتفرد وطموح».

أيوب المندهش من سرعة الأحداث كاد يفقد صوابه حين دعاه الخواجة شارل لاصطحاب شقيقته في جولة للتعرف على المدينة والتنزه في منطقة الأزبكية وزيارة الحي الإفرنجي؛ إذ قال له مبتسمًا: «أعرف أنكما عاشقان.. فاستمتعا معًا.. ولكن لا تتجاوز مع أختي».

fb/mashro3pdf

لم يصدق أيوب هذا الكلام، وغضَّ بصره خجلًا من شارل، ولم يفهم ما هي حدود التجاوز، وهمَّ بأن يستفسر، لكنه أمسك من باب الحرج، فتابع الرسام الفرنسي موضحًا: «ثقافتنا غير ثقافتكم يا أيوب، ونحن نتعامل مع المرأة بوصفها ندًّا للرجل، وليست كائنًا من الدرجة الثانية.. إن قلبها ومشاعرها وجسدها ملك لها وليس لي.. أي أن لها الحرية الكاملة في أن تفعل ما تشاء.. شريطة أن تتحمل مسئولية اختياراتها وقراراتها.. هكذا تعلمنا من مفكرينا ومبدعينا الذين مهدوا لنا الطريق

أمام النور والثورة». ثم شرد للحظة وهمس كمَن يحدث نفسه: «كانت لي حبيبة اسمها روز.. اشتركنا معًا في كل شيء.. أحببتها بجنون، وفتنت بي، وتعلمنا ورسمنا معًا، لكن شرطة الملك لويس السادس عشر قتلتها ونحن نقتحم سجن الباستيل في القرن الماضي».

تلقى أيوب هذه الآراء والمعلومات مشدوه الخاطر.. مشوش الفكر، وتعجب كيف استطاع هؤلاء الناس التعامل مع المرأة بروح مغايرة؟ ثم ردد باطنه بثقة: «مسكين يا مسيو شارل.. أحببت وعشقت.. لكن وحش الموت انقضّ على حبيبتك وخطفها، ألهذا السبب هربت من فرنسا.. موئل الذكرى والغرام، ولجأت إلى القاهرة مطاردًا السلوى والنسيان؟ يبدو أنك مستودع أسرار مثيرة يا بن باريس، لكنني - وهذا هو الأهم حصلت على ثقتك يا مسيو شارل.. وهي ثقة عزيزة وغالية، ويكفي أنك شقيق أرق فتاة في العالمين».

في ذلك النهار.. اصطحب أيوب فرانسوا إلى الأزبكية سيرًا على الأقدام، فقد رفضت الفتاة الفرنسية النشيطة امتطاء أية دابة، وقالت: «دعني أشاهد البلد بحرية، فالسير رياضة ممتعة خاصة وأن طقسكم لطيف، لا برد ولا حر». عند جامع عبد الرحمن كتخدا بسط أيوب راحتيه، فسكبت فيها أناملها الناعمة، ليسعد بأول ارتعاشة في هذا النهار.

fb/mashro3pdf

عبرا أيكة مزروعة بالتوت عند جامع البنات، ابتاع لها فطيرًا ساخنًا من امرأة تخبزه وتعرضه للبيع على قارعة درب الجماميز. أكلته بشهية، ثم أخرجت من حقيبتها منديلًا أبيض استعملته بهدوء ورشاقة، فتذكر أيوب

كيف كانت روائح الطعام تطفح من فم حسنات حين كان يلتقيها في بيت العفاريت، فتأسى وأيقن أن فتاته هي الرقة المقطرة. قفزت فجأة لتطارد فراشة حامت حول شجرة جازورينا صغيرة. انزعجت من عدد الكلاب الضالة والقطط المتشردة في العطوف والأزقة وأبدت استغرابها سائلة: «لماذا لا تحافظون على هذه الحيوانات الجميلة وترعونها؟ عندنا في باريس نضعها في أماكن خاصة ونوفر لها الرعاية والعلاج!». كتم أيوب ضحكة وهمس بصوتٍ لا يكاد يُسمع: «لما نحافظ على حياة المصريين أولًا». وسمع هاتفًا غامضًا يقرع ضميره: «هناك يحمي الفرنساوية الكلاب والقطط ويعالجونها، وهنا يذل البرديسي والبكوات والتجار آلاف المصريين ويعذبونهم ويعاملونهم ككلاب ضالة».

ضحكت فرانسوا بخفة حين شاهدت طفلين يجران حمارًا عصيًا عنيدًا بالقرب من قصر نفيسة البيضا على مشارف الأزبكية وصاحت: «لو أن أخي معنا لرسم هذا المشهد الطريف». شهقت فجأة من التعب، وافترشت الأرض مسندة ظهرها إلى جذع نخلة سامقة على حافة بركة الأزبكية أمام قصر الألفي بك، ومدت ساقيها عن آخرهما. جلس بجوارها، وأشار إلى القصر قائلًا: «هنا استقر بونابرته وحكمنا عندما وصل بجنودكم قبل خمس سنوات، وفي هذه الحديقة قتل سليمان الحلبي جنرالكم كليبر».

كأنها تعرف هذه المعلومات من قبل؛ إذ لم تهتم ولم تعلّق، وفتنها حصان أبيض يرعى من بعيد، فنهضت في اتجاهه، وتبعها العاشق

fb/mashro3pdf

الملهوف يعاين فستانها الأخضر الفضفاض ومشيتها السريعة الرشيقة فينتشي ويطرب، ويردد خاطره بحزن مكتوم: «شتان بينها وبين المرحومة حسنات».

مررت راحتها اليسرى فوق ظهر الحصان بحنان، واستدارت حوله وهمست في أذنه بعبارات مودة لم يسمعها أيوب جيدًا، لكنه لم يتمالك نفسه، فتلفت يمينًا وشمالًا، فلما لم يرَ أحدًا اقترب من صاحبته الفرنسية ومنحها قبلة سريعة على خدها الأيسر، ففوجئت وابتسمت، لكنها كانت أجرأ؛ إذ أمسكت وجهه براحتيها والتهمت شفتيه بشوقٍ طاغٍ زلزل بنيانه ودغدغ جهاز الرغبات لديه تمامًا!

ظلا جالسين على الحشائش في الحديقة الممتدة أمام قصر الألفي بك المشرف على البركة. يلتصق جسداهما وتهلل روحاهما. كلامهما قليل، ومشاعرهما غزيرة. مرَّ بجوارهما رهط من جنود الأرناؤوط متوجهين في صفوف منضبطة نحو قصر محمد علي الذي يبعد عدة أمتار عن قصر الألفي. سألته: «مَن هؤلاء؟»، فأجاب وهو يرمقهم بنظرة ارتياب: «إنهم جنود أرناؤوط تابعون للضابط محمد علي الذي وصل قبل عامين ضمن فرقة عثمانلية لتحارب جيشكم».

حرَّكت رأسها موافقة وغمغمت: «يبدو أنهم منضبطون أكثر من بقية الجنود»، فقال أيوب: «معكِ حق.. إن عددهم نحو ستة آلاف ضابط وجندي، وهم مطيعون تمامًا لقائدهم».

fb/mashro3pdf

راقبت فرانسوا سربًا من الطيور يحوم حول المكان. شردت قليلًا وصوَّبت بصرها نحو الشمس المتوارية في أحضان كتلة سحب عابرة لونت السماء باللون الفضي الممتزج بحمرة شاحبة. صاحت: «الجو منعش وجميل».

عندما رُفع أذان العصر نهض أيوب، فقامت معه وأحاطها بذراعه وعادا إلى الحسين بعد أن استدارا دورة كاملة حول البركة، فأعجبتها الطيور السابحة في الماء والمرفرفة في الفضاء. لمح بائع مشروبات ساخنة على ناصية الموسكي فعبرا الطريق، وتوجها نحوه، ثم ضحك النساخ بشدة عندما خاطبت فرانسوا البائع قائلة بلهجة مصرية: «قدح قهوة من فضلك»، وقال لها بنبرة ودود: «لقد أصبحتِ من أهل البلد». ابتسمت وهتفت: «حقًّا.. إنه أمر يسعدني كثيرًا».

لم ينسَ أيوب أبدًا جولة الأزبكية والقبلة الحارقة والاتحاد مع الشجر والسماء والطيور والحصان الأبيض وأقداح القهوة، وكررها أكثر من مرة، وتلقى أطايب القبلات ولذائذ اللمسات عند بركة الأزبكية وعلى شاطئ النيل عند بولاق وفي بساتين الروضة، وعنف صديقه علي أبو حمص عندما لفت نظره إلى أن الناس بدأت تتحدث بسوء عن علاقته بفرانسوا؛ إذ وبخه أيوب صائحًا: «يا علي.. أنا شاب حر.. أفعل ما أريد ما دمت لا أعتدي على أحد.. وسأتزوجها».

بعد أسبوع واحد فقط من لقاء السوق عند حارة برجوان، وقبل أذان العشاء بقليل، أغلق أيوب دكانه واتخذ قراره الجريء، وتوجّه مترعًا

fb/mashro3pdf

بأمل كبير وقلب مفتون نحو بيت الخواجة شارل بالدرب الأصفر عاقدًا العزم على طلب الزواج من شقيقته. في الطريق أوقفه الحاج ما شاء الله شمس الواعظين طالبًا منه أن يستعد لنسخ ديوان المتنبي، ثم ناداه الحاج عبد المجيد العطار الذي كان متربعًا أمام دكانه يدخن الشيشة، وقال له: «عندي زائر من الشام يريد منك نسخ القرآن الكريم.. سنمر عليك في صباح الغد».

عند مروره بعطفة الحمزاوي هبّت دفقة نسائم معبأة بروائح بخور وعطارة، فعطس غير مرة، وتمتم: «اللهم اجعله خيرًا». اخترق الدرب المترب إلى سكة النحاسين، تتناهى إلى سمعه أصوات الجالسين على المقاهي مقترنًا بنباح كلاب هائجة ومواء قطط جائعة. توقف فجأة أمام أحد الدكاكين ليبتاع هدية لعروسه. أعجبته صينية نحاسية مطعمة بالفضة ومزخرفة بغابة من الزخارف النباتية المتشابكة. قربها أمام اللمبة الجاز ليتأكد من جمالها. دفع خمسين بارة بعد أن تمكن من تخفيض سعرها إلى الثلثين.

قبل أن ينحرف يمينًا في حارة الدرب الأصفر بعدة أمتار ارتطم به شاب يركض في الاتجاه المعاكس بسرعة شديدة ممسكًا بيده اليمنى عصا غليظة، فلعنه واستند على الجدار حتى لا يسقط. لم يستطع تبيان ملامحه من شدة الظلام. نوى أن يخبر الخواجة شارل بضرورة أن يضع قنديلًا على مدخل الحارة حتى لا تقبع في هذه الظلمة المقلقة.

fb/mashro3pdf

سمع أنات موجعة واستغاثة باهتة فور دخوله الحارة.. أسرع الخطى متوترًا نحو دار الرسام الفرنساوي، اعتراه الرعب حين رأى فرانسوا غارقة في دمها ومغشيًا عليها أمام باب الدار. صرخ وانكفأ فوقها: «ماذا حدث؟». سقطت الصينية الهدية على الأرض محدثة صوتًا مخيفًا.. لمح عينيها تجاهدان لكي تنفتحا. خيوط الضوء القادمة من داخل الدار عبر الباب المفتوح تكشف حجم العذاب الذي تكابده الفتاة، فالأنف والفم ينزفان، وماء الحياة يتراجع ويتبخر من البشرة النضرة، كأن تفكيره شل، فوقف.. دلف من الباب المفتوح.. صرخ: «يا خواجة شارل.. يا سليم».. لم يتلقَّ ردًا.. عاد نحوها وانحنى فأرعبه كثافة النزيف من البطن والصدر.. ثم هرع نحو أول الحارة، وهتف: «أغيثونا يا رجال».. عاد وافترش الأرض بجوارها ومضى يمسح الدم المسال على وجهها بكم جلبابه.. مدت يدها بصعوبة لتلمسه، فاعترضتها الصينية. بعينيها تساءلت عن سر هذه الصينية، لكنه لم يلحظ السؤال، وفجأة تفرست في ملامحه بكل حب، وهمست بصوتٍ مبحوحٍ متقطع لا يكاد يُسمع: «قتلوني يا أيوب»!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

هل قبلت اختي؟

مذ قُتلت فرانسوا في سبتمبر الماضي، وأيوب لم يتوقف عن البحث عن الجناة، وإذا كانت الشرطة قد أخفقت في التوصل إليهم، فإن النساخ أعلن أمام شقيقها بعينين تنبعث منهما شرارات الانتقام: «أقسم بالله يا مسيو شارل.. لن يهدأ لي بال قبل أن أصل إلى هؤلاء المجرمين»، أقسم وبكى.

خمسة أشهر مضت وأيوب لم يتوقف عن التفكير في السبب الذي أدى إلى قتل أرق البنات كما وصفها في يومياته، وكل ما توصلت إليه الشرطة أن الجناة اضطروا إلى قتلها حين ضبطتهم يسرقون الأموال والذهب والفضة التي كان أخوها يحتفظ بها في صندوق حديدي خبأه في غرفة الكرار.

في البداية توجّهت الشكوك نحو الخادم سليم عندما أصر القنصل الفرنسي بالقاهرة على ضرورة تفتيش بيوت كل أقربائه؛ إذ تدخل لدى شيخ البلد والتجار ومشايخ الأزهر وطالبهم بالعمل الجدي للوصول إلى القتلة حين علم بمصرع الفتاة الفرنساوية. دافع الخواجة شارل عن خادمه معلنًا أنه كان برفقته في هذه الليلة المشئومة؛ إذ توجّه نحو قصر نفيسة البيضا عصرًا ليعرض عليها اللوحات التي طلبتها، وقد اصطحب معه سليم ليحمل اللوحات ويقود العربة حتى باب القصر بالأزبكية.

fb/mashro3pdf

«إذا كانت الشرطة قد عجزت عن القبض على القتلة المجرمين، فإنني سأنجح وسأتوصل إليهم وأقتلهم بنفسي». هكذا صاح أيوب في لحظة غلٍّ سوداء، لكن الرسام المحزون ضمه في صدره وقال مواسيًا «تحمَّل يا صديقي.. ولا تورط نفسك في جريمة».

من جانبهم حاول الرفاق علي أبو حمص ودياب ضاضو وثلاثة من المنضمين الجدد إلى التنظيم السري معاونة أيوب في البحث عن القتلة، فلم يفلحوا، وقد استعانوا بـ«شيخ المنصر» نفسه وأغروه بمكافأة سخية إذا أرشدهم عن الجناة، بلا فائدة. الحماسة التي أبداها علي ودياب في بداية الجريمة طمأنت أيوب وأوحت له أنه بات إلى الحقيقة أقرب، وأنه سينهش رقاب الذين قتلوا حبيبة القلب، لكن مع مرور الأيام والأسابيع وتبخر الأمل في العثور على دليل، فترت حماسة الشباب، وذاب اهتمامهم، حتى جاء يوم قال فيه علي لصديقه المكلوم:

- إنه القدر يا صديقي.. فليرحمها الله.. حتى الآن لم نعثر على طرف خيط يوصلنا إلى الذين قتلوها!

ثم بنبرة ذات مغزى:

- عُدْ إلى عملك وعملنا يا أيوب، أم نسيت أن الألفي بك عاد إلى مصر بمباركة إنجليزية، والصراع يحتدم بينه وبين البرديسي باشا، والفوضى عارمة حتى صارت أنياب الخراب تحطم عظام أهالينا؟

أجل.. لقد أهمل أيوب عمله، وتراكمت في دكانه الكتب التي من المفترض أن ينسخها، وإذا كان الزبائن قد صبروا عليه نظرًا للمأساة التي ألمت به، فإن صبرهم لن يطول، وسوف يلجئون إلى نسَّاخ آخر في

fb/mashro3pdf

نهاية المطاف، كما تراجع اهتمامه بالفكرة الرئيسية التي نادى بها وجمع حولها أصدقاءه، وكأن الموت أطلق في عقله جرثومة اللا جدوى!

لكن أشد ما آلمه أن بعض الشامتين أرجعوا مقتل فرانسوا إلى أنه عقاب إلهي لأن أيوب عشق نصرانية، فعاقبه الله وحرمه منها، وعاقبها بالقضاء عليها. هكذا يقول الناس كما أوضح له دياب، فصرخ في وجهه: «إنهم يكرهون حتى أنفسهم، والله زرع في صدورنا الحب قبل أن يبعث إلينا المسيحية والإسلام».

في مساء ذلك اليوم زارته فرانسوا في الحلم، ممتطية الحصان الأبيض الذي داعبته في الأزبكية، وطلبت منه اصطحابها إلى الإسكندرية ليسبحا في البحر، فقال لها إنه لا يعرف العوم، ضحكت وطمأنته بصوتٍ يقطر موسيقى ومدَّت ذراعها اليمنى نحوه قائلة: «سأعلمك ما لم تكن تعلم من فنون العوم والغرام، لكن لا تنسَ أن تعلِّم أهل بلدك الذين قتلوني أصول الحب والتسامح».

استيقظ في الصباح مكسوًّا بروح جديد، موقنًا أن الله اصطفاه ليشرح للمصريين لماذا ينبغي أن يحكمهم رجل مصري مثلهم عادل وشريف، وأن هذه هي مهمته الأولى في الحياة. توضأ وصلى الفجر، ودعا الرحمن أن يوفقه في مهمته النبيلة، كما دعا أن يغفر لفرانسوا ويغمرها بنور رحمته، وهكذا توجَّه نحو دكانه بقلب صلب وعزيمة من فولاذ. أحضر ديوان المتنبي وانكب ينسخ لمدة ست ساعات متواصلة حتى طفرت الدموع من عينيه من فرط الإجهاد.

fb/mashro3pdf

قبل العصر مرَّ على رفاقه ودعاهم إلى لقاء اليوم بعد صلاة العشاء عند مشارف الصحراء ليناقشوا آخر المستجدات، وقبل أن يتوجّه نحوهم بساعة مرَّ على الخواجة شارل رفيق المحنة كما أطلق عليه. وجده منهمكًا في استعادة وجه فرانسوا على القماش، فمنع دموعه من الانسياب بصعوبة وسأله: «متى ستنتهي من هذه الصورة؟». زمَّ الرسام شفتيه فبدا كشيخ طاعن في السن وقال بحسرة: «لا أعرف.. فمنذ موتها وأنا غير قادر على ضبط أعصابي والتحكم في اقتناص قسمات شقيقتي الراحلة».

لقد وحّدت المصيبة الرجلين بشكل لا يصدق، فبات كل واحد منهما يلجأ للآخر بحثًا عن التعزية والمواساة؛ إذ لم يمر يوم دون أن يلتقيا هنا أو هناك أو أمام شاطئ النيل عند بولاق، حيث يغادران الحسين سيرًا على الأقدام، ويتركان أقدامهما تجرهما إلى أي بقعة في القاهرة. لا صوت سوى للحزن، ولا حديث إلا للألم، ومرة سأله شارل دون سابق إنذار: «هل قبّلت أختي؟».

اضطرب أيوب وارتبك فاستعصم بالصمت ولم يكذب، وبالمصادفة كانا يسيران آنذاك بالقرب من الحي الإفرنجي بالأزبكية، فتذكر القبلة التي نالها بجوار الحصان الأبيض، فانسابت منه الدموع. توقف الرسام عن السير، وتفرس في ملامحه للحظات وربّت كتفه، ثم احتضنه وهمس في أذنه: «حسنًا.. دموعك تؤكد أنك قبلتها.. فشكرًا لك؛ لأنك منحتها قدرًا من السعادة قبل أن يقتلها المجرمون».

fb/mashro3pdf

انفعل أيوب وتعجب ومسح دموعه، فانسابت مرة أخرى بغزارة، وردد خاطره: «من أي جوهر سُوِّي قلب هذا الرجل؟». ومرة سأله أيوب: «لو طلبتها منك زوجة، أكنت ستوافق؟».

على الفور أجاب شارل: «بكل تأكيد»، فضغط أيوب على أسنانه ندمًا وهتف مكورًا قبضته اليمنى ومطلقها في الهواء: «يا أولاد الكلب.. والله لن أرحمكم». فقبض الرسام على يده وصاح: «تقولون في مصر.. الحي أبقى من الميت.. وفرانسوا ماتت كما ماتت روز، وتركت في القلب ندبة موجعة على الدوام، لكن الحياة يجب أن تمضي، فالتفت إلى عملك يا أيوب». تمتم برأسه موافقًا، ودهمه خاطر مزعج: «فرانسوا قتلت، وحسنات قتلت، فهل أنا نذير شؤم للنساء اللاتي يعشقنني؟». وهمَّ أن يقصَّ على شارل حكايته مع حسنات لكنه تراجع، ووعده بأنه سيسعى إلى مصادقة الاتزان مرة أخرى ومعاودة العمل بالهمة نفسها.

لذا حين التقى مرة أخرى رفاقه في التظيم السري تحدث كثيرًا بحماسة عن المهام الجليلة التي ينبغي أن يؤدوها لوطنهم وأهاليهم. في تلك الليلة بدت أضواء القمر باهرة ومنتشرة بامتداد صحراء الدراسة، والجو مشبع بروائح نسمات ربيع جاء قبل الأوان. صنع الرفاق دائرة تحت شجرة الجميز المعمرة، وقد انضم لهم ثلاثة شبان جدد. في البداية رحب أيوب بالأعضاء الجدد، وشرح لهم بإيجاز الهدف من تأسيس هذا التنظيم السري، وطالبهم بالمزيد من الجهد لشرح وجهة نظرهم، منبهًا إلى ضرورة الحذر «حتى لا يفتضح أمر جماعتنا». ولما سأله دياب: «هل أنت واثق من أننا سننجح بينما الصراع على حكم مصر وصل إلى

fb/mashro3pdf

مستوى مؤسف؟». ابتسم للمرة الأولى منذ الليلة البغيضة وقال بثقة: «بكل تأكيد.. ما دام الألفي عاد ثم هرب، والبرديسي المملوكي تحالف مع محمد علي، والعثمانلية والإنجليز والفرنساوية كلهم يتربصون بنا، وما دامت الأسعار في ارتفاع جنوني، لدرجة أن إردب القمح وصل إلى خمسين بارة، أي الضعف، فإن الناس ستخرج في ثورة ضد كل هؤلاء الحكام الأجانب، وساعتها نختار نحن حاكمًا مصريًا عادلًا وشريفًا».

بنبرةٍ لا تخلو من تهكم سأل دياب: «مَنْ من المصريين يصلح ليحكمنا في رأيك؟». لم يجب، وحدجه بنظرة حادة، لكن في مطلع نهار اليوم التالي تغيرت حياة أيوب بصورة عجيبة، وذلك عندما دلفت من الباب صبية جميلة ذات عينين سوداوين وأنف دقيق.. جسدها الرقيق المتناسق يوحي بأنها ذات شخصية لطيفة. قالت له بخفر: «أبي يطلب منك أن تنسخ له قصيدة البردة». عاينها أيوب باهتمام، خمَّن أنها لا تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها. صوَّب بصره في عينيها بجرأة لم يفعلها مع أنثى منذ رحلت صاحبة العينين الزرقاوين، وسأل: «مَن أبوكِ؟». تراجعت خطوة إلى الخلف حتى باتت على حافة الباب، وهمست: «الحاج عبد المجيد العطار»، وقبل أن تلتفت لتخرج، نهض سريعًا من مكانه، ودنا منها حتى ضاقت المسافة بينهما لدرجة أربكتها فتعثرت في وقفتها، وسألها بصوتٍ ذي مغزى لا تخطئه فتاة صغيرة على مشارف المشاعر الفياضة: «وأنتِ ما اسمكِ؟». بحروف مرتبكة وعينين تكادان تعانقان الأرض خجلًا همست: «سعدية».

* * *

fb/mashro3pdf

في الخمارة

- هل يعتبر قراري هذا خيانة لفرانسوا؟

للمرة الأولى شعر علي أبو حمص أن صديقه جُنَّ بفرانسوا عن حق؛ إذ ظن أنه مجرد إعجاب بفتاة جميلة بيضاء ذات عينين زرقاوين لا تشبه الفتاة المصرية الخمرية أو السمراء، وأنه أشفق عليها حين قُتلت بغير ذنب، لكن سؤاله الليلة أكد له أنه أحبها بكل كيانه، فتأمله مليًا وربت كتفه وقال:

- لا يا أيوب.. لا خيانة ولا يحزنون.. فنحن الآن في أبريل 1805 أي أن فرانسوا قُتلت قبل أكثر من عام، فليرحمها الله ويغفر لها، أما أنت فعش حياتك.

أطرق قليلًا، ثم استطرد مؤكدًا:

- توكل على الله وأكمل نصف دينك.

كانا يجلسان في الخمارة بعد انتهاء لقائهما مع أعضاء التنظيم، وكان الحديث عن الفوضى العارمة التي تشل القاهرة فتزرع في صدور الجميع رغبة عارمة في الانتصار لقضيتهم والعمل بهمة أكثر، فالشاهد كما قال

fb/mashro3pdf

أيوب لرفاقه تحت الشجرة إن البلد مستباح، وقد رأيتم أن اثنين من الحكام جلسا على العرش ونزلا من العرش في شهر فبراير الماضي هما خسرو باشا الذي دخل القاهرة بمعاونة الضابط الأرناؤوطي محمد علي وجنوده، ولما عزل السلطان العثماني خسرو باشا عاد وأصدر فرمانًا بتعيين خورشيد باشا واليًا علينا، وكأن مصر ليس بها رجال، أو كأنها جارية يتسلى بها الباشوات. أما الجنود الإنكشارية فمن كل جنس ولون يملأون الطرقات، والبرديسي والألفي وإبراهيم بك وبقية المماليك المطرودين من جنة السلطة في القاهرة شكلوا تحالفًا في الصعيد وسيطروا على الفيوم وسقارة والجيزة، ورجالهم ينهبون المخازن ويستولون على القوافل القادمة من الصعيد أو من الفلاحين لدرجة أنهم نهبوا خيرات قليوب أيضًا.

ثم تحدث أحد الأعضاء الجدد مذكرًا إياهم بالجنود الأكراد الذين جلبهم خورشيد باشا من جبال ومرتفعات الدولة العثمانية قبل أيام وقال: «هل نسيتم.. إنهم مجانين.. غير منظمين.. كارهون للناس.. عاثوا في مصر فسادًا.. وعددهم نحو أربعة آلاف»، وأضاف دياب ضاضو: «حتى البدو لا يتوقفون لحظة عن أعمال السرقة والنهب وقطع الطريق، فيشنون الغارات من ناحية الصحراء عند البحيرة، ونحن هنا في القاهرة نعيش أسرى الحرمان والفقر وصراع الكبار».

fb/mashro3pdf

لم يختلف أحد مع ما قيل، بل زادوا في ذكر التفاصيل التي تؤكد أن القاهرة باتت مدينة سهلة تغري الأجانب بالانقضاض عليها، فلما أنهوا

اجتماعهم وتفرقوا، لاحظ علي أن هناك شيئًا غامضًا يحوم حول عيني أيوب، فدعاه إلى تناول قرعتين من البوظة في الخمارة التي فتحت حديثًا بجوار مسجد الأقمر.

لم يكن أيوب من مرتادي الخمارة بانتظام، لكنه لا يمانع من التردد عليها إذا أمسى مزاجه رائقًا، أو يكابد وجعًا في القلب، وقد فعل ذلك غير مرة عندما أذاقته حسنات تفاح النساء للمرة الأولى، وكرره مرة أخرى عندما قتلت، كذلك وجد نفسه في الخمارة في الليلة الثانية لمصرع فرانسوا. حينئذ انتبذ ركنًا قصيًّا ولم ينادم أحدًا، واحتمى بزاوية شبه معتمة تصلها بقايا نور يفرشه قنديل هزيل مدلى من السقف الخشبي فيمنح السكارى ملامح الأشباح. ليلتها أفرط في الشراب ليهرب من الوجه الدامي لفرانسوا، ثم بكى بحرقة وهو شبه مغيب الوعي حتى اختلط عليه الأمر، فحين غادر الخمارة، توجّه نحو بيت الخواجة شارل ظنًّا منه أنه على موعد مع فرانسوا، وعند باب البيت اكتشف أنه نسي إحضار الحصان الأبيض كما طلبت منه، وهكذا عاد في اتجاه الأزبكية مغمورًا في ظلمة حالكة، لولا أن نباح الكلاب المتزايد دفعه للجلوس على الأرض أمام جامع البنات ناحية الموسكي متكئًا بظهره على شجرة توت معمرة. ثم راح في سبات كالموت.

مع زقزقة أول عصفور فوق الشجرة أفاق أيوب ليجد نفسه في مكان غريب، وبعد لحظات أدرك أنه بات ليلته في الشارع أمام الجامع كالشحاذين والصعاليك، فندم وأقسم ألا يفرط في الشراب مرة أخرى

fb/mashro3pdf

مهما حدث، وسمع نفسه يخاطب فرانسوا قائلًا: «سامحيني يا حبيبتي.. فقد تركتيني وحيدًا وموجوعًا».

في الليلة التي شعر فيها علي أبو حمص أن صاحبه متوتر ومحزون دعاه لتناول الخمر بعد انفضاض اللقاء السري. هنا أفصح أيوب للمرة الأولى عن اهتمامه بسعدية ابنة الحاج عبد المجيد العطار، وباح لصديقه بأنه رآها غير مرة في الأسبوعين الماضيين، وأنه تبادل معها الكلام، فآنس منها راحة وميلًا، فقرر أن يطلب يدها من أبيها، لكنه شعر بالذنب تجاه التي رحلت في ساعة مشئومة.

على الفور رحب علي بالتطورات الجديدة، وعارضه في مسألة الشعور بالذنب، وأخبره أن الأعمار بيدِ الله، وأن الحي أبقى من الميت، ثم صاح منتشيًا بالبوظة:

- هيا توكل على الله.. واخطبها من أبيها، فهو رجل فاضل!

رمقه أيوب بنظرة امتنان وردد خاطره: «ما أجمل أن يحظى المرء بصديق وفيٍّ مثل علي!»، ثم تجرع ما بقي في قرعته دفعة واحدة، لكن قبل أن تنزل بكاملها في جوفه اقتحم الخمارة جنود مدججون بالسلاح يسبقهم السباب والوعيد والتهديد، فقذفوا الرعب في صدور السكارى، وسقطت الأقداح وسالت البوظة وانسكبت لتختلط بالأرض المتربة وتشكل دوائر متقاطعة غير منتظمة الكثافة من الوحل المخمور، وسُمعت أصوات متناثرة:

- إنهم جنود البرديسي!

fb/mashro3pdf

- لا.. لا.. بل جنود خورشيد باشا!

- يا عالم.. ألا تسمعون لهجتهم.. إنهم جنود خسرو باشا!

- لا.. بل جنود أرناؤوط!

- لا.. فالضابط محمد علي رجل طيب لا يسمح لجنوده بارتكاب المعاصي والاعتداء على المسالمين المسلمين.

- وهل يوجد أطيب من واحد سكران مثلي!

قالها أحد الزبائن وسقط على الأرض من أثر لكمة خفيفة تلقاها من أحد المقتحمين.

بسرعة البرق انقضَّ الجنود على صاحب الخمارة واستخرجوا النقود من جيبه بالقوة وطرحوه أرضًا، ثم عبثوا في المكان حتى عثروا على صندوق خشبي مخبأ في نتوء جدار في عمق الخمارة. كسروه بكعاب بنادقهم فانتشرت على الأرض قطع ذهبية وفضية وعملات معدنية من البورصات والبارات، فصرخ صاحب الحانة وارتمى على قدمي أحد الجنود وصاح:

- إنها أموالي.. جمعتها بعرقي.. خذوا ما يكفيكم واتركوا لي بعضها!

ركله الجندي وقهقه صائحًا بلكنة مصرية مضعضعة:

- إنها مجرد ملاليم.. لا تكفي أحدًا يا فلاح يا بن الزانية!

fb/mashro3pdf

كما دخلوا فجأة، انسلَّ الجنود من المكان فجأة بعد أن تجرع بعضهم ما وجده أمامه من أقداح بوظة لم تسقط، وتركوا الخمارة مثل بيت متهدم فتسابق الزبائن في صبِّ اللعنات عليهم بأفحش السباب!

لم تستغرق الجريمة كلها سوى خمس دقائق، وكان أيوب قد دفع علي بالقوة حين رآه يخرج سكينًا من جيب جلبابه ليختبئ خلف منضدة مهملة في زاوية بعيدة غير مرئية، وهمس في أذنه:

- لا تتهور.. إنهم كثر، وقد يقضون علينا إذا شعروا بأي خطر!

- أولاد الكلب.. من أي بلد نجس جاءوا إلى مصر!

نهره أيوب ووضع كفه فوق فمه وقال:

- اصمت يا علي.. لا تفضحنا.. أظنهم يفهمون العربية.

وما إن غادرا الخمارة حتى هتف علي غاضبًا:

- لماذا منعتني من مواجهة أولاد الكلب هؤلاء؟

ها هو الليل قد استقر، والقمر توسط كبد السماء في دائرة منيرة مكتملة، والهواء يسبح في الجو بحرية فيرطب وجهي الصديقين برفق، فأجابه أيوب قائلًا:

fb/mashro3pdf

- أنت مجنون.. كيف يمكن لنا مواجهة قبيلة من الجنود المدججين؟

- وليكن.. لكن كيف نتركهم يعتدون علينا وينهبون أموال الرجل الغلبان ويسبوننا؟

ربَّت أيوب كتف صديقه، وقال:

- الحكمة يا علي.. ومهمتنا أكبر من التصدي لمجموعة من الجنود الأجانب الأوباش!

ولما وصلا إلى حارة الدرب الأصفر، توقف أيوب عن السير، وألقى نظرة ذات مغزى داخل الحارة، ولاحظ أن الخواجة شارل علق قنديلًا أعلى الباب، فتنفس بعمق وأقسم:

- ورحمة فرانسوا.. لن نمكن الأجانب من حكم مصر مرة أخرى!

ثم استطرد بعبارة يقينية:

- سأتزوج سعدية.. لأستقر وتهدأ أعصابي وأتفرغ لقضيتنا المقدسة.

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

«عُينت من قبل السلطان ولن يعزلني هؤلاء الفلاحون!». ضحك الشيخ عبد الرحمن الجبرتي وهو يردد قول خورشيد باشا أمام أيوب السبع مؤكدًا أن مكر محمد علي بلا حدود، وأن هذا المكر هو الذي أطاح بخورشيد وأوصله للسلطة قبل ثلاثة أشهر.

كان الرجل قد توقف أمام دكان أيوب في التاسعة صباحًا ومعه خادمه رستم، فتلقاه الشاب بترحاب كبير، لكن الشيخ عاتبه قائلًا:

- لقد نسيتني يا أيوب، فلم تزرني منذ أن كان جيش الفرنساوية يملأ مصر ومدنها من الصعيد حتى الإسكندرية.. هل تذكر؟

للحظة شعر أيوب بتوتر في معدته؛ إذ تذكر كيف انتهت الزيارة الوحيدة التي قام بها لقصر الجبرتي في بولاق قبل أعوام طويلة. لقد غادر المكان آنذاك بعد أن سأله الجبرتي عن العصبة التي تقتل الفرنساوية.. غادره مرتبكًا ونادمًا، لكنه أجاب:

- أذكر طبعًا يا مولانا.. فسامحني وأنا أعرف أن مشاغلك كثيرة وسفرياتك أكثر.. تفضل.. تفضل.

fb/mashro3pdf

ثم أكمل وهو يشير له كي يستريح على الأريكة الكبيرة عند مدخل الباب:

- إن شاء الله.. تشرفني زيارتك إذا سمحت ظروفك.

جلس الجبرتي على الأريكة وهو يلهث قليلًا، بينما افترش خادمه الأرض أمام الدكان. جال الشيخ ببصره في أرجاء المكان وزواياه، وغمغم وهو يخلع عمامته ويجفف عرقه بمنديل أبيض أخرجه من جيب قفطانه:

- دكانك كما هو.. لم يتغير.. رغم أن كل شيء في الدنيا يتغير يا بني.

ابتسم أيوب وهو يناول الضيف قُلّة ليشرب وقال باسمًا:

- أجل.. لكنني تغيرت.. فقد تزوجت ابنة صديقك الحاج عبد المجيد العطار، وسأصبح أبًا عن قريب إن شاء الله.

- مبارك.. مبارك.. إنه رجل فاضل، ولا بد أن ابنته تتمتع بخصال طيبة مثل أبيها.. بارك الله زواجكما يا بني. على أية حال.. الزواج يصون الفتى من المعاصي.

ثم ارتوى وتجشأ وقال:

- أبحث عن كتاب «معجم البلدان» لياقوت الحموي، فقد فقدته للأسف الشديد، ولا أعرف متى ولا كيف.

على الفور أجاب أيوب مؤكدًا:

- عندي نسخة منه.. سأقوم بنسخ واحدة جديدة لك إذا شئت.

- بارك الله فيك يا بني.

fb/mashro3pdf

فجأة سُمعت جلبة خارج الدكان، فهُرع أيوب نحو الباب ليستعلم ما الخبر، فشاهد مجموعة من جنود الأرناؤوط ترجلوا عن جيادهم واحتلوا الساحة الشاسعة أمام مسجد الحسين، ثم راحوا يصطفون بنظام صارم مشكلين عدة مربعات شاهرين أسلحتهم في استعراض للقوة، بينما اتخذت مجموعة أخرى أماكنها عند مدخل طريق الموسكي. سأل أيوب أحد المارة عما يحدث، فقال إن محمد علي سيصل إلى الساحة بعد قليل، وسيلقي كلمة للشعب.

دعا أيوب الشيخ الجبرتي ليرى المشهد، فاستجاب الرجل على الفور، واختارا زاوية تسمح لهما برؤية الساحة بشكل أفضل، كما تجعل أيوب يطل على دكانه المفتوح ويطمئن عليه. لاحظ الشاب أن الناس بدأت تتوافد بكثافة، وأن الساحة ستمتلئ عن آخرها في ظرف دقائق، فسأل الشيخ مستاءً:

- ما كل هذا الزحام؟

- الناس تحبه يا بني!

- لمَ يا مولانا؟

زمّ الجبرتي شفتيه، وضيق عينيه فبدا كرجل مكروب وهمس:

- هل نسيت يا أيوب مواقفه التي انحاز فيها للشعب في العامين الأخيرين.. لقد أمر بفتح مخازن الغلال وتوزيعها على الفقراء عندما اشتد الفقر وشح الخبز، كما رفض تنفيذ أوامر البرديسي بفرض

fb/mashro3pdf

ضرائب جديدة على الناس كي تزيد الخزانة ويدفع الوالي الرواتب المتأخرة للجنود، كما تمكن محمد علي من طرد المماليك من المنيا والسيطرة عليها، وأنت تعلم أن المنيا هي مفتاح القاهرة إلى الصعيد وخيراته، وهو الذي..

قاطعه أيوب قائلًا:

- ولكنه يفعل كل ذلك من أجل كسب رضا الشعب للوصول للسلطة، ثم إن كل الجنود الذين يمرحون في بلادنا من الأجانب، سواء كانوا جنود خورشيد أو خسرو أو البرديسي أو محمد علي نفسه، والأدهى يا مولانا أن والينا الجديد لا يعرف اللغة العربية ولم يعش بيننا إلا أربعة أعوام فقط، فكيف سيحكمنا بالعدل؟

ضحك الجبرتي فظهرت أسنانه بيضاء ذات بروز خفيف إلى الأمام وقال:

- ومَن أخبرك أنه سيحكمنا بالعدل؟ فالعدل غاية لا تُدرك يا أيوب، أما بخصوص جهله بلغتنا العربية، فهذا أمر هين؛ إذ إنه يستعين بترجمان مثلما كان يفعل بونابرته ومعظم مَن كانوا قبله وبعده، لا تنشغل بمسألة اللغة كثيرًا، فالسلطان العثماني نفسه لا يعرف العربية وهو الذي يحكم كل الشعوب التي تتحدث العربية، المهم أن يكون مسلمًا مثلنا، صحيح أن هناك مَن يزعم أن محمد علي من أصول تركية، لكن ثمة مَن يؤكد أنه ألباني الأصل.. أي أرناؤوطي كما نطلق عليهم هنا، لكن كل هذا لا يهم الناس، فالمهم كما قلت لك أن يكون مسلمًا مثلنا، أما

fb/mashro3pdf

حكاية الجنود الأجانب فمعلوماتي التاريخية تؤكد أن المصريين لم يصلوا إلى مناصب قيادية في الجيش على الإطلاق، وأن كل القادة الذين سيطروا على جيشنا المكون من جنود مصريين وغير مصريين جاءوا من بلدان أخرى بعد أن اشتراهم البكوات من أسواق العبيد في جورجيا والقوقاز!

ازدادت أشعة الشمس سخونة، فنادى الجبرتي خادمه رستم ليأتيه بالعمامة من الدكان، لتقيه من قيظ أغسطس. فجأة صاحت الجماهير وأشاروا جهة دار محمد بك أبو الدهب، فشوهد كبار التجار والمشايخ يمتطون جيادهم ويتحركون بأبهة وخيلاء في اتجاه الساحة في شبه موكب متميز، وصاح أيوب:

- أرأيت يا مولانا.. ها هو شيخ الأزهر عبد الله الشرقاوي والسيد عمر مكرم وأحمد المحروقي شاهبندر التجار يتوافدون على الساحة.. ألن ترافقهم؟

ابتسم الجبرتي وهو يحبك وضع العمامة على رأسه، وهمس:

- لا يا بني.. هؤلاء كما تعرف هم الذين اختاروا محمد علي ليحكمنا، وألبسوه العباءة المبطنة بالفرو ليلة 12 مايو الماضي، وأرسلوا إلى السلطان العثماني طالبين عزل خورشيد باشا والموافقة على تعيين محمد علي واليًا على مصر، بالرغم من أن السلطان كان قد أصدر قبل ذلك فرمانًا بتعيين محمد علي واليًا على جدة، لكن الخبيث تباطأ عن عمد في تنفيذ الفرمان، وفي تقديري أنه كان يخطط لما حدث،

fb/mashro3pdf

ولا تنسَ يا أيوب أن السيد عمر مكرم جاب بنفسه الشوارع والأزقة والحواري والعطوف يحضُّ الناس على الاستعداد لنصرة محمد علي ومواجهة جنود خورشيد باشا عندما قرر العلماء والتجار عزله من منصبه، خاصة وأنه رفض وقال: «لقد عُينت من قبل السلطان ولن يعزلني هؤلاء الفلاحون»!

قال العبارة الأخيرة وهو يضحك، فجامله أيوب وبادر بصوت ينبض بحماسة الشباب:

- أعرف يا مولانا.. لقد أُغلقت الدكاكين في ذلك الوقت وباع الكثير من الفقراء حاجاتهم القليلة وابتاعوا بها سيوفًا وخناجر وسكاكين وأقاموا المتاريس في القلعة والحسين وبولاق والحسينية ومصر القديمة والدرب الأحمر استعدادًا لمواجهة خورشيد وجنوده.

- لكن خورشيد خاف بعد أن انفضّ عنه جنوده واستسلم للأمر الواقع برغم أنه..

توقف الجبرتي حين رأى بائع العرقسوس، فناداه وطلب ثلاثة أقداح؛ إذ لم ينسَ خادمه رستم الذي اقتعد الأرض مواجهًا لسيده في انتظار أية إشارة، لكن أيوب أصر على الدفع قائلًا:

- أنت ضيفنا يا مولانا، لكن النا...

وقبل أن يواصل كلامه وصل علي أبو حمص ودياب ضاضو إلى دكانه، فصاح مناديًا:

- هيا.. أقبلا يا صديقيَّ!

fb/mashro3pdf

التفَّت العصبة حول الجبرتي وراحوا يمطرونه بالأسئلة وهم يتابعون الحشود التي تتقاطر على ساحة جامع الحسين في انتظار وصول محمد علي باشا الذي سيُلقي كلمة للشعب كما قيل، وسأل علي أبو حمص الشيخ المعمم:

- هل تتوقع أن يحقق الباشا الجديد العدل وينصف الفقراء؟

ضحك الجبرتي ملء شدقيه فانتفخت عروقه حتى كادت تنفجر وهتف:

- عن أي عدل تتحدث يا بني؟ العدل جوهرة مدفونة في تراب الظلم والاستبداد والقهر والفقر، فمَن يستطيع إخراجها؟ أنتم تعلمون أني مؤرخ، ولم أطالع أبدًا في كل قراءاتي أن واليًا جلس على عرش مصر استطاع أن يحقق العدل الذي نبتغيه، كما أن الشعوب التي لا تعرف القراءة والكتابة ستظل شعوبًا جاهلة بحقوقها، ويسوقها الحكام كالبهائم، ونحن للأسف يا شباب شعب جاهل إلى درجة مؤسفة، وقد اكتشفنا ذلك عندما جاء الفرنساوية بعلمهم وألاعيبهم، وكان لي الـ...

فجأة أطلقت المدافع فارتجَّ الفضاء بصوت بالرعد أشبه، وصاح الأطفال والصبية مهللين، واشرأبت الأعناق كلها نحو الفارس المقبل من جهة الموسكي قادمًا من داره بالأزبكية تحيط به كوكبة من الحراس الأرناؤوط الأقوياء أولي العزم، وأطلت النساء من النوافذ والشرفات يزغردن ويهللن، وتمادى بعضهن فرقصن أمام مداخل الدور والدكاكين

fb/mashro3pdf

فرحًا وطربًا، لكن ظل الجنود متراصين مترقبين يسددون نظراتهم القاسية نحو الجماهير.

في خضم هذا الصخب استطاع الخواجة شارل التسلل وسط الحشود حتى بلغ دكان أيوب فدخله ووضع أغراض الرسم داخله، فلما خرج رآه أيوب، فناداه لينضم إلى الحلقة التي تلتف حول الجبرتي وتساءل:

- هل وصل محمد علي؟

أجاب أيوب:

- نعم يا مسيو شارل.. إنه هناك عند مدخل الموسكي، لكن الحراس يحيطون به تمامًا، فلا نكاد نراه.

وقال علي متهكمًا:

- لكننا نرى الجواد الذي يمتطيه.. إنه أبيض ومطهم وقوي وجميل!

لاح محمد علي شابًا عفيًا في الخامسة والثلاثين مزودًا بعينين بنيتين يعلوهما حاجبان كثيفان إلى حدٍّ ما، أما لحيته فناعمة ومشربة بحمرة، يرتدي زيًا عسكريًا مهيبًا، ورأسه مغطًى بعمامة كبيرة ناصعة البياض. يمد بصره نحو الجموع بحذر رغم ابتسامة مصطنعة مرسومة بحساب على شفتيه، ويبدو للمتأمل أن هناك تقوسًا خفيفًا في ظهره، وبجواره مباشرة يمتطي ترجمانه الخاص صهوة حصان بنيٍّ عفيٍّ.

fb/mashro3pdf

عندما اقترب من منتصف الساحة وسط تهليل الجموع، رفع محمد علي سيفه وهتف بلهجة مصرية متكسرة: «الله أكبر.. الله أكبر»، فرددت الجموع الهتاف وراءه بنشوة غامرة، وهمس أيوب لعلي:

- لقد خدع الناس.

ثم تناهت إلى أسماع الجبرتي وأيوب ومَن حولهما أصوات متنوعة:

- محمد علي منقذ مصر من قُطَّاع الطرق والمجرمين والقتلة.

- إنه يستحق منَّا كل تقدير وإجلال.

- إنه سيقضي على ظلم المماليك.

- إنه حامي البلد.

- بل قل إنه الناهب الجديد للبلد!

التفت أيوب نحو صاحب العبارة الأخيرة باهتمام، فرأى شابًّا متحفزًا تقطر من عينيه آيات النقمة والغيظ..

ثم انطلق صوت آخر:

- يكفي أنه أنقذنا من البرديسي وخورشيد وخسرو وكل الطماعين!

- إنه واحد منهم.. فكلهم أجانب لا يهمهم الشعب في شيء.. نريد أن يحكمنا رجل مصري عادل وشريف.

fb/mashro3pdf

انشرح صدر أيوب وتهلل وجهه، ثم تبادل نظرات دالة مع دياب وعلي أبو حمص والخواجة شارل، لكن الشيخ الجبرتي سأله بصوت خفيض حرص على ألا يسمعه أحد سواه:

- هل عندك فكرة يا أيوب أن بعض الشباب راحوا يطالبون بعزل محمد علي ويروجون لفكرة مجنونة وهي أن يحكم مصر رجل مصري؟

«أنت مرة أخرى يا جبرتي تسبب الأذى لمعدتي».. هذه أول عبارة رددها خاطر أيوب، لكنه أشار برأسه نافيًا علمه بما قاله الشيخ المعمم، وبسرعة التفت نحو الرسام الفرنسي هربًا من عيني الجبرتي وسأله:

- ما رأيك يا مسيو شارل في هذا المشهد العجيب؟

ابتسم الرجل وقال وهو يتأمل الوالي الجديد والجماهير الغفيرة حوله:

- مشهد نادر المثال.. سأصوره قريبًا جدًّا في لوحة ضخمة!

* * *

fb/mashro3pdf

المجزرة!

- لماذا تأخرت يا علي.. فالأصدقاء كلهم موجودون بعد أذان المغرب بنصف ساعة كما اتفقنا؟

بحدَّةٍ سأل أيوب صديقه تحت سماء ملبدة بغيوم أكثر من المعتاد في مساءات نوفمبر، فقال علي معتذرًا:

- كنت أبحث عن دياب لأخبره بموعدنا.

- لقد أخبرتك أمس بأنني أبلغته باللقاء حين زارني في الدكان، فلنكمل حديثنا، والغائب حجته معه.

بهذه العبارة أنهى أيوب الحديث عن التأخير ومضى يشرح لعلي ما قالوه قبل حضوره.

بلغ عدد المجتمعين تحت شجرة الجميز المعمرة بصحراء الدراسة خمسة شباب، بعد أن انضم ثلاثة جدد إلى التنظيم. لم تكن المرة الأولى التي يحضر فيها هؤلاء الشباب اللقاءات السرية، لكنهم في هذه الليلة بدوا أكثر حماسة من ذي قبل؛ إذ قال أكثرهم حصافة:

fb/mashro3pdf

- يا جماعة.. إن الفقر ما زال يطحن غالبية المصريين، ولم يفعل محمد علي شيئًا، والناس بدأت تنتقده وتترحم على زمن مراد بك وإبراهيم بك، رغم أنه كان زمنًا أسود!

ضحك الشاب الثاني وأضاف شامتًا في محمد علي:

- بل أخذوا يقارنون الأحوال بين عهد بونابرته وبين هذا الوالي الأرناؤوطي، معلنين أن الأسعار في زمن السلطان الكبير كانت أرخص!

وقال علي كمَن تذكر شيئًا مهمًّا:

- هل علمتم؟! لقد أرسل محمد علي في استدعاء ابنيه إبراهيم وطوسون من مقدونيا إلى مصر.. أي أنه اطمأن إلى كونه باقيًا في السلطة!

صحح أيوب المعلومة ممتعضًا:

- لقد وصل الشقيقان بالفعل في نهاية أغسطس الماضي، بعد أن شاهدنا لقاءه الحاشد بالجموع عند ساحة مسجد الحسين!

خيم صمت ثقيل مقترن بموجة برد مفاجئة هبّت من جهة الشمال، فارتجف أحد الشباب، وقال:

- لا يهمنا استدعاءه لابنيه، فهما صغيران، لكن الأهم ألا نتوقف عن تحريض الناس ضده وضد جنوده، فقد باتوا أكثر شراسة وعدوانية.

fb/mashro3pdf

بصوتٍ رفيعٍ حادٍّ صاح أحد الشباب للمرة الأولى:

- أين مشايخنا؟ لماذا لا يتدخلون عنده ليأمر قواته بالتعامل بالحسنى مع المصريين؟

غمغم أيوب وقال بحسرة:

- لقد رفعوه على كرسي العرش وانتهى الأمر بالنسبة لهم، فتجارتهم أولى وأهم، ومكاسبهم تزداد، وقد تمتعوا بالأمان في حضرته لأنهم مَن ألبسوه العباءة!

زمجرت ريح خفيفة، فنظر أيوب إلى السماء فلم يرَ سوى سحب متجمعة قاتمة ونجوم خائفة تتوارى خلفها وقال:

- يبدو أنها ستمطر اليوم.

ثم أضاف في كلمة وداعية:

- على أية حال.. لقد قلنا كل شيء الليلة، وألخص لكم ما اتفقنا عليه، وهو ضرورة أن نزيد من تأثيرنا على الناس ليدركوا أهمية أن يحكم مصر رجل مصري عادل وشريف، وأن ننتبه جيدًا ولا نفاتح أحدًا في هذا الأمر إلا بعد التأكد من إخلاصه ووطنيته وطيبته حتى لا يفشي سرنا أمام رجال الباشا الجديد، وعلينا أيضًا أن نحا..

توقف أيوب فجأة حين وصله صوت دياب ضاضو صائحًا:

- أين أنتم يا أصدقائي؟

fb/mashro3pdf

أمست الظلمة بالغة الشدة، والأصدقاء تكوَّموا تحت الشجرة المعمرة، فلم تظهر ملامحهم إلا بالكاد، وقال أيوب بصدرٍ منشرح:

- تعالَ يا دياب.. نحن هنا.

استقبله الشباب الجدد بالترحاب، وداعبه أحدهم قائلًا:

- تخرج من سجن القلعة أول أمس وتجلس معنا اليوم.. ألا تطمع في بعض الراحة مع أهل بيتك؟

عنَّفه أيوب وهتف:

- هل هذا كلام.. ليتنا نتعلم من حماسة دياب!

تفرس القادم الجديد في وجوه زملائه، فلما التقت عيناه بعيني أيوب أشاحهما سريعًا وقال موجهًا حديثه للشاب الذي داعبه:

- قضيتنا مهمة ولا وقت لدينا للراحة.

ابتسم أيوب وربَّت كتفه وقال:

- ونعم الصديق الوفي أنت يا دياب!

مرَّت موجة باردة لثوانٍ أعقبتها شذرات خفيفة من المطر، فغمغم أيوب: «اللهم اجعله خيرًا»، وسقطت نظرة منه دون قصد على مأوى العفاريت القريب، فخطرت له حسنات بملامحها وغنجها وسخونتها، فشعر بوخز الضمير للحظة، وطافت فرانسوا بخياله فكتم شعلة غيظ اشتعلت في صدره فجأة، وتفرس في وجه دياب قليلًا وقال له:

- يبدو أنك مرهق، فملامحك مجهدة للغاية!

- لا شيء.. لا شيء!

fb/mashro3pdf

رددها دياب سريعًا، ثم استأذن ليتبول بعيدًا عنهم، لكنه التفت خلفه للمرة الأخيرة رامقًا أيوب بنظرات متناقضة، وصاح صيحة مدوية: «هيا يا جنود».

في لمح البصر انبثق خمسة رجال مسلحين من براثن الظلام؛ إذ كانوا مختبئين خلف مأوى العفاريت، وأمطروا العصبة برصاصهم فأردوهم قتلى في الحال وسط صرخات وتأوهات وآلام ودماء، ثم اقترب قائدهم تحت ضوء النجوم الشاحبة وصافح دياب قائلًا:

- شكرًا جزيلًا يا دياب.. أنت بحق تستحق أن تكون من الرجال المخلصين لوالينا المعظم محمد علي باشا.

ثم ناوله كيس نقود، وصافحه مودعًا، لكن دياب الذي اعترته رجفة مفاجئة، تأمل أصدقاءه الصرعى بقلب ممزق، فحبس دموعه بصعوبة وأخفى وجهه براحتيه حتى لا يرى جثث أصدقائه، ودنا من القائد وسأله بصوت مرتبك ومرتعش:

- هل أستطيع الآن اصطحاب أسرتي والرحيل إلى إنبابة والإقامة بها؟

ضحك الرجل بشكل هستيري وصاح:

- تستطيع الرحيل إلى الأبد!

ثم أطلق عليه عدة رصاصات أسقطته في مكانه قريبًا من جثث أصدقائه!

* * *

fb/mashro3pdf

fb/mashro3pdf

شارل - ساعود

16 نوفمبر 1805

مات أيوب السبع.. قتلوه وستة من أصدقائه قبل ساعتين. هذا ما يؤكده القنصل الفرنسي. إنه يقرع بابي ويرجوني أن أرحل فورًا، فرجال الوالي الجديد يتشككون في أنني مَن كنت أحرض أيوب على بث الدعاية ضد محمد علي.

قتلوا أيوب النساخ.. أنبل المصريين وأذكاهم وأكثرهم عشقًا لوطنهم، ومهما أقسمت للقنصل بأنني لا أعرف شيئًا عن هذا التنظيم السري فلن يصدقني، لكن أيوب كان حريصًا بصورة لا تصدق، فكيف تمكن هذا الشاب النبيه من تأسيس أول تنظيم سياسي سري في مصر؟ مسكينة سعدية زوجته.. ترى هل تلقت خبر المصيبة؟ وكيف؟ وفي أحشائها ينمو ابن أيوب، وسيرى الطفل الدنيا وأبوه غادرها مقتولًا في صحراء الدراسة!

ما أقسى الزمن وما أبشع الحكام، ويبدو أنني مرصود للحزن والبكاء على فقدان الأحبة، ففي باريس قتلت الشرطة حبيبتي، وفي القاهرة

fb/mashro3pdf

قتلت الشرطة صديقي وأخي الصغير أيوب، كما قتل اللصوص شقيقتي فرانسوا! فإلى أين أذهب لأهرب من الدم والموت؟

يقول القنصل الفرنسي ببرود: «هيا يا شارل.. لملم أشياءك الثمينة سريعًا لتتوجّه إلى ميناء بولاق لتنطلق إلى الإسكندرية ومنها إلى فرنسا»، ويشرح تفاصيل المأساة: «لقد وشى بالمجموعة صديق لهم كانوا قد أوقفوه وحبسوه في سجن القلعة وهددوه بقتل أبنائه». آه.. إنه دياب ضاضو النذل الخائن.. لم أسترح حين أفرجوا عنه وجاءني أيوب متهللًا قبل يومين.. لم يعتد حكام هذا البلد أن يفرجوا عن أحد إلا إذا كان بهدف مريب. ليتني حذرتك يا أيوب!

ويصرخ القنصل حين لم أُبدِ أي اهتمام، فالصدمة تشل أعصابي وتبدد تفكيري: «لقد رجوتهم أن يمهلوك قليلًا لترتب أوضاعك، فمنحوني ثلاث ساعات فقط، ووعدتهم بأنني سأتولى الأمر وأصطحبك حتى الإسكندرية لتركب أول سفينة تنطلق خارج البلاد.. وجودك غير مرغوب فيه».

كيف أغادر مصر ومسعدة حجاب تسكن في القلب؟ كيف أترك ابني محمد وحيدًا بلا أب وهو مَن نقلني من جيل الشباب المحزون إلى جيل الآباء المحبين للحياة؟ لا لن أنصاع لنصائحك يا سعادة القنصل.. فالبلد الذي تقطنه حبيبتي وأم ابني هو بلدي.. يهددني القنصل: «سيعتقلونك ويقتلونك كما قتلوا قنصلنا في الإسكندرية منذ عقود قليلة».

fb/mashro3pdf

حسنًا.. سأرضخ.. سألملم أشيائي.. سأغادر.. هيا يا سليم.. ساعدني.. لكني أتمتم بصوت مسموع: «يجب أن أرى مسعدة حجاب». يسألني القنصل بارتياب: «مَن مسعدة حجاب؟». ألا تعرف مَن مسعدة حجاب يا سعادة القنصل؟ إنها أجمل وأجرأ امرأة رأيتها في حياتي.. إنها أم محمد ابني.. لم أقل له سوى أن مسعدة سيدة عزيزة على قلبي.

يحتج القنصل ويصرخ: «هيا.. لا وقت للعواطف يا شارل. عربتي بالخارج جاهزة لحمل أغراضك». لا أرد، لكني أتذكر سعدية وأنا أجمع لوحاتي، وأتذكر الصورة التي رسمتها لزوجها المقتول، فأخبر القنصل بحسم: «ستتوجه إلى سعدية عند المشهد الحسيني، وبعدها إلى الحي الإفرنجي بالأزبكية قبل الذهاب إلى الميناء».

يتململ القنصل.. يصمت.. يصب لنفسه قدح نبيذ.. يجلس على الكنبة الكبيرة التي تتوسط القاعة الرئيسية.. يساعدني سليم في جمع اللوحات وربطها، إلا صورة أيوب السبع، فقد حملتها تحت إبطي. يضع سليم الصندوق الخشبي الكبير واللوحات فوق عربة القنصل، ثم نصعد فوقها. يتخذ سليم موقع السائس وأجلس أنا والقنصل في الخلف. وأطلب منه أن نتوجَّه أولًا إلى حارة المشهد الحسيني. تسيل دموع ساخنة من عيني قبل أن أطرق باب بيت الصديق المقتول. الساعة تقترب من العاشرة ليلًا، وسعدية تسأل بقلق من خلف الباب: «مَن الطارق في هذه الساعة؟». إذن لم تعرف المصيبة بعد. صوتها يؤكد ذلك. قلت لها إني شارل جئت لأودعهما لأني سأغادر إلى فرنسا فورًا بسبب ظرف طارئ.

fb/mashro3pdf

فُتح الباب.. سعدية ببطنها المنتفخ تبتسم وبجوارها الخادمة وتقول ضاحكة: «بنسوار مسيو شارل.. أيوب لم يأتِ بعد.. تفضل». يردد خاطري بحزن: «ولن يأتي أبدًا». أناولها صورة أيوب دون أن أجرؤ على النظر في عينيها، تتأملها بحب وتهمس: «صورة جميلة كما وصفها لي أيوب.. سيفرح كثيرًا بها». أنصرف سريعًا قبل أن أصرخ: «لن يفرح.. لقد قتلوه». يصلني صوتها من بعيد: «عد إلينا سريعًا.. لا تغب يا مسيو شارل».

تخترق العربة الطريق المترب في اتجاه الأزبكية محدثة ضجيجًا مقلقًا، ألمح أشباحًا من البشر متراصة على مقهى بالقرب من جامع البنات يتسامرون ويتضاحكون ويدخنون الشيشة ولا يعلمون شيئًا عن مصرع أيوب السبع ورفاقه. يلح عليَّ صوت حاد قادمًا من المجهول: «ماذا لو أخبرت هؤلاء السهرانين عن الدم المراق في الدراسة قبل قليل؟». يتناهى إلى أسماعنا نباح كلاب ضالة، ونقيق ضفادع يأتي إلينا من ترعة صغيرة تشق درب الجماميز في الجهة المقابلة. نتلقى أمطارًا خفيفة مشبعة بروائح أشجار الجازورينا والتوت والجميز حين نقترب من الأزبكية. الليل يزداد كثافة والأحزان تتكدس في قلبي. النجوم تناضل لتخترق السحب المتكتلة، فتتمكن من بث أنوار شاحبة بالكاد تجعلنا نرى ملامح الطريق. يتعجب سليم من توجيهاتي.. ادخل يمينًا، ثم يسارًا.. دُرْ في الاتجاه الآخر.. قف هنا.

fb/mashro3pdf

أهبط من العربة. «من فضلك.. لا تتأخر»، يرجوني القنصل وهو يربت كتفي. أطرق الباب بقوة.. أسمع صوت أم إمام تبسمل وتحولق بقلق: «مَن الطارق؟». أخبرها مَن أنا. أدخل وأغلق الباب خلفي فأتوتر من صريره المزعج. تهرع نحوي مسعدة حجاب بقميص نوم أزرق ينتابها جزع شديد وهي تهتف: «خيرًا.. ما الذي جاء بك في هذه الساعة يا شارل؟». أضمها في صدري بقوة. أسألها بلهفة: «أين ابني محمد؟».

تمسك كفي اليمنى بقوة وتقول دون أن ترفع عينيها عن عيني: «إنه نائم بالداخل؟». تنهمر مني دموع ساخنة بغزارة فتضمني في صدرها.. تمسح شعري بحنان.. تصرخ: «ماذا حدث يا شارل؟».

أجفف دموعي وأهمس: «لا شيء.. لكني مضطر إلى السفر فورًا إلى فرنسا». تشهق مسعدة وتخبط صدرها بيدها رعبًا من الخبر الموجع وتقول بهلع: «وتتركني أنا وابنك». ثم تنخرط في موجة بكاء ويخرج صوتها حادًّا كسكين وتهمس: «أقسم إن هناك شيئًا ما حدث، وإلا ما جئتني في هذه الساعة المتأخرة وأنت أحرص الناس!».

fb/mashro3pdf

قلت لها بصوت مهموس: «قتلوا أيوب السبع». صرخت: «مَن أيوب السبع؟». ضممتها في صدري وقلت: «سأخبركِ فيما بعد». التصقت بي وشعرت بدفئها.. كانت تريد أن تمتصني في جسدها. قبّلت جبينها بحنان، ثم سقط في الحجرة صمت ثقيل.. مرت اللحظات الساكنة كدهر.. طلبت منها أن ألقي نظرة على محمد. اصطحبتني إلى غرفة داخلية. نومه عميق.. وملامحه ناعمة وتنفسه هادئ. انحنيت فوقه

ورفعت الغطاء قليلًا، ثم قبّلت جبينه وراحته اليمنى. راقبتني مسعدة بعينين حائرتين. سألتني مرة أخرى بقلق: «مَن أيوب السبع؟». عاينت ملامحها برفق، وقلت وحزن العالم كله يرن في صوتي: «فيما بعد ستعرفين كل شيء.. إنه أنبل أبناء هذا البلد الطيب». ثم أحطتها بذراعي حتى وصلنا إلى باب الدار، فضممتها في صدري، وسمعت أم إمام تقول: «مع السلامة يا سيدي». شكرتها بحركة من رأسي، ووضعت وجه مسعدة بين راحتي ولثمت فاها للحظة وقلت لها بنبرة يقين: «لا تقلقي يا حبيبتي.. سأعود».

قبلتني في خدي الأيمن وهتفت بصوت مبحوح: «لا تنسانا يا شارل.. نحن في انتظارك».

* * *

القاهرة/ التجمع الخامس

2013 /8/ 1

2015 /1/ 3

fb/mashro3pdf